لغز شارع جيكوب

آر أوستن فريمان

لغز شارع جيكوب

تأليف
آر أوستن فريمان

ترجمة
سارة ياقوت

مراجعة
شيماء طه الريدي

هنـــداوي

لغز شارع جيكوب

آر أوستن فريمان

The Jacob Street Mystery

R. Austin Freeman

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شيبت ستريت، ويندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: يوسف غازي

الترقيم الدولي: ٢ ٢٣٣٢ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٤٢.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص هذا الكتاب مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤,٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

إهداء ٧

الجزء الأول: مكيدة تُحاك ٩

١- المتنصِّتة ١١

٢- السيد بلاندي ٢١

٣- السيدة شيلر ٣٥

٤- السيد فاندربوي ٤٧

٥- فصل غير ذي أهمية لكنْ ذو صلة ٥٧

٦- غابة إسيكس ٦٩

٧- عداد خطًى ومأساة ٧٩

٨- اكتشافات جديدة ٩١

٩- أين لوتا؟ ١١٣

١٠- زيارة أخرى إلى المعسكر ١٢٣

الجزء الثاني: العنصر المجهول ١٣٥

١١- السيد بينفيلد يحرك الأمور ١٣٧

١٢- توم بيدلي يستقبل زوارًا ١٤٧

١٣- ثورندايك يلجأ إلى السرية ١٦١

١٤- محكمة المواريث والوصايا ١٧١

١٥- السيد لوريمر يعترض ١٨١
١٦- المفتش ميلر يتدخل ١٨٩
١٧- ملاحظات في فن التنكر ٢٠٣
١٨- مراجعة التحقيق ٢١١

إهداء

إلى بي إم ستون.
أقرب وأطيب أصدقائي الأمريكيِّين أهل الطيبة والكرم.

الجزء الأول

مكيدة تُحاك

الفصل الأول

المتنصِّتة

في عصرِ يومٍ لطيف مشمس قربَ نهاية شهر مايو، ذلك الوقت الذي تلتحمُ فيه نهاية الربيع بمطلع الصيف، جلس السيد توماس بيدلي (الذي يُناديه أصدقاؤه توم بيدلي، أو توم فحَسْب في الغالب) على كرسيٍّ للرسم دون ظَهر، أمام حاملٍ من خشب البامبو فاتحِ اللون، ثُبِّت عليه لوحٌ رأسي أبعاده ثماني عشرة بوصة في اثنتي عشرة بوصة. كان مظهره وثيابه البسيطةُ المتقَنة الصنعِ وسَلاسته المتأنية في استخدام الفرشاة، والصورةُ التي بدأت معالمها تتكون على لوح الرسم، للعين الخبيرة، جميعُهم يُوحون بأنه رسامٌ مُحنَّك في فنِّ التصوير الطبيعي.

وقد كان توم بيدلي بالفعل كذلك. فمنذ صِباه المبكر الذي ولَّى عليه بضعٌ وأربعون عامًا، كان الرسمُ والتلوين شغفَه المسيطر، وهو شغفٌ اقترن بحبِّ الريف الذي هو سِمةُ رسَّامي الطبيعة الموهوبين بالفطرة. كان الريف، الذي لم تكن المدنيَّةُ قد طمسَت معالمه بعدُ في أيام صباه، بالنسبة له، نبعًا لا ينضب من البهجة ومحلَّ دراسة وتأمُّلٍ لا نهائيَّين. كانت كل نزهة من نزهاته اليومية عبرَ المرعى أو الغابة، أو بجوار الحقول أو القُرى الصغيرة الهادئة؛ بمنزلةِ رحلةِ استكشاف تحمل له اكتشافاتٍ جديدة، وحقائقَ جديدة ذاتَ أشكال مميزة وألوانٍ خفية غيرِ متوقعة، يُضيفها إلى جَعْبة معرفته التي لا تنفكُّ تزداد بتلك الجوانب الأقلِّ وضوحًا من الطبيعة، والتي يَضطلع رسامو التصوير الطبيعي بكشفِها. ومرت الأعوام، وطمَسَت يدُ وسائل النقل الميكانيكية المدمرةِ ملامحَ الريف، فصارت تلك المعارفُ أثمنَ وأغلى. والآن، بات عليه البحث عن بقاياه المتضائلة، وإيجادُها بحُسن تقدير ممحَّص، ثم استكمالُ عناصرها الشحيحة بتفاصيلَ يستدعيها من مخازن ذكريات الماضي.

كانت الصورة التي بدأت تتكوَّن على لوح الرسم مثالًا للتطبيق العملي لتلك المعارف التي اكتسبها بطريق الخبرة. سيظنُّ الناظر الذي يراها على جدار أحد المعارض الفنية أنها تُصور براحًا مفتوحًا في غابة شاسِعة. لكن في الواقع، لم يكن المكان إلا أجَمة صغيرة توقفَت عن النمو، آخر واحة ناجيةٍ في الصحراء الزرية لأحد الأحياء «الناشئة». من «مخبئه» الكامن في أجمة من الشجيرات، كان توم يسمع أصواتًا بعيدة واهِنة لأبواق السيارات الحادة، وهديرِ الحافلات، وقرقعة الشاحنات؛ وكان الطريق الذي جاء منه لا يَبعُد سوى مائةِ ياردة فحَسْب، وهو مسار مُخَدَّد يربط بين شارعٍ غير مُكتمِل الإنشاء وفِناءِ مزرعة متهدِّم.

لكن باستثناء هذا الصخب المروري، كان المكان يبعث على السكينة والهدوء على نحوٍ غريب، وعزَّز سكونَه أصواتُ الطبيعة التي تخلَّلته. ففي مكانٍ ما وسط الأشجار الوارفة الأوراق القريبة للغاية، كان ثَمة طائرُ دج يُغرد بابتهاج، وعلى غصن فوق رأسه مباشرة وقف شرشور يُردد مرارًا وتَكرارًا تغريدته القصيرة العذبة المطَّرِدةَ النَّغم. كانت العُزلة مثالية كما السكون. فقد بدا أنَّ قدمًا بشرية لم تطَأ ذلك المسار الوعر؛ إذ على مدار الساعتَين اللتين قضاهما توم منهمكًا في عمله، لم يَمرَّ به أي إنسان.

أخيرًا، عندما توقف كي يملأ غليونه ويتأمَّل بإمعان في الصورة التي رسمها، تهادى إلى سمعه أصواتٌ بشرية تلاها ظهورُ رجلَين يمشيان على مهلٍ عبر الدرب، ويتحادثان بنبرة جدِّية لكنها خافتة. لم يسمع توم ما يقولانه، غير أن الانطباع الذي تكوَّن لديه هو أن أسلوبهما كان بعيدًا كلَّ البعد عن أن يكون وديًّا. لكنه في الواقع لم يُعِرهما الكثير من الاهتمام، عَدا ملاحظة تأثير هيئتَيهما الداكنتَين المُحددتَين على الخلفية اللامتناهية، وحتى ذلك لم يُثِر اهتمامه كثيرًا؛ إذ كان موضوع لوحتِه لا يتطلَّب وجود أشخاص أصلًا، فما بالك برجل يرتدي قبعة سوداء مستديرة؟! لذا تابع ملء غليونه وتقييمَ عمله الذي أنجزه خلال فترةٍ ما بعد الظهيرة، فيما مرَّ الرجلان من أمامه دون أن يُلاحظاه — فهو يكاد لا يُرى فعليًّا من الدرب — وعندما اختفَيا عن بصره، أخرج علبة ثقابه وفيما كان يهمُّ بإشعال واحد، ظهرت هيئةٌ ثالثة لامرأة تسير في الاتجاه نفسِه الذي سلكه الرجلان الآخران.

في تلك المرة، أثار الأمر انتباه توم قطعًا، فجلس ساكنًا بلا حَراك، ممسكًا في يده عودَ الثقاب الذي لم يُشعلْه، ويسترقُ النظر عبر الفجوات بين الشُّجَيرات التي كانت تحجبه. كان سلوك السيدة غريبًا للغاية. كانت تتقدَّم بوتيرةٍ أسرعَ من الرجلَين نوعًا ما، لكن

بخطوات ساكنة مختلَسة، وبدا من حركاتها أنها تسترق السمع وتُحاول إبقاء الرجلَين في مرمى بصرها، لكن دون أن يرَيَاها.

راقَبَها توم باستنكار. كان يكره شتَّى أنواع المتطفِّلين، بخاصة المتطفلين المُتنصِّتين. لكن الأمر لم يكن يعنيه، وعندما غابت عن بصره، أشعل غليونه والتقط فرشاته، ونسي أمرها تمامًا.

لكنه على كل حال لم يكن قد انتهى من أمرها بعد. فلم تمرَّ سوى بضع دقائق على متابعته الرسم حتى عاودت الظهور، وحينها كان سلوكها أكثر غرابة. كانت تعود أدراجَها بوتيرة أسرع، وبالحركات المختلَسة ذاتها، تَسترِق السمع وتتلفَّت خلفها بشيء من الانزعاج. فجأة، حين صارت قبالة مخبأ توم تقريبًا، انسلَّت عبر فتحة بين الشجيرات وتوارت عن بصرِه.

كان ذلك غريبًا للغاية حقًّا. مرةً أخرى، نقل فرشاته إلى اليد التي تحمل لوحة ألوانه، وأصغى بإمعان، فيما تحسَّس جيبه بحثًا عن علبة الثقاب؛ إذ كان غليونه بالطبع قد انطفأ كعادة غلايين الرسَّامين دائمًا. وسرعان ما التقطت أذنه صوت وقْعِ خطوات؛ كانت خطوات خفيفة سريعة تقترب من جهة فِناء المزرعة. ثم ظهر رجل يسير بخطوات سريعة لكنها تكاد تكون خفيفة ومتسللة، متلفِّتًا حوله أثناء سيره في حذر.

مِن مَكْمنه وراء الشجيرات، جلس توم دون حَراك يُتابع ببصرِه الرجلَ العائد أدراجَه بعينٍ متسائلة، وأدرك أنه الأقصر بين الرجلَين اللذَين كان يسيران عبر الدَّرب، وراح يَتساءل عما ألمَّ بالآخر. ثم اختفى الرجل في اتجاه الشارع، بينما ظل توم جالسًا كالصنم ينتظر ليرى ما إذا كانت ثَمة أيُّ تطوُّرات أخرى ستجدُّ.

لم يَطُل انتظاره. فلم يكد صوت خطوات الرجل يخفُت، حتى خرجَت المرأة من مخبئها خُفْية، ووقفَت لبضع ثوانٍ تُصغي بإمعان وتَسترقُ النظر في الاتجاه الذي سلكه الرجلُ من الدرب. بعد ذلك بدأت تتبعُه ببطء وحذر، ثم ما لبِثَت أن غابت هي أيضًا عن الأنظار بين الأشجار.

أشعل توم غليونه وهو يُفكِّر بإمعان. كان ذلك أمرًا غريبًا. ماذا وراء كل ذلك؟ كان واضحًا أن المرأة كانت تتجسَّس على الرجلين؛ ويبدو أنها كانت تتنصَّت على حديثهما، وكانت حريصة بشدة على التواري عن نظرَيهما. كان هذا كل ما يَعنيه في الأمر؛ ولأن الأمر لا يعنيه في شيء على الإطلاق، قرَّر أنها كانت مجردَ واقعة غريبة ونفَضَها عن ذهنه.

غير أنه لم ينجح في ذلك. فتلك الواقعة قطعت تسلسل أفكارِه، ووجد صعوبة في أن يبدأ من جديد. لبضع دقائق، جاهد كي يُتابع من حيث توقف، مضيفًا لمسةً هنا ولمسة

هناك، ومرة أخرى، اتكأ للخلف ونظر إلى لوحته، ثم أخيرًا نهض من كرسيِّه وتراجع بضع خطوات كي يَتسنَّى له رؤيتُها بالكامل على نحوٍ أوضح. أحد أهم الأمور التي يتعلَّمها الرسامون بالخبرة هي متى يتوقَّفون؛ وبعد أن تأمَّل توم لوحته بنظرة تحليلية مُتمعِّنة، قرر أن الوقت قد حان لذلك. ظل يرسم ساعتَين متواصلتين، وكان رسامًا سريعًا رغم أسلوبه المتأنِّي؛ كان سريعًا لأنه يعلم ما يُريد فِعلَه بالضبط، ولا يَرتكب سوى أخطاء قليلة، ويرسم بأسلوب مباشر للغاية دون إهدارٍ للجهد.

بعد أنْ قرر توم أنَّ اللوحة قد اكتملت، وربما لم يعد ينقصها سوى بعض اللمسات يُضيفها إليها في مرسمه «لربط عناصرها»، بدأ في الحال يحزم أغراضه، فأغلق لوحة الألوان القابلةَ للطي ووضعها داخل صندوق الألوان الخشبي الخفيف، وثبَّت اللوحة داخل حامل لوح الرسم، ولف الفُرَش المستخدمة في خِرقة التلوين. بعد أن وضع تلك الأغراض بنظام في حقيبته الكتفية، طوى الحاملَ والكرسي، وثبتهما في حزام الحمل، ثم وضع الحقيبة على كتِفه، وبعد أن ألقى نظرةً أخيرة على موضوع لوحته، شقَّ طريقه إلى الدرب عبر الشجيرات التحتية القصيرة.

عندما وصل إلى الدَّرب المُخدَّد، وقفَ بِضعَ ثوانٍ ينظر إليه في الاتجاهَين بينما يُعيد ملء غليونه. لم يكن رجلًا فضوليًّا، لكنَّ شيئًا من الفضول انتابَه تجاه ما حدث للرجل الذي ذهب ولم يَعُد. أعطَته استكشافاته السابقة انطباعًا بأن ذلك الدَّرب، أو ممرَّ العربات، يصل إلى نهاية مسدودة حيث تتلاشى الغابة تدريجيًّا ويبدأُ الخراب الجديد للعمار. يبدو أنه كان مُخطئًا؛ إذ لا بد أن ثمة تكملةً ما للدرب، ربما تُخبِّئ فرصًا جديدة لرسام الطبيعة.

بعد أن أشعل غليونه، سار على مهَل عبر الدرب لبضعِ وثلاثمائة ياردة حتى خرج من ظلِّ الغابة إلى ضوء النهار المباشر. وحينها، حُسِمت الإجابة عن سؤالَيه. فالدرب، أو على الأقل آثار عجلات العربات، كانت ظاهرة، وتمرُّ عبر بقايا بوابة، ثم تتعرَّج خلال فِناء المزرعة المتهدِّم متجهةً إلى حيث تُنذر أكوامٌ من القرميد المرصوص ومن مواد البناء المتنوِّعة بارتفاعِ مجموعة جديدة من المنازل مُشابهةٍ لتلك التي تستقرُّ وراءها. بالقرب منه من جهة اليمين، كان ثمة كومةُ قش قديمة أكَلَتها الفئران، وعلى مسافةِ بضع ياردات منها، سقيفة عربات متهدمة، تآكلَ سطحها المسقوف بالقش، كاشفًا عن روافدها الخشبية الناخِرة. نظر توم بأسًى إلى تلك الأنقاض الباعثة على الحزن للمزرعة التي لم يَعُد لها أثر، ثم التفتَ وعاد أدراجَه عبر الدرب.

لم يكد يَمشي متثاقلًا نحو مائتَي ياردة حتى التقطت أذناه أصواتَ سَنابكِ فرَس وهدير عجلات، يبدو أنها آتيةٌ من جهة الشارع؛ وعندما وصَل تقريبًا إلى الجهة المقابلة «لمخبئه»، ظهرت من وراء أحد المُنعطَفات عربةٌ ذات عجَلتَين. وقف ينظر إليها ويُلاحظ التأثير المثير للاهتمام للعربة ذات الشكل الريفي على الدرب المُتعرِّج، التي تَبرز بوضوح في صورة ظلِّية داكنة على خلفية من أوراق النباتات التي يَنعكِس عليها ضوءُ الشمس. عندما اقتربت منه، تراجع إلى الغابة كي يُفسح لها الطريق وتبادَلَ التحيةَ مع الرجل الذي يُمسك بزِمام الفرس؛ وبعد أن مرت من أمامه، التفتَ ليَنظر إليها ويُسجل ملاحظة ذهنية لمظهرها الذي تغيَّر بتغيُّر ظروف الإضاءة، حتى اختفَت وراء أحد منحنيات الدرب، وحينها تابع مسيره تجاه البلدة بخطوات سريعة وقد بدأ يشعر باهتمامٍ متزايد بالوجبة التي تنتظره في نهاية رحلته. في نهاية الطريق، حيث ينتهي إلى الشارع غير المكتمِل، توقف لبضع لحظات يتطلَّع بغَضاضةٍ إلى المنظر القبيح، الذي كان منذ سنة واحدة فحسب لا يزال جزءًا من الريف، وبعد أن تبادل بضع كلمات مع بَنَّاءٍ عجوز بدا أنه يحرس كومة من القرميد، تابع سيره إلى الطريق الرئيسي كي يتَّخذ موضعه في محطة الحافلات.

كان وقتُ الانتظار طويلًا، قضاه يَذْرع المكان جَيئةً وذهابًا، وينظر بترقُّب في كل الْتِفاتة إلى الاتجاه الذي ستأتي منه الحافلة. من شرطيٍّ شاب مرَّ بجواره، عرَف موعد وصولها بعبارة غير واضحة، أضاف إليها معلومة مُثبطة تُفيد بأن الحافلة السابقة مرت منذ خمس دقائق. لذا تابع توماس تذرعه وهو يُقلب في ذهنه مرة أخرى تلك الواقعةَ الغريبة التي صادفها في الغابة؛ ولم يَزل يُمعن في التفكير بها حتى جاءت الحافلة لتضع حدًّا لترقُّبه.

لم تكن رحلةً طويلة في ظل وجود وسائل المواصلات الحديثة، وخلال وقت قصير، حلَّت البلدة القائمة محلَّ الموقع الزري حيث كان يقف البنَّاء المتأمِّل. كان طريق هامبستيد هو محطتَه المُعتادة، لكنه اختار أن يترجَّل عند كنيسة ماريلبون ويقصدَ وجهته عبر شارع أوزنابورج وسوق كمبرلاند، الذي ما لبث أنْ خرج منه إلى شارعٍ هادئ زري به منازلُ قديمة عالية مُتهالكة، لكنها رَحْبة، حتى وصل إلى بوابة خشبية مطليَّة باللون الأخضر تحمل الرقم «٣٨ إيه» وعلى إحدى دعامتَيها الجانبيتَين عُلِّقت لوحة نُحاسية صغيرة مكتوب عليها «تي بيدلي» يعلوها مقبض جرس نُحاسي كبير.

أدخل توماس مِفتاح البوابة الخارجية في ثَقبِه وفتحها، ليكشف عن سمةٍ مميزة شائعة في العديد من المنازل المُجاورة؛ وهي ممر ضيق يُؤدي إلى باحة مُمهَّدة. فقد كان شارع جيكوب يتميز بوجود الكثير من المراسم. فيما مضى، كان شارعًا راقيًا، يقطنه مشاهيرُ الرسامين والنحَّاتين. أما الآن، فقد ذهب الفنانون المشهورون، ولكن بقيت مراسمهم؛ بعضُها يَستأجِره فنانون أقلُّ شأنًا، لكن معظمها تحوَّل إلى ورش. في كلتا الحالتين، كان شارع جيكوب مكانًا لائقًا للغاية لمحدودي الدخل الذين يَنشُدون مستقَرًّا رحبًا؛ إذ لم تكن المراسم مطلوبةً كثيرًا تلك الأيام، كما أنها لا تصلح للأغراض السكنية؛ لذا كانت إيجاراتها زهيدة للغاية، مع أن مساحاتها مُمتازة بين أمثالها.

كان المرسم الذي دلف إليه توم بعد أنْ عَبر الباحة مُهيَّأً للسكن على نحوٍ أفضلَ من بعض المراسم الأخرى؛ إذ كان ارتفاعه متوسِّطًا، وقد جعله مناسبًا أكثرَ بأن شيَّد فاصلًا خشبيًّا في أحد أركانه يُحيط بحجرة كبيرة كان يستخدمها غرفةً للنوم. وبواسطة ذلك الفاصل، وحاجزٍ قابل للطي يستخدمه لتحويط المدفأة في الشتاء، أو لحجب الحوض وموقد الطهي حين يأتيه زوار، حوَّل توم المرسم الضخم المفتوح إلى شقَّة سكنية ملائمة ومريحة نوعًا ما.

بعد أن نظَّف لوحة ألوانه، وغسل فُرَش الرسم، واغتسل في وعاء كبير في الحوض، فتَح صندوقًا حراريًّا مبطنًا بالقش (يعلوه غِطاء مُنجَّد كي يبدوَ مثل مسندٍ قدم ويُؤدي وظيفته) وأخرج منه طاجنَين وضعهما بنظام على مائدة الطعام المعدَّة، ثم فتح زجاجة من الجِعَة، وأفرغ محتواها في إبريق من الفخار الأبيض الممتاز، ثم سحب كرسيًّا وجلس مطلقًا تنهيدةَ رضًا، ورفع غِطاءَي الطاجنَين اللذَين كان بداخل أحدهما بطاطس (مطهوة بقشرها) والآخر يخنة لا ملامح لها، معدَّةٌ من دجاجة مقسمة إلى أجزاء.

كانت المائدة وما وُضِع عليها يَعرِضان ملخَّصًا لطابَعِ توم بيدلي وشخصيته. كانت عبارته «ثروة الإنسان يُمكن تقديرها بالنظر إلى ما يقدر على الاستغناء عنه» تُلخِّص فلسفته البسيطة في الحياة. وقد كانت الأشياء التي يقدر توم على الاستغناء عنها هي الرفاهيات والكماليات التي تستنفدُ المال. فهو لا يقصد أيَّ أماكنَ ترفيهية، عدا المتاحف والمعارض الفنية العامة. ولم يَستقلَّ سيارةَ أجرة خاصةً من قبل تقريبًا، أو يُدخِّن السيجارَ قط، ولا يملك سوى زجاجة ويسكي واحدة احتفظ بها مغلقةً لبضع سنوات. كان يَحيا حياةً بسيطة، ولا يُنفق إلا القليل، ولا يُهدر أيَّ شيء، ويعتني بما يملك.

وبتنظيم حياته على ذلك النحو المُقتصِد، استطاع أن يُمتِّع نفسه بالأشياء التي تَعنيه حقًّا. فإناء الجِعَة ذاك كان قطعةً أثرية، وكذلك كأسُ الجعةِ الفاخرةُ المنقوشةُ بنقشٍ زخرفي رائع لنبات الجنجل والشعير. وكانت قطعة الجُبن الفَرنسيِّ الصغيرةُ تستقرُّ في طبق مغطًّى من فخار موركروفت، وكومة التفاح في إناء جميل من البرونز المطروق، ورغيف الخبز البنِّي على طبق خشبي محفور بدقة. كانت جميع الأغراض المرصوصة على المائدة، بما فيها الطاجنان، جميلةً تَسُر العينَ مع أنها ليست ثمينةً بالضرورة، وكانت موضعَ اختيار مدروسٍ بدقة. فقد كان توم فنانًا من رأسه حتى أخمص قدمَيه. لم يكن الفن بالنسبة له مجردَ طقس روتيني. كان يحبُّ أن يكون مُحاطًا بالأشياء الجميلة، لا لمجرَّد النظر إليها، بل للعيش معها، وكان بوُسعه تحمُّل تكاليف الانغماس في ولَعِه هذا؛ إذ كان يقوم بالأعمال المنزلية بنفسِه، وكان يعلم أن كنوزه آمنةٌ من بطش مِنفَضَة خادمة أو عاملة تنظيف.

هكذا جلس توم في كرسيِّه الجميل الذي يَنتمي إلى طراز «شيبندیل ویندسور» أمام المائدة البديعة القابلة للطي، يتناول عشاءَه بهدوء واستمتاع، ويُسلِّي نفسه كعادة الرجال الوحيدين بسلسلةٍ من التأمُّلات. تركزَت أفكاره في المقام الأول حول الواقعة الغريبة التي حدثت في الغابة، التي يبدو أنها كانت تَشغلُه لدرجةٍ غير معقولة تمامًا. فلم تكن سوى حدَثٍ تافه، ولم يَكترِث لها كثيرًا. ومع ذلك ظلَّت ذاكرتُه تستحضر الواقعة وتُكمل التفاصيل التي لم يُدركها حينها، حتى استطاع أن يُكوِّن في ذهنه صورة مُكتملة على نحو غير عادي للمشهد والأحداث. ثم تولَّى خياله الخصب زِمامَ الأمور ونسج قصةً قصيرة أبطالها أولئك الأشخاص الثلاثة، وأثار ذلك اهتمامَه كثيرًا؛ حتى إنه خطر له بعد قليل أنها ستكون لوحةً نوعية بسيطة جيدة للغاية، وقرَّر أن يُجرِّب تحويلها إلى رسمٍ أوَّلي ويرى ما بإمكانه أن يصنع منه.

عندما فرَغ من عَشائه، شرع يغسل الصحون وهو لا يزال يُقلب ذلك المشروع في عقله. لم يَستغرِق غسلُ الصحون وقتًا طويلًا؛ إذ تعلم أن يقتصد في استعمال الصحون والأطباق. في الواقع، لم يكن يوجد سوى صحنٍ واحد وسكينٍ وشوكة، وبعد أن انتهى من غسلهم ورصِّهم بعنايةٍ مع الطاجنين داخل خِزانة فرنسية كبيرة، صار جاهزًا للبدء. أخرج لوحته الجديدة من حقيبة حملِ الألواح، ووضعها على حامل، واختار لوح رسمٍ احتياطيًّا أصغرَ حجمًا، ووضعه على حامل آخر بجوار الأول، وجهَّز لوحة ألوانه، ثم بدأ

في العمل، فرسَم جزءًا من الخلفية بغير دقة، نقلَه من لوحته الأولى، ثم بدأ يرسم ملامح الأشخاص.

كان عُنوان اللوحة المزمَع رسمُها هو «المتنصِّتة»، وكان هذا يَستدعي أن تكون المرأةُ هي العنصرَ الأساسي، وأن تكون قريبةً قدر الإمكان من صدر اللوحة، وأن تُرسَم بشيءٍ من التفصيل على مقياسٍ يفي بذلك. وهكذا بدأ بها، فحدَّد أولًا صورة ظلِّية رمادية دون تفاصيلَ تُصور هيئتها ووقفتها، ثم بدأ يُلوِّنها ويُضيف لها التفاصيل. وفيما كان يعمل، فاجَأه كمُّ التفاصيل التي يذكرها، وكيف أنه لم يحتَجْ إلى الابتكار سِوى قليلًا. تذكَّر بوضوح كيف كان وهجُ ضوء الشمس يسقط على المرأة وهي تتراجعُ فيُضيء شعرها، جاعلًا إياه كالذهب المصقول، ويُبرز رقعًا ساطعة على ثيابها، وبعد أن أضاف بضع لمسات حيوية من لون زاهٍ كي يصنعَ ذلك التأثير، بدا أنه لم يتبقَّ الكثير للقيام به. ففور أن تكونت هيئتها، ذكَّره بمظهر المرأة بالضبط كما رآها.

وكذلك كانت هيئتا الرجلَين، غير أنهما كانا أبعدَ فكان بوُسعه رسمُهما بتفاصيلَ أقل. لم يكن مظهرهما بالزيِّ الحضَري ملائمًا للرسم؛ لكن لأن ذلك كان مجردَ رسمٍ أوَّلي، قرَّر توم الاحتفاظ بالحقائق الفعلية. ومجددًا، فاجأه كمُّ ما لاحظَه خلال تلك النظرات الخاطفة العارضة دون إمعانٍ ملاحظة. في الواقع، عندما رسم هيئتَي الرجلين من الذاكرة، لم يُصوِّر فحسبُ وضعيتَهما وحركتهما على النحو الذي يُبرز ما كان يدور بينهما من شِجار بامتياز، بل أضاف أيضًا تفاصيلَ مميزة أكثرَ مما يتطلبُه بُعدهما عن صدر اللوحة.

ظلَّ يعمل باستمتاعٍ جمٍّ لما يزيد عن الساعة، حتى اكتمل الرسمُ البسيط بقدرِ حاجته من الكمال. حينها توقف عن العمل، ونظف لوحة ألوانه، وغسل فرشه، وبعد أن ألقى نظرةً سريعة على الساعة «البندولية» الطويلة القديمة على الجدار، شرع يتأنَّق لأجل زيارة غير رسمية لصديقه الأعزب الدكتور أولدفيلد، الذي يسكن بالجوار في شارع أوزنابورج، والذي اعتاد أن يقضيَ برفقته من حينٍ لآخر أمسيةً يتبادلان فيها أحاديثَ لطيفة ممتعة، وربما يلعبان مباراةَ شِطْرنج. لكنهما غالبًا كانا لا يقتصران على تلك التسلية وحدها؛ فقد كان الطبيبُ فنانًا نوعًا ما، وكان لديهما موضوعاتٌ كافية لحوارات مثيرة للاهتمام ومتوافِقة الرأي.

بعد أن أعاد توم مَلْء كيس التبغ من علبة من القصدير، ونظف قبعته بالفرشاة، وقف لبُرهة أمامَ حامل اللوحة يتأمل الرسم الذي أنهاه لتوِّه بعينٍ ناقدة. كان العمل عليه

ممتعًا بما يكفي، لكنه الآن وقد اكتمل، وجده مُخيبًا للآمال بعضَ الشيء. فباعتبارها لوحةً نوعية، كانت عناصرها مبهَمة وغيرَ كافية؛ بإيجاز، كانت لا تَرْقى لأنْ تكون لوحة تنتمي إلى الفنِّ النوعي على الإطلاق، بل كانت مجردَ منظرٍ طبيعي يتضمَّن أشخاصًا. لكن، كان يُمكن إعادة النظر فيها وربما تطويرها إنْ بدا له أن الأمر يستحق؛ وبعد أن استقرَّ توم على ذلك الرأي، التقطَ قُفازَيه وعصاه، وانطلق نحو شارع أوزنابورج.

الفصل الثاني

السيد بلاندي

بعد مرور نحوِ أسبوع على رحلته الاستكشافية إلى الغابة، وفي عصر أحد الأيام، كان توم بيدلي في مَرْسمِه عاكفًا على تنظيف اللوحة التي رسَمها في ذلك اليوم. في تلك اللحظة، كان يكشط نتوءاتِ الألوان غيرَ المرغوب فيها بمكشط حاد، ويُسوي السطح تمهيدًا لإضفاء بِضْعة لمسات إضافية «لربط عناصر اللوحة معًا.» لم يكَد يتراجعُ للخلف كي يُلقيَ نظرة عامة على اللوحة حتى دق جرس المرسم في الباحة معلنًا قدوم زائر. فخرج واجتازَ الباحة والممر، ثم فتح البوابة الخارجية الضخمة، ليجد شخصًا ضئيلَ الحجم يحمل حقيبة جلدية.

صاح بنبرةِ ارتياح: «مرحى! إنه السيد بولتون.»

حيَّاه الرجل الضئيل الجسد بابتسامة لطيفة عريضة على نحوٍ غريب وهو يقول: «أجل يا سيدي، ظننت أن بإمكاني زيارتَك ...»

قاطعه توم قائلًا: «دعك من ذلك الهراء، فأنت تعلم جيدًا أني أُسَر دائمًا لرؤيتك. تفضل بالدخول.»

قال بولتون فيما كان توم يُغلق البوابة ويقوده عبر الممر: «هذا لطف كبير منك يا سيدي، لكني آمُل ألا أكون قد أزعجتك.» ثم أضاف وهو ينظر سريعًا إلى المكشط: «وأنت تعمل.»

قال توم: «أنا أكشط الزوائدَ فحسب، ولن تُزعجني حالَ أردتُ أن أُتابع العمل. لكن موعد الشاي قد اقترب. يُفترض أن أتوقف عن العمل على أي حال.»

بينما كان يتحدث، نظر إلى ساعة الحائط القديمة، فاتبعَ بولتون بعينَيه موضعَ بصره، ثم أخرج ساعةَ جيب كبيرةً وأشار إلى أن ساعة الحائط تسبقها بعشرِ ثوانٍ تقريبًا، ثم أضاف قائلًا: «ليس سيئًا بالنسبة لساعة عمرها ثلاثمائة عام تقريبًا.»

فيما شرَع توم في مَلء غلاية الشاي، وأوقد شعلة الموقد بعودِ ثقاب، وضع بولتون حقيبته على الطاولة، وفتحها، ثم أخرج منها صُرَّة ملفوفة بقماش الجوخ الأخضر ومربوطةً بشريط. فتحها، وأخرج منها قدحًا مصقولًا ببراعة، وبعد أن مسحه برفق بمنديله، مد يدَه به إلى توم كي يفحصه.

قال: «هذا هو ما أتى بي إلى هنا يا سيدي. لقد ذكَرتَ منذ فترة أنك تبحث عن قدح مصنوع من البيوتر، وإن كنتَ تذكر يا سيدي، رسمتَ لي رسمًا كي تُريَني الشكل الذي تريده. وتَصادف أن رأيتُ ذلك القدح في كشكٍ لبيع الخُرْدَة بشورديتش؛ لذا غامرتُ واشتريتُه لأجلك.»

صاح توم مندهشًا: «ولكن كم هو لطيف منك أن تُفكِّر بي! ويا له من نموذج رائع للغاية! وأيضًا وجدتَه في كشك للخردة، من بين جميع الأماكن المستبعَدِ إيجادُه بها. بالمناسبة، بكم أدين لك لقاءه؟»

أجابه بولتون: «لقد اشتريته بشلن.»

نظر إليه توم مدهوشًا، وكرَّر في تشكُّك: «بشلن! أنت حتمًا لا تعني ذلك. عجبًا، تلك قطعة قيمة للغاية.»

قال بولتون مفسرًا بنبرة أسف: «لقد لاقى معاملةً سيئة يا سيدي. كان متَّسِخًا للغاية، وبه رُضوض أفسدَت شكله؛ لذا لم يكن يستحقُّ أكثرَ من شلن. أنا لم أستغِلَّ الرجل. لكن البيوتر خامةٌ طيِّعة إن كنت تعرف كيف تتعامل معها. لم أفعل سوى أنْ عدَّلتُ الرضوض، وأعَدتُه إلى شكله، ونظفت سطحه. هذا كل شيء. أنا سعيد أنه نال إعجابك يا سيدي.»

قال توم: «أكاد أطير فرحًا به.» ثم سكت، وللحظة واحدة — لا أكثر — فكَّر في أن يعرض مقابلًا للوقت والجهد اللذَين بذلهما في عملية التحويل تلك. لكنه ما لبث أن أردف قائلًا: «إليك شلنًا يا بولتون. لكنه ليس مقابلًا. فأنا أعتبر القدح هديةً منك. لقد حوَّلتَ قطعة خردة لا قيمة لها إلى قطعة أثرية ستكون مصدرَ بهجة دائمةٍ لي، وأنا ممتنٌّ لك إلى حدٍّ أعجز عن التعبير عنه.»

ابتسم بولتون بخجَل، وبغرضِ إغلاق الموضوع، تجول في المكان قاصدًا حامل لوح الرسم كي يُعاين اللوحة. لبضع ثوانٍ، وقف ينظر إلى الصورة بدهشةٍ تشوبها البهجة. وأخيرًا، علَّق قائلًا:

«إنه لعمل فنِّي بديع يا سيدي ذلك الذي يقوم به الرسام. إنه يبدو في نظري ضربًا من السحر. فها هي فسحةٌ غابيَّة جميلة جعلتَها تبدو حقيقية للغاية، حتى إنني أشعر

أنَّ بإمكاني السيرَ بداخلها. لا بد أنك ابتعدت كثيرًا عن المباني السكنية كي تجد مشهدًا كهذا.»

ضحك توم: «هذا وهمٌ طبيعي تمامًا يا بولتون، لكن في الواقع كانت المباني السكنيةُ في مَرْمى بصري تقريبًا وأنا أرسم. تلك الرقعة الصغيرة من الغابة هي آخر ما تبقَّى من الريف وسط منطقة سكنية جديدة. إنها لا تبعد عن هنا سوى مسافةِ رحلةٍ بالحافلة، وهي ليست بالرحلة الطويلة.»

قال بولتون مندهشًا: «أحقًّا يا سيدي؟ وأين تكون؟»

«إنها خارج طريق هيندون. في مكانٍ يُدعى لينتون جرين؛ والغابة ما زالت معروفةً باسمها القديم، غابة جريفل-بيت.»

فورَ نُطق توم بالاسم، أجفلَ بولتون وحملقَ في اللوحة وقد ارتسم على وجهه تعبيرٌ مِن أغرب ما يكون.

كرَّر بصوت خافت غريب: «غابة جريفل-بيت، لينتون جرين؛ تلك هي الغابة التي قُتِل فيها ذلك الرجل المسكين!»

قال توم بنبرةٍ حملَت اهتمامًا طفيفًا: «يا إلهي! أنا لم أسمَع بذلك قط. متى حدث ذلك؟»

«وقعت جريمةُ القتل يوم الثلاثاء الماضي.»

كرر توم في ارتياب: «الثلاثاء الماضي! عجبًا، ذلك هو اليوم الذي رسمتُ فيه تلك اللوحة. هل تعرف متى وقعت؟»

«يُرجَّح أنها وقعت في حوالي الرابعة عصرًا.»

صاح توم متعجبًا: «إذن، فقد كنتُ بالفعل في الغابة في اللحظة التي ارتُكِبَت فيها الجريمة!»

وافقه بولتون قائلًا: «أجل يا سيدي، اعتقدتُ أنك كنتَ هناك حتمًا عندما ذكرتَ اسم الغابة؛ لأن الشرطة أصدرت نشرة بأوصاف رجلٍ شُوهِد هناك في ذلك الوقت تقريبًا، ويبدو أن الوصف ينطبق عليك.»

ظل الرجلان ينظر أحدُهما إلى الآخر في صمت لبضع لحظات؛ ثم عقَّب توم بابتسامة كئيبة قائلًا:

«حسنًا، هذا أمرٌ مربك للغاية. هل تذكر أيًّا من التفاصيل؟ فعيني تكاد لا تقع على صحيفة قط؛ لذا فتلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها بذلك الأمر.»

أجابه بولتون: «أتذكر جميع التفاصيل، لكن لا حاجة لي إلى أن أُعوِّل على ذاكرتي؛ فأنا قد قصصت جميع التقارير المتعلقة بالقضية من الصحف، ومعي تلك القُصاصاتُ في جيبي.» ثم أضاف بنبرةِ تأسُّف: «كما ترى يا سيدي، أنا أهتمُّ كثيرًا بجرائم القتل. ربما يَرجع ذلك إلى أني أشرف بخدمة محامٍ جنائي بارز جدًّا. على أيِّ حال، أنا دائمًا أقص التقارير من الصحف وأُلصِقها في دفتر كي تكون مرجعًا.»

بعد أن قدَّم ذلك التفسير، أخرج من جيبه محفظة كبيرة ثم أخرج منها حُزمة من قُصاصات الصحف. بعد أن رتبها بسرعة، تخيرَ واحدة منها وناول توم إياها.

قال: «ستجد ضالَّتك في تلك يا سيدي. إنها قصاصة من صحيفة أسبوعية تَسرد ملخصًا للقضية يتضمَّن كل ما عُرِف عنها حتى الآن. ربما تودُّ أن تطَّلِع عليها سريعًا ريثما أُعِد أنا الشاي. فأنا أعرف أين تحتفظ بجميع أغراضه.»

شكره توم، ثم جلس ليطَّلِع على القُصاصة، بينما فتح بولتون الخزانة الفرنسية الكبيرة، بعد أنْ فحص الغلاية، وبدأ يرصُّ لوازم الشاي على المائدة دون أن يُحدِث صوتًا. كان عنوان التقرير: «جريمة غامضة في إحدى الغابات.» وكان نصُّه كالآتي:

> في ضاحية لينتون جرين الحديثة الناشئة، بالقرب من منطقة هيندون، ثمة رقعةٌ صغيرة من الغابة لا تزال قائمة، لا تتعدَّى مساحتها الآن اثنَي عشرَ قيراطًا، تُعرَف باسم غابة جريفل-بيت. هناك، في حوالي الخامسة عصر يوم الثلاثاء الماضي، وقع اكتشافٌ صادم للغاية على يد عاملٍ يعمل في تشييد المباني الجديدة. كان رئيس العمال قد بعث ذلك العامل، الذي يُدعى ألبرت ويفين، برسالة إلى مسئولِ أعمال البناء الذي يقع مكتبُه المؤقَّت في شارع غير مُكتمِل البناء على الجانب المقابل من الغابة. سلك العامل مسارَ العربات الذي يمر عبر الغابة وما كاد يبلغ البوابة حتى جذب انتباهَه شيءٌ أبيض اللون مُلقًى وسط العشب بجانب سَقيفةِ عرَبات مهجورة، فخرج عن الطريق ليتبيَّن ماهيته. عندما دنا منه، وجد أنه مقبضٌ عاجي لِمظلة، فتقدَّم ليلتقطها بطبيعة الحال؛ لكن عندما وصل إلى جانب السقيفة، وانحنى كي يَلتقطَها، راعَه رؤيةُ جثة رجلٍ تستقر بين نباتات القراص والنِّفايات في أحدِ مَرابط الفرَس داخل السقيفة. نظرة سريعة واحدة كانت كفيلةً بأن تُؤكد له أن الرجل قد غادر الحياة، ولم يُجرِ أي فحص إضافي، بل هرع من المكان حاملًا بيده المظلة، وقطع الغابة

ركضًا، ثم أبلغ عن اكتشافه ذلك لمسئول أعمال البناء. أرسل ذلك الأخيرُ برسول استقلَّ دراجة إلى مركز الشرطة، وخلال بضع دقائق، وصل رقيبٌ ومفتش وقادهما ويفين إلى السقيفة حيث ترقد الجثة، التي وُجِد أنها لرجل حسَنِ الهندام في الستين من عمره تقريبًا، عُرِفت هُويته للتوِّ من بطاقات الزيارة التي عُثِر عليها في جيبه، وأكَّدَتها الحروف الأولى المحفورة على الحَلْقة الفِضية بمقبض المظلة. كلاهما دل على أن المتوفَّ هو السيد تشارلز مونتاجو، القاطنُ في شارع بيرشز بطريق هول رود، بلينتون جرين.

لكن كيف لقيَ مصرعه؟ تُشير الملابسات بوضوح إلى جريمة قتل؛ وهذا ما أكده وجودُ آثار واضحة لعراك بين شجيرات القراص والعشب الطويل. لكن مِن المُثير للدهشة أن الجثة ليس بها أيُّ جروح أو إصابات. كانت الملابس غيرَ مهندمة نوعًا ما، والياقة مُكرمَشة، وبدا أن ثمة رُضوضًا بسيطة على الرقبة؛ لكن لم يُعثَر على أيِّ شيء تُعْزى إليه الوفاة. لكن عند وصول الجراح التابع للمركز ومعاينته للجثة، توصَّل إلى أن التشخيص الأوَّلي لسبب الوفاة هو التسمم إما بحمض البرُوسيك أو بنوع من الزرنيخ. وبناءً عليه، جرى بحث للعثور على أيِّ حاوية، أسفر عن العثور على قنينة صغيرة تحوي بقايا سائل له رائحة اللوز المر.

أما بالنسبة إلى وقت وقوع الوفاة، فقد فحصَه الجراحُ في الساعة ٥:٣٥ مساءً، وتوصل إلى أن المجنيَّ عليه قد لقيَ مصرعه منذ ما لا يزيد عن ساعتين، ويُرجح أن هذا حدث في حوالي الساعة الرابعة. ويُعتبر الوقت هنا عنصرًا مهمًّا فيما يتعلَّق بالدليل الوحيد المتاح لفكِّ هذا اللغز. ففي حوالي الرابعة والنصف، صادف حُوذِي ينقل شحنة من القرميد عبر المسار الذي يمرُّ بالغابة رجلًا مقبلًا من جهة سقيفة العربات. كذلك شُوهِد ذلك الرجل يخرج من الغابة إلى الشارع غير المكتمل من قِبَل بنَّاء؛ كما شُوهِد مرة أخرى من قبل شرطي شاب، حفظ مظهرَه جيدًا وأدْلى بأوصافه التي تطابقت تمامًا مع الأوصاف التي أدلى بها الشاهدان الآخران، وقد تداولَت الشرطةُ تلك الأوصاف مناشدةً الرجلَ التواصلَ معها.

أوصافه كما يلي: الطول حوالي خمسةَ أقدام وعشر بوصات، قويُّ البنية، عمره يتراوح ما بين الخامسة والأربعين إلى الخمسين، عيناه رماديتان، وشعره

بُني، وله شاربٌ بُني قصير، يرتدي حُلة ذات بنطال واسع مزموم عند الرُّكبة من صوف التويد باللون الأصفر الباهت، وجوربًا باللون ذاتِه، وحِذاءً بنيًّا، وقبعةً من اللباد ذاتَ حافة عريضة باللون الأصفر الباهت، ويحمل حقيبةَ كتف قماشية على كتفه اليسرى، وكرسيًّا قابلًا للطيِّ مربوطًا بما يُشبه المِنصَب أو حامل الرسم في يده اليسرى، وفي يده اليُمنى بِضعُ أطُر خشبية من الواضح أنها لوحاتُ رسم داخل حامل لها.

يذكر الشرطيُّ الذي صادف الرجل عند محطة الحافلة في طريق لينتون جرين وهو ينتظر الحافلةَ المتجهة شرقًا، أنه بدا متلهفًا للركوب؛ إذ استفسرَ منه عن موعد وصولِ الحافلة التالية، وبدا عليه الانزعاجُ عندما عرف أن الحافلة السابقة قد غادرَت لتوِّها. كان يتحدث بصوت عميق قوي، وبلهجة رجل متعلِّم. كما لاحظ سائقُ الحافلة أيضًا الرجل، وتذكر أنه ترجَّل عند كنيسة ماريلبون لكنه لم يرَ إلى أين اتجهَ بعد ترجُّلِه.

هذا ولم تكشف جلسة التحقيق التي انعقدت يوم الجمعة سوى بضعِ حقائقَ إضافية عن اللغز. فقد أثبتت شهادةُ الطبيب الشرعي أن المجنيَّ عليه لقي مصرعه نتيجةً للتسمُّم بمحلول مركَّز من سيانيد البوتاسيوم، تناوله بنفسه، أو أعطاه إياه شخصٌ آخر عَنْوة. وُجِدَت رُضوض بسيطة على الرقبة، إلا أنها لا تُشير إلى وقوع عنف شديد، وطِبيًّا لا يوجد ما يشير إلى أن المجنيَّ عليه هو من تجرع السمَّ بنفسه. غير أن أدلة الشرطة كانت أكثرَ حسمًا. فقد وُجِدت عدةُ بصمات على قنينة السُّم، ومع أنها بصماتٌ غير مكتملة، استطاع الخبراء أن يُؤكدوا قطعًا أنها ليست بصماتِ المتوفَّى أو بصماتِ أيِّ شخص مُسجَّل لدى الشرطة. وكما أشار قاضي التحقيق في ملخَّص القضية، فإن تلك الحقيقة، إضافةً إلى وجود آثارٍ لعراك، تؤكد على نحو شبهِ قاطع أن شخصًا ما أجبر المجنيَّ عليه على تناوُل السم. كما عقَّب قاضي التحقيق أيضًا على دلالة مهنة المجني عليه. فالسيد مونتاجو كان يعمل مُمولًا؛ في الواقع كان مُرابيًا؛ والمرابي عُرضة لأن يكون له أعداء يملكون أسبابًا قوية لتدبيرِ مقتله. في تلك القضية، لم يُكتَشَف وجودُ أيِّ أعداءٍ له. أما بالنسبة إلى الرسام المجهول، فلم تَثبُت هُويته بعد، إذ لم يُعثَر له على أثر، ولم يَمثُل هو أمام الشرطة، ولم يتَّضح أي شيء بخصوص صلته بتلك المأساة، إن كانت له صلة.

في ختام ملخَّص القضية، أصدرت هيئة المحلَّفين من فورها حكمًا باعتبار الجريمة قتلًا عمدًا على يد مجهول أو مجهولين؛ ولا يزال الوضعُ كما هو عليه. ربما تتكشَّف بعضُ الحقائق الجديدة إن استطاعت الشرطة التواصلَ مع الفنان المتملِّص.

بعد أن انتهى توم من القراءة، أعاد القُصاصة إلى بولتون، الذي أعادها بدوره إلى محفظته، ثم انتظر تعقيبَه في صمتٍ بعد أن وضع إبريق الشاي على المائدة.

قال توم: «حسنًا، كما قلتُ لك من قبل، ذلك أمرٌ مربك للغاية. فذلك الفنان الغامض والمتملِّص، والمرشَّح المحتمل لنَيل لقب القاتل هو أنا. على أيِّ حال، التملُّص يُمكن الرجوع عنه. من الأفضل أن أقصد مركز الشرطة غدًا لأُطلِعَهم على هُويتي.»

وافقه بولتون في جِدية قائلًا: «أجل يا سيدي. ذلك ضروري للغاية. لكن لم الانتظار حتى غد؟ لم لا تذهب مساءَ اليوم؟ فالشرطة قد تنجح في أي لحظة في تَعقبِك، وسيكون الذَّهاب إليهم بملء إرادتك أفضلَ بكثير من تركهم يعثرون هم عليك. لا تنسَ أن لديهم أسبابًا منطقية للاشتباه بك. فتلك الجريمة هي حديثُ المدينة منذ نحو أسبوع. وامتلأت الصحفُ بأخبارها، التي تضمنت وصفًا دقيقًا لك. على الأرجح أنك الشخص الوحيد في لندن الذي لم يسمع بها.»

ضحك توم ضحكة كئيبة، وقال: «بربك يا بولتون! أنت تتحدَّث كمحامي ادِّعاء. لكنك مُحِق تمامًا. فأنا مشتبَه به، وليس في صالحي أن يبدوَ الأمر وكأني كنتُ مختبئًا. سوف أمرُّ بمركز الشرطة هذا المساء.»

لكن قرار توم الحكيم ذاك جاء متأخرًا للغاية. فبعد أقلَّ من نصف الساعة، وبعد أن أنهيا الشاي الذي أصر بولتون على غسل لوازمه وكان قد بدأ يرصُّها في الخِزانة الفرنسية الكبيرة، أتاهما صوتُ جرس المرسم من الخارج فخرج توم ليجيبه. عندما فتح البوابة، وجد على عتبتها رجلًا طويل القامة له مظهرُ موظف حكومي، حيَّاه بانحناءة وقورة وابتسامة دمثة.

سأل الرجل الغريب: «هلا تشرَّفتُ بمخاطبة السيد توماس بيدلي؟»

أجاب توم بابتسامة باهتة: «لقد خاطبتَه بالفعل. أنا توماس بيدلي.»

رد الرجل قائلًا وهو ينظر إلى اللوحة النحاسية: «خمَّنتُ ذلك، وأنا سعيد بمعرفتك؛ إذ أعتقد أنك ربما تستطيع مساعدتي بشأن تحقيقٍ أتولَّاه. ربما عليَّ أن أُوضح أنني ضابط شرطة، وإن كنت تريد الاطلاع على بطاقة إثبات صلاحيتي ...»

أجابه توم: «كلا، شكرًا لك. أظن أني أعرف ما تَنشُده، وفي الواقع كنت أنوي زيارةَ مركز الشرطة مساء اليوم. لكن ذلك سيكون أفضل. تفضَّل بالدخول.»

قاد الضابطَ عبر الباحة وأدخله إلى المرسم؛ حيث وجدا بولتون يقف على كرسيٍّ ويضبط الساعةَ كي تتوافق مع ساعته.

صاح الضابطُ مندهشًا: «مرحى، يا لها من مفاجأة سعيدة! إنه السيد بولتون، صديقي القديم المبجَّل! يا لها من مصادفة فريدة! هل تعرف السيد بيدلي منذ وقت طويل؟»

أجاب بولتون: «منذ وقت طويل جدًّا. تقابلنا للمرة الأولى في متجَر تحف قديمة في سوهو؛ متجر «باروت». أنت حتمًا تذكر باروت؛ كان اسمه الحقيقي بيتجرو، وهو المُجرِم الذي قتَل السيد بينروز.»

قال الضابط: «أذكُر تلك القضية مع أني لم أكن مشاركًا بها. لكن ثَمة مصادفة أخرى؛ إذ تشاء الأقدار أن يكون سببُ زيارتي هو قضيةً تتعلق بجريمة قتل.»

لم يرَ توم دور الصدفة في ذلك، لكنه لم يُعقِّب، في انتظار شروع الضابط في فتح تحقيقه. في الأثناء، أمسك بولتون قبعته على مضض، وهو يقول في نفسه مقترحًا إنهما «ربما يُفضِّلان مناقشة أمورهما على انفراد.»

قال الضابط: «لا داعيَ لأن تُغادر بسببي. فليس ثمة أسرار.» وبعد أن أبدى توم الرأي نفسَه، ترك بولتون قبعته بكل سرور وجلس يستمع إليهما ببهجةٍ لم يُحاول إخفاءها.

بدأ الضابط الحديث قائلًا: «والآن يا سيد بيدلي، سأطرح عليك بضعة أسئلة، لكن واجبي يُحتم عليَّ أن أُوضح لك أنك لستَ ملزَمًا بالإجابة على أي سؤال من شأنه أن يميل إلى إدانتك، بالتعبير الرسمي السخيف.»

قال توم بابتسامة عريضة: «سأضع ذلك في حُسباني.»

أجابه الضابط بابتسامة قائلًا: «أجل. إنه تعبيرٌ سخيف، لكننا مضطرون إلى الالتزام بالرسميات. حسنًا، بداية، هل تذكر أين كنتَ وماذا كنت تفعل يوم الثلاثاء الثامن عشر من مايو؟»

«الثلاثاء الماضي. أجل. كنت في غابة جريفل-بيت بلينتون جرين عصرَ ذلك اليوم. وصلتُ إلى هناك في حوالي الثانية، وغادرت في حوالي الرابعة والنصف، أو ربما قبلَ ذلك قليلًا. وخلال تلك الفترة كنت أرسمُ لوحة للغابة، سأُريك إياها إن كنتَ مهتمًّا برؤيتها.»

قال الضابط: «شكرًا لك. أود كثيرًا أن أراها عما قريب. لكن الآن ثمة سؤالٌ يطرح نفسَه. يتبيَّن مما ذكرته لي أنك لا بد بالفعل أنك كنت في الغابة وقتَ وقوع جريمة القتل، ومع أنه كان ثَمة مُناشَدات عاجلة عبر الإذاعة بالإدلاء بمعلومات، ومناشدات مشابِهة في الصحف، لم تتقدَّم للإدلاء بأقوالك أو تَبدُر عنك أيُّ بادرة؛ حتى مع تضمين تلك المناشدات أوصافَك، وبهذا تكون في الواقع موجَّهةً لك شخصيًّا. فما منَعَك من أن تتواصَل مع الشرطة؟»

أجاب توم: «التفسير بسيطٌ للغاية. فحتى بضعِ ساعات مضت، عندما أخبرني السيد بولتون بالأمر، لم أكن أدري بوقوعِ جريمة قتل.»

قابل الضابط تلك العبارةَ بابتسامة لطيفة ودودة.

قال موافقًا: «هو بالفعل تفسيرٌ بسيط للغاية؛ لكن إن كنتُ أميل للمُماحَكة — وأنا لا أميل لها — فربما أُفكر في البثِّ الإذاعي والصحف اليومية ذات العناوين البارزة وأتساءل، لكني كما ذكرتُ لك لا أميل للمماحكة.»

قال توم: «أُقِر بأن ذلك يبدو غريبًا. لكني لا أملك مِذياعًا، ونادرًا ما تقع عيني على صحيفة. على أيِّ حال، الحقيقة هي أني لم أسمع بتلك الجريمة قطُّ حتى ذكرها لي السيد بولتون وأطلعَني على تقريرٍ عنها كان قد قصَّه من صحيفة.»

هنا تدخل بولتون بابتسامة وقورة: «إن أذِنتَ لي يا سيدي، أودُّ أن أقول إن السيد بيدلي أراني اللوحة وأخبرني أين رسمها ومتى؛ وبدا مصدومًا ومندهشًا للغاية عندما أخبرتُه بأمر جريمة القتل.»

نظر الضابطُ إلى المتحدث بابتسامة تحمل ودًّا بالغًا.

قال: «أشكرُك يا سيد بولتون. شهادتك المفيدة للغاية تلك تُزيح الإشكالَ تمامًا. والآن، ربما يُمكنني أن أنال شرف رؤية تلك اللوحة.»

نهض توم، وأحضر إطارَ عرضٍ لوحاتٍ من كومة من الأطُر تستقر بمحاذاة الجدار، ووضع اللوحة بداخله، ثم أعادها إلى الحامل.

قال: «ها هي، لم تنتهِ تمامًا بعد، لكن ربما كان ذلك هو أفضلَ ما يُمكن الوصول إليه من الناحية التصويرية.»

وافقه الضابط قائلًا: «أجل، فاهتمامي منصبٌّ فقط على التضاريس، مع أني أرى أنها عملٌ فني بديع للغاية.» وقف أمام الحامل ينظر للَّوحة مبتسمًا وكأنما يتلو عليها صلاةً للمباركة، لكنه مع ذلك كان يتفحَّصها بإمعان. ثم ما لبث أن أبرَز من جيبٍ

داخلي فسيح محفظةَ أوراق صغيرة أخرج منها قطاعًا من خريطة بمقياس ستٍّ بوصات للميل، صادرةٍ عن هيئة المساحة البريطانية ملصَقة على بطاقة رقيقة. قال: «تلك خريطة بمقياس كبير للغابة يا سيد بيدلي. هل تظن أن بإمكانك أن تُريَني الموضع الذي تُصوره تلك اللوحة؟»

أخذ منه توم الخريطة ونظر إليها لبضعِ لحظات وهو يتحسَّس جيبه بحثًا عن قلم رصاص.

قال وهو يُشير إلى نقطة بسنِّ القلم الرصاص: «أعتقد أن ذلك هو المكان. لقد كوَّنت رأيي هذا بالنظر إلى شكلِ منحنى الممشى؛ فالخريطة لا تُوضِّح الأشجار مفرَدة. هل أضع علامة؟»

أجاب الضابط: «إذا سمحت.» وبعد أن رسم توم صليبًا دقيقًا وأعاد البطاقة إلى صاحبها، أخرج ذلك الأخيرُ مقياسًا مصنوعًا من خشب البقس وفِرجارَ جيبٍ قاس به المسافة من علامة الصليب إلى أقربِ نقطة على الدرب، ثم قاسها على المقياس.

قال: «أُقدِّر المسافة بمائة وسبعين ياردة. فما قولك؟»

أجابه توم: «أجل، هذا يبدو صحيحًا.»

«حسنًا جدًّا. إذن كنتَ تبعد عن الدَّرب حوالَي مائة ياردة. من مكانك، هل كان بوسعك رؤية أي شخص قد يسلك ذلك الدرب؟»

«كان بوسعي ذلك، وهو ما حدث بالفعل. ليس بوضوحٍ شديد؛ لأني كنتُ جالسًا على كرسيٍّ منخفض، ولم يكن بإمكاني النظرُ إلا من خلال الفرجات بين الشجيرات. لكن بينما كنتُ أرسم هناك، رأيت ثلاثةَ أشخاص يسلكُون ذلك الدرب، لم يرجع منهم سوى اثنَين فقط.»

«وهل تظنُّ أن أولئك الأشخاص رأوك؟»

«أنا واثق أنهم لم يرَوني. فلا سبيل لهم إلى ذلك كما تعرف. فنظرًا إلى جلوسي في موضعٍ منخفِض بين الشجيرات، فلا بدَّ أن أحدًا لم يكن يستطيع رؤيتي تمامًا من الدرب.»

وافقه الشرطيُّ قائلًا: «أجل، لكن كان بوسعك رؤيتهم. فما الذي تستطيع أن تُخبرني به عنهم؟»

«كل ما أستطيع قولَه إن سلوكهم كان غريبًا نوعًا ما. على الأقل سلوك أحدهم.» وهنا بدأ توم يسرد ما رآه بدقةٍ وتفصيل.

صاح الضابطُ مندهشًا وهو يتطلَّع للراوي بابتسامةٍ فَرِحة: «لكن يا سيد بيدلي العزيز، تلك معلوماتٌ مهمَّة وكاشفة للغاية. فالسيدة تُعَد إضافةً جديدة إلى القضية. بالمناسبة، هل مر بك أيُّ شخص آخر؟»

«كلا. أولئك هم الأشخاص الوحيدون الذين رأيتهم حتى هممتُ بالمغادرة، حين رأيت رجلًا يقود عربةً مليئة بالقرميد عبر الغابة.»

«إذن فلا ريب في هُوية أولئك الأشخاص. أحدهم كان السيد مونتاجو، والآخر هو القاتل، والسيدة لا بدَّ أنَّ لها صلةً ما بأحدِ الرجلين أو كِلَيهما. في أي وقت مرُّوا بك؟»

«في حوالي الرابعة، أو ربما الرابعة إلا بضع دقائق. وبعد حوالي عشر دقائق أو ربع الساعة، عاد الرجل.»

قال الضابط: «أجل، يبدو هذا مُتوافقًا مع الأدلة. والآن نأتي للنقطة الأهمِّ على الإطلاق؛ هل بوسْعِك أن تذكرَ لنا أيًّا من أوصافهم، وهل تعتقد أنه سيكون بوُسعِك التعرفُ عليهم إن رأيتهم مرةً أخرى؟»

«أما التعرف عليهم، فأشكُّ في ذلك كثيرًا. بالطبع لا يسَعُني أن أجزم بهوية أيٍّ منهم. ولا أظن أن بوسعي أن أُعطيَ أوصافًا تُذكَر. فقد كانوا على مسافة كبيرة مني، وكنتُ أراهم عبر الفرجات بين الأغصان، وحينها لم أُولِهم اهتمامًا كبيرًا. لكني سأرى ما بإمكاني أن أتذكره.»

وبدأ يصف الأشخاصَ الثلاثة، كان وصفه مبهمًا وعامًّا، لكن دعَمَته أسئلةٌ طرحها الضابط، ودوَّن إجاباتها في دفتر ملاحظاته.

حين انتهى توم، عقَّب الأخير قائلًا: «حسنًا، وصف لا بأس به. لكني ما زلتُ أشعر يا سيد بيدلي أنك حتمًا رأيتَ ما هو أكثرُ من ذلك. فأنت لستَ ملاحظًا عاديًّا. أنت رسام. وعين الرسام عين لماحة حادَّةُ الملاحظة وتَحتفظ بالتفاصيل. هب أنك تُحاول رسم المشهد من الذاكرة ...»

قاطعه توم قائلًا: «يا إلهي! أنا سعيد أنك قلت ذلك؛ فذلك هو ما فعلتُه بالضبط في ذلك اليوم، بينما كان المشهد لا يزال حاضرًا في ذاكرتي. ظننتُ أن الواقعة ربما تَصلُح موضوعًا للوحةٍ أسمَيتُها «المتنصِّتة»، وفي مساء ذلك اليوم رسمتُ لها رسمًا تجريبيًّا. سأريك إياه.»

من بينِ مجموعة من الأعمال غير المُكتمِلة على أحد الأرفف، استخرج الرسمَ ووضعه على حامل بجوار اللوحة الكبيرة التي نقل منها الخلفية.

قال الضابط: «أها! ها قد رأيتَ الآن أنني كنتُ مُحقًّا. ففرشاة الرسام أقدرُ من الكلمات. هذا الرسم يُخبرنا بأكثرَ مما ذكرتَه في وصفك بكثير. إنه يُبيِّن لنا الشكلَ الحقيقي لأولئك الأشخاص. ذلك الرجل هو السيد مونتاجو بلا ريب، فقُبعته ومِعطفه يُطابقان الحقيقة، حتى إنك رسمتَ المقبض العاجيَّ لمظلته. ورسمتَ ما هو أكثرُ من مجرد هيئتَي الاثنَين الآخرَين؛ إذ يبدوان شخصَين بعينهما.»

وافقه بولتون الذي كان يُحملِق في الرسم باهتمام يشوبه الاستمتاعُ قائلًا: «أجل، السيد بلاندي محقٌّ تمامًا. لكن الأمر مُدهِش بحق. فهذان الرجلان يوليانا ظهرَيهما، ووجهُ المرأة بلا ملامحَ فعلية؛ ومع ذلك أشعرُ أنهم أشخاص حقيقيون وأنني سأعرفُهم إن قابلتُهم مرةً أخرى. هل يُمكنك أن تُفسر لنا ذلك يا سيد بيدلي؟»

أجابه توم قائلًا: «حسنًا، لا يَسَعُني سوى أن أقول إن هذا تصويرٌ لانطباعٍ تركَه المشهدُ لديَّ في لحظة بعينها، وتلك هي الهيئة التي بدا أولئك الأشخاصُ عليها في تلك اللحظة. فالمرء يُميز الشخص لا بوجهِه فحسب، بل بحجمِه وقِوامه وأبعاده، وحركاته وسكناته المميزة. فغالبًا ما يُمكنك أن تُميِّز رجلًا ما من مِشيته قبل أن تُميز ملامحَه بوقتٍ طويل.»

قال بلاندي: «بالضبط، ولهذا يُحِب ضبَّاط الملاحظة مراقبةَ الموقوفين في باحة التريُّض بالسجن. فغالبًا ما يَتمكَّنون من ضبط رجل متنكِّر من هيئته العامة، أو من طريقةِ مشيِه، أو وقفته، وأنا أميلُ للاعتقاد بأن ذلك الرسم ربما يكون مفيدًا لمُتخصِّص من ذلك النوع. هل بوسعي استعارته والتقاطُ صورة فوتوغرافية له لإرفاقها مع وصفك؟»

قبل أن يتسنَّى لتوم الإجابة، تدخل بولتون بحماس.

«لِمَ لا تدَعُني ألتقط الصورة لأجلك أيها المفتش؟ بوسعي أن أُحضِر الكاميرا خاصتي إلى هنا كي لا تُضطَر إلى استعارةِ الرسم. سيَسرُّني أن أفعل ذلك، إن سمحتَ لي.»

نظر له المفتش بلاندي بابتسامة حملت ودًّا يفوق الوصف.

قال: «هذا لطف بالغٌ منك يا سيد بولتون. أنت دومًا مبادرٌ بمدِّ يد المساعدة. كما أنها ستكون صورة فوتوغرافية جيدة، وستَحتفِظ بنسخة منها لتُضيفها إلى مجموعتك الصغيرة. أنا أميل للموافقة على عرضك ممتنًّا إن منَحَنا السيد بيدلي الإذنَ بذلك.»

منحَهم السيد بيدلي الإذن بذلك دون تردُّد، وعلى أثْر ذلك تأهَّب المُفتِّش للمُغادَرة بعد أن حدَّد موعدًا للتسليم مع بولتون.

التقطَ قبعته، ثمَّ ما لبث أن تركَها مرة أخرى وهو يقول: «بالمناسبة، ثَمة نقطتان بسيطتان ربما تحتاجان إلى إيضاح. الأولى تتعلَّق بقامتَي الرجل والسيدة المجهولَين. الرجل يبدو أقصرَ على نحوٍ ملحوظ من السيد مونتاجو الذي يبلغ طولُه نحو خمسة أقدام وعشر بوصات. فما قولك في ذلك؟»

أجابه توم: «أجل، أُقدِّر طوله بحوالي خمسة أقدام وسبع بوصات. أما المرأة فبَدَت أطولَ قامةً، لكن كذلك تبدو النساء. أُرجِّح أن قامتها بطول قامة الرجل تقريبًا.»

دوَّن المُفتِّش ملاحظةً بالإجابة، ثم قال:

«عندما قابلتَ الحُوذيَّ، بدَوت وكأنك قادمٌ من نهاية الغابة.»

«أجل. لَمَّا لم يَعُد أحدُ الرجلين، بدا لي أن الدرب الذي ظننتُ أنه ينتهي بنهاية الغابة لا بد أنه يمتدُّ لما بعدها؛ لذا ذهبتُ بذلك الاتجاه كي أتحقَّق من ذلك. عندما رأيت أنه يمرُّ عبر فِناء المزرعة، عُدت أدراجي قاصدًا البيت.»

«إذن لا بد أنك مررتَ بسَقيفة العربات. أليس غريبًا أنك لم تلحظ الجثة أو حتى المظلة؟»

«على الإطلاق. فثمَّة كومة قش قديمةٌ تستقرُّ بين الدرب وسقيفة العربات. لذا لم أرَ سوى جانبٍ من السقيفة، ولم يكن هو الجانبَ المطلوب. كما تذكر، كان ويفين قادمًا من جهة فِناء المزرعة.»

قال المفتِّش: «أجل، لقد نسيتُ أمر كومة القش؛ لكني أظن أن السيدة وجدَتْها مفيدةً لغرض التلصُّص.» ثم أردف قائلًا وهو يلتقط قبعته مرة أخرى: «حسنًا، أعتقد أن ذلك هو كل شيء؛ لم يبقَ سوى أن أُقدِّم لك خالص شكري الصادقِ على مساعدتك القيمة. لقد كان شرفًا كبيرًا لي أن استمعتُ إلى ملاحظاتك المفيدة للغاية واستفدتُ من معرفتك ومهارتك الفنية المميزة.»

بتلك المجاملة الأخيرة، اتجهَ إلى الباب يُرافقه توم الذي قاده إلى البوابة ثم أطلقَه إلى العالم الخارجي.

عاد توم إلى المرسم ليجدَ بولتون لا يزال يُحملق في الرسم، فقال معقبًا: «يبدو مهذَّبًا للغاية لكي يكون ضابطَ شرطة. ألا ترى ذلك؟»

أجاب بولتون بابتسامة تنمُّ عن فَهمه قصده:

«السيد بلاندي رجل دمث الخلق لأبعد الحدود. لكنه ضابطُ تحقيق في غاية البراعة والحَذْق؛ حادٌّ كالسيف ومُراوغ كالثعبان. يجب أن تتوخَّى بالغَ الحذر من السيد بلاندي.

آمُل يا سيدي أنك لم تُمانِع عرضي بالتقاطِ الصورة الفوتوغرافية. كما ترى يا سيدي، ارتأيتُ أنه من الأفضل ألا يخرج شيءٌ ثمين كذلك من حوزتك.»

«كان ذلك لطفًا بالغًا من جانبك يا بولتون. لكنَّها، باركَك الرب، ليست شيئًا ثمينًا. إنها نُفاية كنتُ سأتخلَّص منها بالفعل.»

«لا تقَلْ ذلك يا سيدي. لقد كنتُ أتأمَّلها بإعجاب وأُفكر كم هي لوحةٌ صغيرة ساحرة، وكم تَزْخر بالتفاصيل المُثيرة على نحوٍ مدهش. ما الوقت المناسب لك كي آتيَ لالتقاط الصورة؟»

«لا داعيَ لأن تتكبَّد عَناء إحضار الكاميرا إلى هنا. خُذ اللوحة معك وأنهِ مهمَّتك في منزلك؛ وبما أنه يبدو أنها قد حازت على إعجابك، فمن الأفضل أن تحتفظ بها وتتركَ لي صورةً فوتوغرافية لها، حالَ قررتُ أن أرسمَ ذلك الموضوع. ستُؤدِّي الصورة الفوتوغرافية الغرضَ بالنسبة لي.»

تهيَّأ بولتون للاعتراض، لكن توم لفَّ اللوحة بإصرار بورقٍ وأعطاه إياها، ليُغادرَ بعدَها ببضع دقائق وهو يَبتسِم بسرور وعِرفان، حاملًا الحُزمةَ الصغيرة تحت ذراعه.

الفصل الثالث

السيدة شيلر

من بين جميعِ سكَّان المدينة المزدحمة التي تَضِجُّ بالحياة من حوله، لم يكن من المُمكن أن يُضاهيَ توماس بيدلي في هدوء باله سوى قلةٍ قليلة منهم. في الواقع، لم يكن ثَمة ما يَشغَل باله أو يحمل همَّه في الحياة على الإطلاق. كان عمله يُدِر عليه دخلًا بسيطًا يفي باحتياجاته البسيطة، بل ويفيض، وكان يجد في أدائه لذلك العمل متعةً ليس بوُسع الزمن إفسادُها عليه. فلم يكن يَملُّ الرسم أبدًا. ولو هطَلَت عليه يومًا ثروةٌ طائلة، سيظل يرسم لمجرد المتعة التي يجدها فيه، بل وقد يفتقد حينها الرِّضا الذي يحوزه من كسبِ عيشه من حِرفته تلك. وعلى أيِّ حال، لم يكن يشتهي الثروة، ولا يَحسد أحدًا، اللهمَّ إلا أولئك الفنَّانين الذين يرى أن أعمالهم تفوق أعمالَه براعة.

وهكذا، وعلى مدار السنين التي مرَّت دون تقلُّبات، كان توم يَتبع «مسلكه الهادئ في الحياة» بسعادةٍ جمَّة ورضًا تام، حتى تلك اللحظة التي وصلَت إليها هذه القصة الآن، التي يتعيَّن علينا فيها الإشارةُ إلى تلك الغَمامة التي خيَّمت على سماء حياته الصافية في العادة. كانت مجردَ غمامة صغيرة؛ لكن ظِلها المحدود كان كفيلًا بإحداث اضطراب ملحوظ في مِزاجه الذي عادةً ما يكون رائقًا.

لم تكن المشكلة تتعلَّق بحادثة غابة جريفل-بيت؛ فتلك الحادثة لم تُثِر لديه أيَّ قلق على الإطلاق، مع أنه كان يُدرك — بشيءٍ من الاهتمام المشوب بالسرور — أن الشرطة لم تنسَ أمره قطعًا. لكن توالت الأسابيع، وتلاشَت أخبار «اللغز الذي لم يَنكشف بعد» تدريجيًّا من صفحات الصحف اليومية، وكذلك مِن ذاكرته، ولم تَعُد تُمثِّل له أي أهمية.

في الواقع، كانت الغمامة ذاتَ طابع أنثوي؛ فمُشكلاته، كمشكلاتِ ميلتون بيركنز، كانت تتمحوَر حول نساءِ بني جنسه. فقد كان توم أعزب، كما استنتَجَ القارئ على الأرجح، وكان يَنوي عن قصدٍ أن يظل كذلك. فمع أنه يُحبُّ النساءَ كثيرًا، كان يتجنَّب

جميع التعاملات الحميميَّة مع الإناث، ويأخذ حذَره من أي عَزْباوات يضعُهن القدر في طريقه، أما بالنسبة للأرامل، فكان ينظر إليهن نظرةَ هلعٍ حقيقي.

في عصر أحد الأيام، حدَث أنْ كان توم منهمكًا باستمتاع جمٍّ في العمل على لوحة نوعية طلب منه مُروِّج أعماله رسمها، عندما دق جرس المرسم مُعلنًا قدوم زائر. بزفرة امتعاض، وضع لوحة ألوانه وفُرَشه وخرج لملاقاة ذلك الذي عكَّر صفو هدوئه؛ ليجد أمامه على عتبه الباب امرأة طويلة القامة نوعًا ما، تتماشَى ثيابها وزينتها مع أحدث الصيحات، التفتَتْ عندما سمعتْ صوت البوابة تَنفتِح، وحيَّته بابتسامة اقشعرَّ لها بدنه.

قالت: «أظن أنك السيد بيدلي.»

وافقها توم الرأي، وأفصحَ لها عن ذلك.

قالت بنبرة مُداهِنة: «آمُل ألا تراني مزعجة، لكني سأكون ممتنَّة إن أعَرتَني فَرْخًا من ورق واتمان. فلديَّ لوحة فنية لأرسمها، وأود أن أبدأ في العمل عليها على الفور، لكن الورق نَفد لدي.»

إن كان بدنُه قد اقشعرَّ لابتسامتها، فقد بعث طلبُها ذلك في نفسه قلقًا شديدًا. فقد كان يعرف — ولا بدَّ أنها تعرف ذلك أيضًا إن كانت رسَّامة — أن ثمةَ متجرًا ممتازًا يَبيع مُستلزماتِ الرسَّامين لا يَبعُد أكثرَ من خمس دقائق سيرًا عن حيث يقفان، ومنه يبتاع توم معظمَ لوازمه. فبدا له طلبها ذلك مريبًا كذريعةٍ للتعرف به.

أردفت قائلة: «ربما ينبغي أن أوضح لك أني جارتُك بالمنزل المجاور؛ اسمي السيدة شيلر.»

انحنى توم تحيةً لها. كان قد لاحظ ظهور لوحة نُحاسية تَحمل ذلك الاسم مؤخرًا، ما أشعره بشيء من الاطمئنان الآن. فعلى الأقل، هي امرأة متزوِّجة ... إلا إن كانت أرملة! على أيِّ حال، لم يكن بوُسعه تركُها تَنتظِر على عتبة الباب.

قال: «سأعطيكِ فرخًا بكل سرور. هلا تَفضَّلتِ بالدخول؟»

قبِلَت دعوته بسرور وانشراح، وبينما كان يقودها عبر الممر سألها: «بأيِّ سُمكٍ تُريدينه؟ عادة أستخدم سُمك ١٤٠ رطلًا للرزمة.»

«سيَفِي ذلك بالغرض تمامًا، إن كان بوُسعك إعطائي واحدًا. سأُعيدُه إليك؛ على الأقل ليس الفرخ نفسَه بالطبع، ولكن واحدًا مثله.»

قال توم قاصدًا إثناءها عن زيارة أخرى: «لا داعيَ لذلك. لديَّ مخزون جيِّد. فقد ابتعتُ لتوِّي رزمة جديدة منه، ولا أستخدمه كثيرًا لأني في الأغلب أستخدم الألوان الزيتية في عملي. ذلك هو مرسمي.»

أشار إلى الباب المفتوح، وما إن دخلَت ضيفته إلى المرسم حتى أطلقَت صيحة اندهاش خافتةً وهي تتطلَّع حولها.

قالت مُنبهِرة: «يا له من مرسم شاسع! وكم هو مبهِر! أنا أحسدك عليه. فمرسمي لا يُعَد مرسمًا على الإطلاق في الحقيقة. إنه مجرَّد غرفة جلوس، ولكنها غرفة جيدة جدًّا ولها نافذة كبيرة جميلة. لا بدَّ أن تأتيَ كي أُريَك إياها في وقتٍ ما.»

كظَم توم غيظه. يا لها من امرأة لحوح. بدأ يشكُّ في أنها أرملة حتمًا، وقرر أنه يجب أن «يغضَّ الطرْف عنها.»

رد قائلًا: «حسنًا، المرء لا يحتاج إلى مكان بذلك الحجم كي يَرسم فيه، وإن كان من المريح طبعًا أن يحظى بمجالٍ فسيح للعمل.»

توجَّه إلى مجموعة من الأرفف العريضة، وسحب منها حافظة أوراق بالحجم الإمبراطوري يَحتفظ بداخلها بمخزونه من الورق، وفتحها على الطاولة واختار منها فرخًا ولفَّه قليلًا، ثم لفَّ حوله خيطًا.

في أثناء ذلك، وقفت ضيفته أمام حامل الرسم تتفحص اللوحة التي شارفت على الاكتمال، والتي تُصور مكانًا خلائيًّا بسيطًا كالأماكن التي يُحِب توم رسمها، وتظهر بها جماعة من الغجر على مرجٍ عام، يَعتنون بنار أوقَدوها، وفي الخلفية بضع شاحنات.

صاحت باندهاش: «يا لها من لوحة بديعة! وكم هي غريبة ومُثيرة للاهتمام!»

تسمَّر توم وهو يعقد طرَفَي الخيط والتفَت إليها مرتابًا.

سألها: «لم تَجِدينها غريبة؟»

قالت موضحة: «أعني واقعيةَ التصوير الاستثنائية. إنها تكاد تُشبه صورة فوتوغرافية. هل ترسم بذلك الأسلوب دائمًا؟»

كان توم يرى أن مقارنة لوحة واقعية مُكتملة بصورة فوتوغرافية هي سِمةٌ جاهل بلغ منه الجهلُ أقصاه. لكنه لم يُفصح عن ذلك. بل أجاب سؤالها فحسب.

«أُحاول الاقتراب بقدر الإمكان من مظاهر الطبيعة؛ لكن بالطبع لا يزال أفضَلُنا بعيدًا كل البُعد عن ذلك.»

قالت: «بالضبط. لا بدَّ أن الرسم التصويري صعب للغاية، وفي النهاية ليس بوسعك أن تُباريَ مصورًا فوتوغرافيًّا. تلك هي مَيزة الفن التجريدي. فالفنان التجريديُّ لا يسعى لتقليد شيء بعينه؛ بل يدَعُ شخصيته تُعبر عن نفسها من خلال الأشكال والألوان المجردة. هل جربتَ من قبلُ أسلوب الفن التقدُّمي الحديث؟»

أجابها توم: «كلا. هذا هو الأسلوب الذي أنتهجُه في الرسم، ويبدو لي الأسلوبَ الأمثل، وأعتقد أن التجار الذين يشترون أعمالي وزبائني الخصوصيِّين يعتنقون الرأي نفسَه؛ فهم مستعدُّون لدفع ثمنٍ عادل مقابلَها. على أي حال، من الأفضل أن أستمر على النهج نفسِه.»

بغرض تعزيز رفضه القاطع لمحاولة النقاش تلك، مدَّ يده بالفرخ الورق الملفوف وهو ينظر بأسًى إلى لوحة ألوانه.

قالت مؤيدة وهي تأخذ منه فرخ الورق بابتسامة فاتنة: «أجل، لا يجب أن أُهدِر وقتك الآن، مع أني أودُّ أن أُناقش معك تلك المسألة يومًا ما. لكني أستأذنك في المغادَرة الآن، وأشكرك كثيرًا على إقراضي تلك الورقة. أعِدُك بصدقٍ أن أردَّها إليك.»

مرة أخرى، أكَّد لها توم أنه لا داعي لردها، مع أنه أدرك الآن يائسًا أنها ستَفي بوعدها لا محالة. ومع ذلك، وبينما كان يُودِّعها عند البوابة ويُراقبها وهي تسير إلى باب منزلها، عزم مجددًا على أن «يغضَّ الطرف عنها» ويصدَّ أيَّ محاولات لبناء علاقة أكثرَ حميمية؛ وهو قرار مُثير للإعجاب، لكنه بالنسبة إلى رجل دمثِ الخلق إلى حد التحرُّج والتشكُّك مثل توم بيدلي، يَفرض تحدياتٍ معينةً على أرض الواقع، كما سيَكتشِف قريبًا جدًّا. بالطبع، رُدَّت إليه الورقة المُقترَضة سريعًا؛ في الواقع، رُدَّت إليه في اليوم التالي، وفشلت محاولاتُ توم وهو يستلمُ فرخ الورق الملفوف في أن يضع نهاية للحدث فشلًا ذريعًا. في تلك المرة، لم يدْعُ زائرته الحسناءَ للدخول. لكن بالرغم من أنه أنهى الصفقة على عتبة بابه، كانت خاتمة الحدث مجردَ بدايةٍ لآخَر.

قالت بابتسامة أظهرَت صفًّا من الأسنان المتسقة بين شفتَيها القرمزيتَين: «لن أُعطلك الآن، لكني حقًّا أريد أن أريك مرسَمِي، وأرغب بشدة في معرفة رأيك في أعمالي. بِضع كلمات نقدية من فنان محنَّك مثلك ستُفيدني كثيرًا. سوف تأتي، أليس كذلك؟ في أي وقتٍ يُناسبُك. لنَقُل عصر اليوم مثلًا، في حوالي الرابعة. هل يُناسبُك ذلك؟»

بالطبع لم يكن ليُناسبه على الإطلاق لو كان ثَمة أيُّ فرصة مُمكنة للهرب. غير أنه لم يكن ثَمة أيُّ فرصة لذلك. نظر إليها توم وقد أُسقِط في يده، وهو يُتمتِم بكلماتِ شكرٍ مهذَّبة، ومستغرقٌ في التفكير. لكن ماذا بوُسعه أن يقول؟ كان واضحًا أنه لا مجال أمامه للرفض؛ ولما اتَّضح له ذلك جليًّا، قرر أن يزورها في الحال ويتخذَ تدابيرَ وقائية لمنع تَكرار تلك الزيارة.

قالت: «حسنًا جدًّا، إذن موعدنا الساعة الرابعة؛ وإن تفضلتَ بألا تقسوَ كثيرًا في نقدِك للوحاتي، سأصنع لك قِدحًا لذيذًا من الشاي.»

وبإيماءة وَدودة وابتسامة كشفَت أكثرَ عن أسنانها، سارت مبتعدة بخطًى رشيقة في اتجاه طريق هامبستيد، بينما عاد توم إلى الداخل، وهو يُتمتم بكلماتِ لوم وتقريع قاسية لنفسه، ووضعَ فرخ الورق داخل حافظة الأوراق.

لسنا بحاجةٍ إلى القول إن زيارة عصر ذلك اليوم لم تفعل شيئًا إزاءَ «وضع نهاية للحدث.» فعندما فتحَت مُضيفتُه الباب استجابةً لدقِّه الجرس، ونزعَت سيجارة من بين شفتَيها كي تَبتسِم ابتسامة ترحيب، استقبلته وكأنه «صديق طفولتها ورفيق لعبها في الصغر.» صافحتْه بدفءٍ حميمي، وقادته، وهي لا تزال مُمسكةً بيده، إلى غرفة استقبال كبيرة استقرَّ بها حاملُ رسمٍ جديدٌ بالقرب من النافذة، وبجانبه طاولة صغيرة. ألقى توم نظرة شاملة على المكان، وسرعان ما قيَّم صاحبته مِهْنيًّا. فيما عدا حامل الرسم وصندوق الألوان والفُرَش وإناء ماءٍ على الطاولة، كان المكان مجردَ غرفة جلوس نموذجية لسيدة، بدَت فيها مائدة الشاي بما فُرِش عليها أكثرَ تناغمًا معها من حامل الرسم.

قالت مضيفته: «ذلك هو مَشغلي المُتواضِع؛ يبدو دون المستوى مقارنةً بمَرْسمك الفخم، لكن ...»

قال توم: «كان تيرنر أو دي وينت لِيَرياه ملائمًا كفاية. ما يُهِم هو الفنان لا المرسم. هلا ألقينا نظرةً على بعض أعمالك؟»

أجابت مُبتهجة وهي تقوده نحو حامل اللوحات: «أجل، لنفعَل. هذه آخر لوحاتي. لستُ راضية عنها تمامًا بعد، لكنِّي لا أظنُّ أني سأُضيف إليها أي شيء آخر مخافة أن أُفسدها. ما رأيك؟»

حملق توم في الشيء الموضوع على حامل اللوحات وتمتمَ بكلماتٍ غير مفهومة. إذ ثُبِّت نصف فرخ من ورق واتمان بإهمالٍ على لوح، وغُطِّيَ بخطوط مُنحنية من لون زاهٍ، من الواضح أنها وُضِعت وهي مشبعة بالماء على ورقة مُندَّاة، ليَنتج عنها تأثيرٌ أشبهُ بورق عينات الألوان لدى بائع ألوان الرسم.

قال مُتلعثمًا وقد تمالك نفسَه قليلًا: «حسنًا، لا أرى ماذا بوسعكِ أن تُضيفي لها. ربما يكون الـ... الموضوع ... مبهَمًا بعض الشيء. ليس جليًّا تمامًا، تعرفين قصدي. ربما كان ...»

قالت موضحة: «ليس للَّوحة موضوع، أعني من الناحية التصويرية. بل هي مجرد موضوع تعبيري بالألوان المجردة. أنوي تسميتَها «سيمفونية بالأخضر والأزرق». هل تظنُّ أنَّ تسميتها بسيمفونية به مغالاة؟»

أجاب توم: «لا أقول إن به مغالاةً، لكني لا أُحب تسمية الأشياء بغيرِ مسمَّياتها. إنها ليست سيمفونية كما تعلمين. فالسيمفونية هي مجموعةٌ من الأصوات، أما ذلك العمل فهو ... أعني أنه لوحة.»

ضحكت السيدة شيلر ضحكة رقيقة. «كنتَ ستقول «إنها صورة»، ثم تراجعتَ. فلِمَ ذلك؟»

أقرَّ توم بابتسامة اعتذارية: «حسنًا، هي ليست ما أدعوه بصورة، لكني حقًّا لا أعرف أيَّ شيء عن ذلك النوع الجديد من الفن. أظن أنها صورةٌ تجريدية.»

«هي كذلك بالفعل؛ إنها تجريدٌ غير تصويري على الإطلاق للألوان. ربما تكون مثالًا متطرفًا؛ لذا لِنُبدِلها بأخرى أكثرَ واقعية.»

مدَّت يدها وأخرجت حافظة أوراق من تحت أريكة، ومنها أخرجت رسمةً صغيرة مثبَّتة على لوح وضعتها على الحامل.

قالت موضِّحة: «الأولى دراسةٌ في الألوان المجرَّدة. أما تلك فهي تَجرِبة في رسم الأشكال المجردة. لكنْ لها موضوع. لقد أطلقتُ عليها اسم «آدم وحواء». ما رأيك بها؟»

نظر توم إلى التُّحفة الفنية الجديدة مقطبًا حاجبَيه وقد تملكَته حَيرةٌ متزايدة. كانت تُمثل هيئتَين بشريَّتين كما قد يَرسُمهما طفلٌ عادي في التاسعة أو العاشرة لم يوهَب أيَّ ملَكة فنية فِطرية، حُدِّدا بخطوط ثقيلة بالقلم الرَّصاص ولُوِّنا بلطخات من الألوان؛ ونظرًا إلى كونه عملًا فنيًّا من إنتاج شخص عاقل بالغ، فقد كان مُثيرًا للذهول.

علَّق توم لمجرد التعليق قائلًا: «يبدُوان مُتشابهَين كثيرًا.»

وافقَته قائلة: «أجل، لكن ذلك طبيعي؛ إذ لا يَرتدي المسكينان أيَّ ملابس. الأكبر حجمًا بينهما هو آدمُ بالطبع، مع أن ذلك لا يُهمُّ كثيرًا. لقد وضعت لها عُنوانًا على سبيل العادة. لكن الصورة في واقع الأمر دراسة في الأشكال الأساسية.»

قال توم: «فهمت»، مع أنه لم يفعل؛ لكنه تابعَ التحديق في العمل الفني بعينَين ذاهلتَين، فيما كانت السيدة تَنظر من فوق كتفه بابتسامة خفية غامضة تلاشت فورَ أنِ التفتَ إليها. بعد تمحيص مطوَّل دون أي تعليق آخر، استرقَ النظر إلى حافظة رسوماتها، فيما كانت مضيفته ترفع اللوحة وتضع مكانها لوحةً أخرى، تُصور على ما يبدو رأسًا

وكتفَين بشريَّتين، وبدَت في هيئتها أشبهَ كثيرًا بتلك «الرسومات» التي يُزين بها التلاميذ غيرُ الموهوبين الفراغاتِ في دفاترهم. وفي الواقع كان ذلك اعتقادَ توم في البداية بشأنها، لكن الفنانة سرعان ما صوبَت له المعلومة.

قالت: «كلا. إنها ليست لوحةً تصويرية. لقد أسميتُها «السيدة العذراء» لكنها مجرد دراسة في التبسيط قائمة على التكوين الهندسي للرأس البشري، حذفتُ منها جميع التفاصيل غير المهمة.»

قال توم معلقًا: «أجل، لاحظت أنَّ ثمة قدرًا كبيرًا من الحذف. أعتقد أن تلك الرقع البنية تُمثل الشعر، أليس كذلك؟»

أجابته: «هي لا تُمثله. بل فقط تُقِر بوجودِه وتُشير إليه ضِمنًا. ربما تبدو حقًّا غيرَ ضرورية في عمل غير تصويري، لكنها تُفيد في إبراز النمط.»

ترك ذلك التفسيرُ توم عاجزًا عن الكلام وكذلك فعلَت المختارات الأخرى من حافظة أعمالها. كانت جميعًا لها الطابَعُ نفسُه؛ إما خطوط لونية لا معنى لها، أو رسومات طفولية لبشرٍ وحيوانات. كان بعضها لمناظرَ طبيعيةٍ كما خمَّن من وجود أشكال خضراء تُشبه المِمْسَحات، التي ربما «تُشير ضمنًا» إلى الأشجار، وفي إحداها كان المنظر الطبيعي مأهولًا بحيوانات مجردة أشبه بنُسَخ أكثرَ بدائية من بضائع محل ألعاب.

قالت السيدة شيلر وهي تُعيد آخر لوحة إلى الحافظة: «تلك هي ذخيرة أعمالي؛ والآن بعد أن اطلعتَ عليها كاملة، أريد أن أسمع رأيك بصدقٍ فيها. لا داعيَ لأن تكون متحفِّظًا. ما أحتاج إليه منك هو النقد الصريح.»

صاح توم في يأس: «لكن يا سيدة شيلر العزيزة، أنا لستُ أهلًا لانتقاد أعمالك. فأنا لا أعرف أيَّ شيء ألبتة عن ذلك الفن الحداثي، عدا أنه يختلف تمامًا عن الفن الذي لطالما عرَفتُه ومارستُه. ولا يسَعُنا مناقشةُ الأمر لأننا لا نتحدَّث باللغة ذاتِها. فأنا عندما أرسم صورة، أستهدف الجمالَ وإثارة الاهتمام؛ ولأنه لا يوجد ما هو أجملُ من الطبيعة، أحاول أن أُحاكيَ مظاهرها قدر استطاعتي. ولأن الصورة هي عمل إبداعي من وحي الخيال لا مجرد تصوير مثل رسمٍ توضيحي في كتاب دراسي علمي؛ أحاول أن أُرتِّب عناصري في تكوينٍ جميل، وأجعَلَها تعكس أفكارًا مثيرة للاهتمام. لكن من الواضح أن الفن الحداثي يتجنَّب محاكاة الطبيعة وأي نوع من الاهتمامات الفكرية أو العاطفية. أنا لا أفهمه على الإطلاق.»

قالت معترضة: «لكن، ألا ترى جمالًا في الأشكال المجرَّدة؟»

أجابها: «لطالما افترضتُ أن الأشكال المجرَّدة حَكرٌ على الرياضيات، في حين يختص الرسم والنحت بالأشياء الملموسة والمرئيَّة. لكن حقًّا يا سيدة شيلر، لا أرى جدوى من مناقشةِ تلك المسألة. فنحن نتحدث ونُفكر على مستويَين مختلفَين.»

قالت مؤيدة رأيه: «أظن أننا كذلك حقًّا، لكن ذلك محبطٌ لي نوعًا ما. فقد كنت آمُل في الاستفادة من خبرتك، لكني أرى الآن أنها لا تتَّصل بأي حال بالفن الحديث. لكن ذلك لا يُهم، سنُغرق اختلافاتنا في إبريق الشاي. هلا جلست في ذلك الكرسي ريثما أضع الغلاية على النار، أم تُفضل كرسيًّا ألين؟»

أجاب توم: «بل أُفضل الكراسيَّ الصُّلبة.»

«وأنا كذلك. ألا تجد أنه من الغريب أن النساء يُفضِّلن مقاعدَ محشوة كفراشٍ وثير من الريش وتملؤها الوسائد؟ لم أفهم لذلك سببًا قط؛ فهن أخفُّ وزنًا من الرجال عامة، وملابسُهن أكثر سِترًا.»

قال توم وهو يتجه إلى الكرسيِّ ذي القاعدة الخشبية: «ربما لأنهن يرتدين ملابسَ أقل، ويحتَجْن إلى الوسائد لأجل الدفء.»

قالت وهي تُقرب عود ثقاب إلى شعلة الموقد الذي استقرَّ فوقها غلايةٌ نُحاسية جميلة مدعمة: «حسنًا، إذن نحن متفقان بشأن الكراسي؛ ها قد صار لدينا أمرٌ نتفق بشأنه كبداية.»

سحبَت كرسيًّا ذا ذراعَين من خشب الماهوجني الفاتح، وجلست عليه مركزة انتباهَها على الغلاية؛ وبينما كان يسخن، تابعت نقاشها بجدية مصطنَعة غريبةِ الأطوار بقصد المزاح، وجدَها توم لطيفةً للغاية. في الواقع، لم يكن خافيًا أن السيدة شيلر كانت ذاتَ شخصية جذابة جدًّا، إن كان بوُسع المرء أن يُنحِّي جانبًا شناعة رسمها؛ وأدرك توم، الذي يُحب النساء كثيرًا ما لم يُطالِبْنه بالزواج، بشيء من الدهشة أن ذلك الحفلَ الصغير غير الرسمي يروق له (مع أنه كان لا يزال ملتزمًا بقراره بأن يكون الغرض من تلك الزيارة هو «وضع نهاية للأمر».) كان الشاي الصينيُّ الفاخر منقوعًا لدرجة مثالية، وكانت أغراض المائدة بما فيها الغلاية تَسُر العين، وكانت تعبيراتُ مضيفته المازحة المرحة تُسلِّيه بعض الشيء.

ما لبث أن عاد الحديث يتطرَّق إلى موضوع الرسم، فأقدَم توم يبحث عن حلٍّ للُّغز الذي يُحيره.

سألها: «هل ترسمين دومًا بذلك الأسلوب الحداثي؟»

كرَّرت بابتسامة: «دومًا! أنا لم أكن أرسم على الإطلاق. إنها مُغامرة جديدة تمامًا بالنسبة لي، خضتُها بمحض الصدفة؛ صدفة تبدو لي غريبةً للغاية عندما أتذكرها. طلبَت مني صديقة لي أن أُرافقها إلى معرض مُقام بصالة عرض في ساحة ليستر تُعرَض فيه أعمالُ كبار الرسامين المعاصرين. لم أكن أودُّ الذَّهاب؛ لأني لم أكن أهتم قط باللوحات ولا أعرف أيَّ شيء عنها، لكنها ألحَّت عليَّ بالذَّهاب؛ لأن الجميع يتحدث عن تلك اللوحات، ولأن النُّقاد الفنيين صرحوا بأنها تُعَد أحدثَ الاكتشافات الفنية.

لذا ذهبت، والمدهش أن اللوحات أثارت اهتمامي وإعجابي إلى أبعدِ الحدود. كانت تختلف تمامًا عن أي شيء رأيتُه من قبل؛ كانت طريفة وعجيبة للغاية. بدَت وكأن مَن رسمها أطفال. لقد أسرَتْني حقًّا؛ لدرجة أني قررتُ أن أُجرب إن كان بإمكاني أن أرسم أيَّ شيء قريبٍ منها. ووجدتُ أني أستطيع ذلك. أليس هذا غريبًا؟ أنا لم أرسُم أو أُلوِّن من قبل، ومع ذلك وجدتُ الأمر سهلًا للغاية. ألا تعتقد أن ذلك عجيب للغاية؟»

وافقها توم بصدقٍ تام، وإن لم يكن بالمعنى الذي قصدَته قائلًا: «عجيب جدًّا.» تكشَّف له اللغزُ تمامًا الآن، لكن كان ثمة أمورٌ أخرى متعلقة به تُثير فضوله.

سألها: «هل تُرسلين لوحاتك إلى المعارض الفنية؟ ذاك أمر ضروري جدًّا إن كنتِ تنتظرين أن تتكسَّبي من أعمالك الفنية.»

أجابته: «أنا لم أعرض أعمالي فعليًّا من قبل، لكنِّي أُجهز مجموعة منها، كما أذهب إلى مَعارِض الفن الحداثي كي أرى الأثمانَ التي تُباع بها الأعمال التي تُشبه أعمالي، أو على الأقل تُعرَض بها. تبدو لي أثمانًا باهظةً نوعًا ما، لكني أُلاحظ أن ما يُباع من اللوحات قليل جدًّا.»

قال توم: «أجل، لا يُقبِل كثيرون على شراء اللوحات هذه الأيام، والقلة القليلة من مُحبِّي اللوحات ممن يشترونها، يُفضلون الأعمال ذاتَ الطابَعِ التقليدي. لكن الخُطة المُثْلى بالنسبة لك هي أن تُجربي عرض لوحاتك على بعض التجار المتخصِّصين في الأعمال الفنية المعاصرة. فهم يعرفون كم تُساوي لوحاتُك في سوقهم، وربما يستطيعون إسداءكِ بعضَ النصائح المفيدة. وربما حتى يَبْتاعون بعضًا من أعمالك ... بالأسعارِ التي تُناسبُهم بالطبع.»

قالت: «تلك فكرة رائعة. سأُجرب ذلك بكل تأكيد. ربما بإمكانك إعطائي اسمَ تاجرٍ أو اثنين. أليس كذلك؟»

هز توم رأسه نفيًا. «التجار الذين أبيعهم أعمالي لن يُفيدوكِ في شيء؛ فهم رجالٌ محافظون يُتاجرون في الأعمال القديمة الطِّراز. لن يقبَلوا بالأعمال المعاصَرة. سيخشون أن تصرف عنهم زبائنهم الدائمين.»

قالت بابتسامة ساخرة: «لا يبدو لي هذا مُشجِّعًا.»

قال توم معترفًا: «أظنُّه كذلك»، وفي لحظات السكوت التي تلَتْ قوله ذلك، أدرك فجأةً أن تلك المُكاشَفات الوُدية ليست مواتية لوضع «نهاية للأمر.» فما كان منه إلا أن توقَّف عنها حتى لا تزدادَ الأمور سوءًا.

قال: «يبدو أنكِ تَعتمدين اعتمادًا كاملًا على الألوان المائية. هل تجدينها ملائمةً أكثرَ من ألوان الزيت؟»

أجابته: «الحقيقة هي أني لم أُجرِّب قطُّ ألوانَ الزيت؛ لأني لا أعرف كيف أبدأ في ذلك؛ أعني بالنسبة إلى دمج الألوان ووضعِها على تلك الفرش ذات المظهر الغريب والشعيرات المتيبِّسة. لكني أود الرسم بالألوان الزيتية، أو على الأقل تجرِبتَها.» صمَتَت لبضع لحظات، ثم أردفت بنبرةٍ تلميحية: «أتساءل إن كان جاري الطيبُ القلبِ المتعاونُ سيُساعدني في ذلك.»

نظر إليها توم بوجَل، وقال: «أظن أني الجار المقصود، لكني لا أفهم ما تُريدينه مني بالضبط.»

قالت مستحِثَّة إياه: «إنه طلب بسيط للغاية، لكني سأكون مُمتنةً كثيرًا لك إن سمحت لي بزيارتك أثناءَ عملك، وأشاهدك وأنت تعمل.»

سألها: «لكن لأي غرض؟ فأسلوب رسمي مُختلفٌ تمامًا عن أسلوبك.»

قالت موافقة: «أعرف ذلك. لكن، في النهاية، يستخدم رسَّامو المدرسة الحديثة الخاماتِ والأدوات التي يستخدمها فنَّانو المدارس التقليدية. وأنت تعرف كل ما يتعلَّق بأساليب الرسم بالألوان الزيتية، وإنْ تسنَّى لي مراقبتك وأنت تعمل بها، سأرى كيف تستخدمها، وحينها سيكون بإمكاني بقليلٍ من التدريب أن أفعل ذلك بنفسي. هلا سمحتَ لي بالقدوم مرة أو اثنتين؟ أَعِدُك بألا أُهدرَ وقتك أو أُقاطعك بحديثي.»

نظر توم إلى وجهها المُتملِّق المبتسِم وأدرك أنها وضعَته في موقف حرج. سيكون من الوقاحة أن يرفض، والواقع أنه لم يكن من طبعه أن يُحجِم عن تقديم أيِّ مساعدة بوُسعه أن يُقدِّمها لفنان زميل، مهما بلغ من السوء. لكن أيضًا كان لا يزال عليه أن

«يغضَّ طرفَه عنها.» فلن يكون من المقبول أبدًا أن يسمح لتلك الشابة الجريئة بالتجول بحريةٍ داخل مرسمه.

قال بعد فترة من الصمت: «حين أعمل، أُحب أن أكون وحدي، وأُركز على ما أقوم به، لكن سيَسُرُّني جدًّا أن أُوضح لكِ عمَليًّا أسلوب الرسم بالألوان الزيتية. ما أودُّ اقتراحه هو أن تُحضِري معك إحدى لوحاتك، وسأصنع منها نسخةً بالألوان الزيتية بينما تُشاهدينَني. ثم بإمكانك أن تطرحي كلَّ ما تشائين من أسئلة وسأعطيك أيَّ نصائح أراها ضرورية فيما يخص التعامل مع ذلك النوع من الألوان. فما رأيك بذلك؟»

«هذا بالضبط ما كنت سأطلبه منك لو واتَتْني الجُرأة. أنا سعيدة وممتنَّة لك لدرجة تعجز الكلماتُ عن وصفها. هلا أخبرتني بالموعد المناسب كي أحضر من أجل ذلك الشرح العملي؟»

أجابها: «سأفعل. لكن لن يكون ذلك قبل يوم أو اثنين، لكن عندما أفرُغ من تلك اللوحة التي أعمل عليها، سأترك رسالةً في صندوق بريدك تُخبِّرك بين بضعة مواعيد للاختيار بينها.» ثم تابع وهو ينهض استعدادًا للمغادرة: «وآمُل أن تنال تلك الألوان إعجابَكِ وتُخرِجي بها أعمالًا عظيمة.»

عندما دخل إلى مرسمه وشغَل نفسه بتنظيف لوحة ألوانه وفرشه، وإنهاء بعض المهام البسيطة، استغرقَ في تفكير عميق في أحداثِ ما بعد الظهيرة. شيء واحد كان جليًّا له؛ وهو أنه قد فشل في وضع «نهاية للأمر.» لقد أسَرَته تلك السيدة اللطيفة. لقد نصبَت نفسها بالفعل واحدةً من معارفه، ورأى بوضوح أن المقابلة التالية ستَضعُها على أعتاب الوصول إلى منزلة الصديقة. كان ذلك أمرًا مؤسفًا، لكن عليه أن يتعامل معه، ويستمرَّ في «غضِّ الطرف عنها» ... إن كان استخدام كلمة «يستمر» دقيقًا في هذا الموضع.

أما بالنسبة للسيدة نفسِها، فقد كانت لغزًا محيرًا للغاية. لم يكن بإمكانه أن يَفهمها. هل هي مجرَّد مدَّعية أم أنها تُعاني من نوع غير عادي من الوهم؟ كانت الحقائق الصريحة والواضحة هي أنها لا تملك موهبةَ الرسم على الإطلاق، وأن لوحاتها المرسومة بالألوان المائية هي أقربُ إلى لوحات طفل بلا أي موهبة، وأنها كما يبدو لا تملك أيَّ أفكار فنية، ولا قدرة لديها على ابتكار موضوعٍ للرسم. لكن هل كان من المُحتمَل أن يكون لديها ضربٌ من المواهب الفنية عجز عن قياسها؟ بدا أن هذا الافتراض ينفيَه الاعترافُ الذي جرى على لسانها بأنها لم تشعر من قبلُ بأيِّ اهتمام تجاهَ اللوحات. فالسِّمة البارزة التي تُميز الموهبة الحقيقية هي أنها تظهر في سنٍّ مبكِّرة. بوب كان يُسطر أبياتًا من

الشعر تأتيه دون جهد منذ نعومة أظفاره، وموتزارت وهاندل كانا موسيقيَّين، بل وكانا أيضًا مؤلفَين موسيقيَّين عندما كانا أطفالًا صغارًا، وجون ميلييه كان رسامًا بارعًا في سن الخامسة، وبونينجتون مات في عقده الثاني من العمر وقد ذاع صيتُه في أوروبا كلها، وكذلك فريد واكر وشانتري وآخرون كُثْر. كلا، مَن يبلغ من العمر خريفه دون أن تظهر عليه أيُّ ميول فنية قطعًا ليس فنانًا بالفطرة.

الاستنتاج الوحيد المحتمل هو أن السيدة شيلر إما مدَّعية أو أنها ضحية وهمٍ غريب، وهنا عليه أن يدعَ الأمر؛ فهو أمر لا يخصه في النهاية. كان كل ما يُهمه هو أن يضمَن عدم وقوعه في أي شِراك؛ لكن أساليب السيدة المتمرسة البارعة كانت تدلُّ على أنها ستَشغَله بذلك الأمر تمامًا دون أن يشغَل باله تمامًا بمواهبها الفنية.

الفصل الرابع

السيد فاندربوي

ثمة أشخاص، وهم كُثْر للأسف، يبدو أنهم لا يملكون القدرة على فعل أي شيء بإتقان. فتعجُّلهم الانتهاءَ مما يفعلونه، وافتقارُهم إلى القدرة على التركيز على الفعل نفسِه، يُخرِج عملًا غير متقَن ونتائجَ معيبة. وعلى النقيض، ثَمة بعض الأشخاص من ذوي النفوس السليمة لا يستطيعون أن يحملوا أنفسهم على فعل أي شيء بغير إتقان. كان توم بيدلي خيرَ مثال على ذلك النوع الأخير. فهو يُعير أبسطَ المهام كاملَ انتباهه، ولا يقوم عنها إلا وقد أتمَّها على أكمل وجه، حتى إن كانت تلك المهمة لا تتعدَّى غسل قدحِ شاي أو تلميعَ ملعقة. هكذا جرى الشرح العملي لفنيات الرسم بالألوان الزيتية، مع أنه كان بينه وبين نفسه يراه مَضْيعة للوقت، دقيقًا ووافيًا تمامًا كما لو كانت السيدة شيلر تلميذة واعدة للغاية.

قالت السيدة موضحة عندما حضرت في اليوم المحدَّد: «لقد أحضرتُ لوحتَين من لوحاتي؛ «سيمفونية بالأخضر والأزرق» وتلك التي موضوعها «آدم وحواء». في رأيك أيَّتُهما ستكون ملائمةً أكثر؟»

أجابها توم: «بإمكاننا أن نُنفِّذ كِلَيهما؛ فإحداهما تحوي أشكالًا من نوعٍ ما لا تحويه الأخرى. لنبدأْ بلوحة «السيمفونية»؛ يبدو أنكِ استخدمتِ فرشًا كبيرة جدًّا وأبقيتِ الورقة مشربةً بالماء على نحو غير عادي.»

«أوه، أنا لم أستخدم أي فرش على الإطلاق. بل غمستُ الورقة في الماء، ثم مزجتُ شيئًا من اللون الزَّبَرجدي المتأكسِد والأزرق اللازَوَرْدي الفرنسي في إناءين منفصلَين، ثم

صبَبتُهما في خطوط طويلة. وعندما أملت اللوحة، بالطبع سالت الألوان ممتزجةً معًا وصنعَت تلك التدرجاتِ اللونيةَ الخفيفة، والتي حاولتُ التعبير عنها بكلمة «سيمفونية».»

قال توم بابتسامة تنمُّ عن تقدير: «فهمت. يا لها من طريقة جيدة جدًّا. وموفِّرة للجهد كذلك. لكن لا يُمكنكِ أن تَفعلي ذلك في الرسم بالألوان الزيتية. يجب أن تمزجي الألوان بالفرشاة، إلا إن كنتِ ستستخدمين السكِّين. سأُريك الطريقة.»

وضع «السيمفونية» على الحامل وبجانبها لوحُ رسمٍ أبعادُه أربعَ عشْرةَ بوصةً في اثنتَي عشْرة بوصة. ثم، على لوحة ألوان نظيفة، وضَع ثلاثَ قطرات من أنابيب الألوان الزَّبَرْجَدي المتأكسد والأزرقِ اللازَوَردي الفرَنسي والأبيض الثلجي، ثم أمسك بسكِّين مزجِ الألوان، ومزَجَها ليصنع بضع درجاتِ ألوانٍ مماثلة لتلك الموجودة في «السيمفونية».

قال: «سنتَّبع أساليبك قدرَ استطاعتنا مع الألوان الزيتية. سنبدأ برسمِ خطوط باللون الأغمق، ثم نُضيف درجات أفتح عند الأطراف، ثم ندمجها بالفرشاة معًا كي نصنعَ تلك التدرجات الدقيقة؛ هكذا.»

بدأ يعمل مستخدمًا فرشاتَين كبيرتين، وهو يَنظر بإمعانٍ إلى «السيمفونية»، ومن آنٍ لآخرَ يشرح طريقة التعامل مع الفرشاة ودمجِ درجات الألوان في بِضع كلمات موجَزة. وبعد ربع الساعة من العمل، كان قد صنع نسخة من «السيمفونية» ربما كانت لتبدوَ صورةً طبق الأصل عنها، لولا اختلافُ نوعِ الألوان. كانت تلميذته تُراقبه وتُصغي لشروحاته دون أن تنبس ببنتِ شَفة حتى أتم عمله. ثم، وبينما كان يتراجع للخلف ويضعُ لوحة ألوانه، صاحت مندهشة:

«يا للروعة! لقد صنعتَ نسخة طبق الأصل منها؛ وبسرعة كبيرة أيضًا. هذا مدهش حقًّا، ويبدو سهلًا للغاية.»

كرَّر توم: «سهل! بالطبع سهل. فبوُسع أي ... أي أحد ... (كان على وشك أن يقول «أي أحمَق») وضعَ خطوطًا من الألوان على لوح رسم ودمَج حوافها معًا.» ثم أضاف بسرعة: «لكن بالطبع عليه أن يكون في تلك الخطوط لمسةُ ابتكار. والآن علينا أن ننتقل إلى «آدم وحواء».»

غير أن هذه اللوحة شكَّلَت صعوبة أكبر؛ فرغم محاولاته المُضنية، لم يستطع مطابقة التأثير الطفولي للرسم الأصلي. فشخوصه أصرَّت على أن تبدوَ بشرية قليلًا، حتى في تمايُزها إلى رجلٍ وامرأة.

قال وهو يتراجع إلى الخلف وينظر إلى عمله بابتسامة كئيبة: «هاك، أعتقد أن ذلك سيفي بالغرض، مع أنه ليس بنسخة جيدة. يبدو أني أغفلت بعضًا من «الأشكال الأساسية»، لكن لا يُهم، لقد رأيتِ الأسلوب. والآن ختامًا، سأُريك كيف تَستخدمين سكين الدمج. فقد يُناسبك ذلك أكثر من الفرشاة.»

وضع على حامل الرسم لوحًا من الورق المقوَّى، ثمَّ أخذ بضع سكاكينَ صغيرةٍ ذاتِ أنصالٍ رفيعة تُشبه المجرفة، وسريعًا، صنع بها نسخة أخرى من «السيمفونية»، فيما راقبَته تلميذته بدهشةٍ ممتزجةٍ بالبهجة والفرح. وأخيرًا، أراها كيفية تنظيف لوح الألوان وغسل الفرش، منبهًا إياها إلى أن الرسام المنظَّم يعتني بأدواته ولا يُهدر خاماته.

وختم بقوله: «والآن ها قد صرت تعرفين كل شيء عن الأمر. السهولة ستأتي بالممارسة، أما الأفكار فهي لديك بالفعل، إذن ما عليكِ سوى أن تشتري الخامات وتنطلقي.»

قالت: «سأفعل ذلك بالتأكيد. لكن لا يسَعُني أن أُعبر لك عن امتناني.» دنَت منه، ونظرت إلى وجهه بجدية واضعةً يدَيها على ذراعيه (وللحظةٍ مريعة خُيِّل إليه أنها ستُقبله) ثم صاحت بفرح: «كان لطفًا بالغًا منك أن تتكبَّد كل ذلك العناء من أجل امرأة غريبة. أظن أنك ودود جدًّا. لكنَّنا في الواقع لسنا غريبَين، أليس كذلك؟»

قال توم مقرًّا بحذر: «حسنًا، لقد رأيتك من قبل قطعًا.»

قالت معترضة بابتسامة: «لا تكن مملًّا. لقد رأيتني من قبل بالفعل! لكن لا يهم. فأنت لم تنتهِ من أمري بعد. أريدك أن تأتيَ معي إلى متجر مستلزمات الرسامين وتُريَني ما يلزم شراؤه للبدء. هلا فعلتَ ذلك من أجلي؟ قل نعم كالبطة المطيعة.»

قال توم معترضًا: «لا أستطيع فعل ذلك؛ لأنني لم أرَ قط بطة تقول نعم؛ لكني سأرافقك إلى المتجر لأتأكَّد من أنك لن تُهدري مالَكِ على تفاهات. ربما من الأفضل أن نذهب سريعًا الآن لننتهيَ من ذلك الأمر. المتجر قريب. لن نستغرقَ سوى بضع دقائق. ما رأيك؟»

قالت بابتسامة خبيثة وفَطِنة للغاية: «أجل.» وأدرك توم متأخرًا أن فظاظته المتعمَّدة لم تدفعها عنه، بل قرَّبَتها منه خطوة. وهكذا، قصدا المتجر معًا، وبعد أن أشرف توم على مشترياتها وتأكَّد من حصولها على الضروريات اللازمة للبدء، حمل الرزمة الكبيرة ورافقها إلى منزلها، وعندما ناولها الرزمة وودَّعها على عتبة بابها، جعلَته حرارةُ امتنانها وعِرفانها له يشكر الله أنْ تبادلا كلمات الوداع على قارعة الطريق.

دار على عقبَيه بوجه مضطرب وحزنٍ دفين. لم يعد بإمكانه خداعُ نفسه الآن. لقد فشل فشلًا ذريعًا في «غضِّ طرفه عنها.» واتَّخذته تلك السيدة الشابة الاستثنائية صديقًا ورفيقًا خاصًّا، شاء أم أبى. وبدا لا يرى من ذلك فكاكًا. رجل أكثرُ فظاظة وأقلُّ لطفًا منه كان ليستخدمَ أسلوب صدٍّ فعَّالًا؛ لكن توم كان رجلًا طيب القلب، ودمث الخلق ومراعيًا لمشاعر الآخرين بطبعِه وعادته، ويُكِن كلَّ التوقير للنساء كما العزَّاب العجائز. على مضض، كان عليه أن يقبل فكرة أن تلك الصداقة التي لم يُرِدها صارت حقيقةً قائمة، عليه من الآن فصاعدًا أن يُخضِع لها أسلوبَ حياته المعتاد البسيط الانطوائي.

وقد كان. لم تكن صديقته الجديدة متطفلةً في الواقع؛ فقد أدركَت أنه رجل وحيد يُحب أن يعمل وحده دون رفيق. لكن بطريقةٍ ما، لم يكد يمرُّ يوم دون أن يراها على نحوٍ أو آخر. بالطبع كان يُضطَر إلى الذَّهاب لرؤية تَجارِبها بالطريقة الجديدة (التي كان يُحملق فيها ببلادة، وقد بلَغَت منه الدهشةُ مداها) وإسدائها مزيدًا من النصائح الفنية البحتة. ثم كانت هي تمر بمرسمه من حينٍ لآخر كي تطرح عليه سؤالًا، أو تعرض عليه خدمة بسيطة، أو تُقدم له هدية صغيرة، وكان عدد المرات التي يتقابلان فيها صدفة في الشوارع المجاورة تدحض جميع قوانين الاحتمال المعروفة. وهكذا ودون أن يشعر، زادت أواصرُ الصداقة والألفة بينهما، ومعها زادت المساحة التي تحتلُّها في حياته.

راقب توم ذلك الأمر بقلق وتوجس، لاعنًا الحظَّ السيئ الذي وضعها في طريقه. لكنه ما لبث أن بدأ يُدرك أن الأمور ليست بالسوء الذي كان يخشاه؛ فهي في المقام الأول لم تكن أرملة. كان لها زوج يظهر في خلفية حياتها، التي كانت خلفيةً ألمانية على ما يبدو؛ كان شخصية مبهَمة، لكنه يظل حائلًا مؤكدًا دون زواجهما. لذا انتفى الخطر الأساسي. ثم بدأت حقائقُ مطمْئِنةٌ أخرى تتجلى. في البداية، كان رفعُها المدهش للكلفة يرعبه، وكانت العبارات والألقاب التودُّدية التي تُخاطبه بها تبدو له مزعِجةً بحق، لكنه سرعان ما اعتاد أن تُناديَه «توم» أو حتى «تومي»؛ أما بالنسبة إلى عبارات المداعبة والتودُّد، فبدا أنها مجرَّد عادةٍ من قبيل المزاح لا أكثر. أدرك ذلك عندما لاحظ الانضباط الجوهري في سلوكها عندما يكونان معًا. فلم يرَ منها قط أيَّ نزعة نحو إبداء أي عاطفة أو مغازلة.

ربما تُناديه «عزيزي» أو «صغيري» أو حتى «تومي الحبيب»، لكن تلك الكلمات في ذاتها بدَت بريئةً — رغم سخافتها — بالنظر إلى أسلوبها المجرَّد تمامًا من العواطف؛ وبعد أن اطمأنَّ توم واستقرَّ إلى أنه ليس مهددًا بالوقوع في ورطة حقيقية، بذل ما في وُسعه كي يصبر على ما رآه «عادة سخيفة وبغيضة جدًّا.»

أما بالنسبة للمرأة نفسِها، فكانت شخصيتها جذابة. كانت مفعمة بالحيوية ومرحة ومسلية، وكان ليتَّخذها رفيقة لا بأس بها لو كان يُريد واحدة — وهو ما لم يكن يريده قطعًا — ولو كانت أظهرَت أي لمحةِ تذوق للفن كما يعرفه. لكنها سرعان ما تركت رطانة صحفيِّي الأخبار الفنية، وحاولت أن تهتمَّ بأعماله، لكنها في الحقيقة لم تكن تعرف أي شيء عن الفن التقليدي أو تهتمُّ به على الإطلاق، ونظرًا إلى غياب ذلك الاهتمام، لم يكن بينهما أيُّ شيء مشترَك.

على الجانب الآخر، كان مظهرها يُثير اهتمامه، وبما أنه كان يرسم صورًا شخصية من حينٍ لآخر، فقد أولاه بعض العناية. كان لِيَصِفها بأنها امرأة فاتنة الجمال؛ شقراء، مُبهرجة، تضع زينة تُساير صرعةً قبيحة، ولها شَفتان حمراوان، ووَجْنتان يُغطيهما مساحيق التجميل ومورد الوجنتَين، وحاجبان مرسومان، وكتلة هائلة من الشعر المجعد، الذي بدا أنه في وقتٍ ما كان مقصوصًا حتى عنقها وصار الآن في طَور النمو مرة أخرى. كان شعرها بالأخصِّ يُثير انتباهه؛ فلم يرَ مثيلًا له من قبل. كان لونه بنيًّا فاتحًا جدًّا يميل إلى الأصفر الشاحب، لكن كان ثمة شيء غريب في نسيجه؛ شيء يُضفي عليه بريقًا خاصًّا عندما يسقط عليه الضوء ويبدو وكأنما لونه قد تغير. ونظرًا إلى المشكلة التي ستُقابله عند تصويره في لوحة شخصية، تأمله توم في إضاءات مختلفة وقارنه بعينَيها العسليتين المشُوبتَين بخُضرة وما تسنَّى له تمييزه من لون بشَرتِها؛ وأخيرًا استقر إلى أنه شعر مُستعار من نوعٍ ما، لكنه لم يستطع تحديد نوعه.

أما عن باقي صفاتها، فكانت طويلة القامة نوعًا ما، ربما يبلغ طولها خمسةَ أقدام وسبع بوصات دون حذائها ذي الكعب العالي، جذابة إلى حدٍّ ما، ملامحها دقيقة نوعًا ما لكن ذقنها كان بارزًا وفكها السفلي قويًّا. كان الجانب الأكثر جاذبية فيها دون شك هو جانب وجهِها، وقد تمعن توم فيه بعينِ خبير مُحترِف، وقرر أنه يَصلُح أن يكون موضوعًا لصورة بارزة جميلة للغاية. حتى إنه رسم بضعة رسوم تجريبية له من الذاكرة في دفتر ملاحظاته، ولديه نية لم تَكتمِل بعدُ لأن يعرض عليها رسم صورة شخصية بارزة لها؛ لكنه تخلَّى عن تلك الفكرة؛ إذ أدرك أن الظروف اللازمة لذلك ستميل إلى توطيد صداقة كانت وثيقةً للغاية بالفعل.

إنْ فعل ذلك، فسيُظَن أن توم ما زال يسعى، إن جاز التعبير، إلى خوض معركة بائسة؛ وما زال يسعى إلى وضع حدٍّ لتلك العلاقة الوثيقة التي لم يسعَ إليها. كان يعلم

يقينًا الآن أنه لا يُمكن أن يكون لديها أيُّ نوايا للزواج منه، ولم يعد يخشى أي محاولات من جانبها لسحبه إلى علاقة مريبة، لكنَّه كان يكره هذه العلاقة. لم يرغب يومًا في أن يكون له صديق من الجنس الآخر، وكره طريقة تعلُّق تلك السيدة به. ولأنه رجل وحيد نوعًا ما ومنطوٍ على نفسه إلى درجة كبيرة، كانت أمنيته الأساسية أن يدَعَه الآخرون يحيا حياته كما يحب، وكلما مرَّ الوقت شقَّ عليه أكثر أن يقتحم شخصٌ آخر حياته تلك، حتى وإن كان شخصًا متفهمًا لذلك. لكنه لم يرَ مَفرًّا، عدا التجاهل التام، الأمر الذي لا يقدر عليه؛ وفي النهاية تخلَّى عن مقاومته، وبزفرةِ ندمٍ على ما فقده من راحة البال والحرية، قرر أن يُحقق أقصى استفادة من الظروف الجديدة.

لكنَّ ساعة خلاصه كانت قريبة، مع أنه لم يكن بوُسعه التنبؤُ بها على الإطلاق، ولا تخمينُ هُوية الشخص الطيب الذي جاء حاملًا له أمرَ إخلاء سبيله الذي لم يكن في الحسبان تمامًا. وكما يبلغ الظلام أقصاه قبل بزوغ الفجر، جاءت بداية تحرُّره في اللحظة التي شعر فيها بأن تلك العلاقة الوثيقة المفروضة عليه صارت مصدرَ إزعاج لا يُحتمَل.

كانت الساعة حوالي الرابعة عصرًا، حين مرت السيدة بمرسمه لتدعوَه إلى احتساء الشاي، وهو ما قابله برفض قاطع.

قالت معترضة: «هراء! أنت دائمًا مشغول عن أن تأتيَ لاحتساء الشاي معي؛ أو هكذا تدَّعي على الأقل، وأنا لا أُصدقك. ما هذا إلا مجرد عذر. أهو الشاي الذي أُعده أم رُفقتي التي لا تُحب؟»

شرع توم يقول: «عزيزتي السيدة شيلر ...» ولكنَّها قاطعته.

«أوه، ليس السيدة شيلر! ألم أطلب إليك مرارًا ألا تُناديني بذلك الاسم المريع؟ ادعني لوتا. أنا واثقه أنه اسم لطيف جدًّا.»

«هو اسمٌ رائع للغاية. حسنًا، يا سـ... يا لوتا ...»

«عزيزي، إن لم تأتِ لاحتساء الشاي معي، فسأبقى أنا هنا وأُعِد لك الشاي وأُساعدك على احتسائه؛ وبعدها سأُغادر وأترك دبِّي العزيز الحبيب يَنعم بسلامِ عرينه. ستسمح لي بالبقاء يا عزيزي توم، أليس كذلك؟»

في تلك اللحظة، دقَّ جرس المرسم بإلحاح في الباحة الخارجية قاطعًا حديثهما.

سألته لوتا: «هل أخرج لأرى من الطارق؟»

«كلا. من الأفضل أن أذهب أنا؛ فربما أستطيع إنهاء الأمر على عتبة الباب.»

أسرع الخطى عبر المَمر، آملًا أن يستطيع ذلك. لكن عندما فتح الباب ليجد أمامه صديقه القديم السيد بولتون وبرفقته غريب، أدرك أنه لا مجال للتملُّص؛ فقد كان مضطرًّا إلى أن يدعوَهما للدخول.

حيَّاه بولتون بابتسامة مبتهجة عريضة قائلًا: «مساء الخير يا سيدي، لقد سمحتُ لنفسي بإحضار زبون لك يُريدك أن تَرسم صورة شخصية له. هل أنا مُصيب في استخدامي لفظ «زبون»؟»

«حسنًا، عادة ما نُسمِّيهم عارضين، مع أن الكلمة تميل قليلًا إلى الإشارة لمجال الأزياء. لكن هذا لا يهم. هلا تفضَّلتما بالدخول؟»

دخَلوا، وبينما كانوا يَسيرُون على مهل في المَمر، استكمل بولتون عملية التعارف. كان الجالس المرتقب، وهو رجل أفريقي وسيم ذو بشَرة فاتحة، من بلدة إلمينا بساحل الذهب يُدعى السيد ويليام فاندربوي، يحضر حاليًّا مجموعة محاضرات في الطب الشرعي في مُستشفى سانت مارجريت.

قال بولتون مستطردًا: «كما أنه يؤدِّي بعض المهام العملية في معملنا، باعتباره تلميذًا للدكتور ثورندايك. وهكذا نلتُ شرف معرفته.»

في تلك اللحظة كانوا قد بلغوا باب المرسم الذي فتحه توم، داعيًا إياهما إلى الدخول. وهكذا دخَلا، ثم عندما أدركا وجود شخص آخر في المرسم، توقف كلاهما فجأة، ولبرهة، تبادلت ثلاثة أزواج من العيون الفضولية نظراتٍ متفحِّصةً سريعة. أسرع توم يُعرِّف ضيوفه الثلاثة بعضَهم ببعض وهو يتصبَّب عرقًا من الخجل، ويسبُّ في سره، ثم بغرض منح السيدة فرصة للمغادرة، قال موضحًا:

«سيُشرِّفُني السيد فاندربوي بالجلوس لرسم صورته الشخصية.»

صاحت قائلة: «أوه، يا له من أمر مثير للاهتمام! لكني أتوقع أنكما تُريدان الآن ترتيب أمر الجِلسة؛ لذا أظن أنه من الأفضل أن أترككم تبدَءون مشاوراتكم.»

بينما كانت تتحدث، رمقت السيد فاندربوي بنظرة سريعة جذابة على نحوٍ غير ملحوظ، فردَّ على الفور بنبرة تأكيد قائلًا:

«على الإطلاق يا سيدة شيلر. لا يجب أن تدعيني أكون سببًا في مغادرتك؛ فنحن لن نُناقش أسرارًا، بل سنرتب أمر الصورة الشخصية فحسب.» ثم أضاف قائلًا على نحو غامض قليلًا: «كما يبدو أنك أيضًا رسامة؛ ولذا ربما بإمكانك إسداؤنا النُّصح.»

قالت: «هذا لطفٌ بالغ منك، وإن كنت تود حقًّا أن أبقى، فسيسُرني أن أسمع كل شيء عن الصورة، وسأُعِد لك قدحًا لذيذًا من الشاي عرفانًا لدعوتك.»

بدأت في الحال في رصِّ أغراض الشاي، فيما ملأ بولتون الغلاية ووضعها على شعلة الموقد، وتابعهما توم بمشاعر مختلطة تتبدل بين لحظة والأخرى. لقد كان بوسعه التخلصُ من رفقة لوتا بسهولة؛ لكنه عندما لاحظ نظرات عينَي زبونه الجديد وهو يُتابع تحركاتها، بدأ يظنُّ أن بقاءها ربما كان في صالحه. فمن الواضح أنه كان الصديقَ الوحيد للوتا من الجنس الآخر. وسيشعر براحة كبيرة إن اكتسبت صديقًا آخر.

وبتلك الفكرة في ذهنه، راقب سير الأحداث أثناء احتسائهم الشاي (وكذلك فعل السيد بولتون الذي كانت السيدة بالنسبة له بمثابة لغز محيِّر) ووجدها مبشِّرة. ولغايةٍ في نفسها، كما بدا، قصَرَت لوتا الحديث على السيد فاندربوي وحده تقريبًا، مخاطبة إياه بنبرة إجلال يبدو أنها أرضت غروره. في الواقع، كان واضحًا أن الرجل الأفريقي منبهرٌ إلى حدٍّ كبير بلوتا الجميلة، ولم يُخفِ إعجابه ذاك؛ وهو ما لم يكن بالأمر المُستغرب؛ لأنها كانت امرأة حسناء (إن لم يكن المرء يُمانع «الألوان المجردة»)، بوسعها أن تنال أقصى قدر من الاستحسان عندما تحاول. ولم يكن خافيًا أنها تُحاوِل ذلك الآن.

قالت: «أنا أحسد السيد بيدلي على تلك الفرصة. فأنت موضوع رائع للغاية لصورة شخصية.»

صاح في سرور: «هل تعتقدين ذلك حقًّا؟ كنت أخشى نوعًا ما أن يكون لونُ بشَرتي، وشعري، كما تعرفين ...»

«لكن ذلك ما عنَيتُه بالفرصة. فبشَرتُك ذات اللون القمحي الدافئ تفتح احتمالاتٍ كثيرة فيما يتعلق بتناغمات الألوان؛ على عكس البشرة الأوروبية الباهتة نسبيًّا.» ثم تابعت متأملة: «ربما يُفسر ذلك حقيقة أن الأفارقة يملكون موهبة فطرية في تنسيق الألوان فيما يبدو. ألا تعتقد ذلك؟»

وافقها فاندربوي قائلًا: «قد يكون ذلك صحيحًا. فهم يُحبون الألوان بلا ريب، ويُحبون كثرتها. اعتاد خادمي في وطني ارتداء حلة قرمزية من نسيج صوفي وخفَّين خضراوين.»

صاحت لوتا بإعجاب: «يا له من مزيج بديع! فهما يصنعان تباينًا رقيقًا! ألا تُوافقني الرأي؟»

كان السيد فاندربوي مُستعدًّا لموافقتها الرأيَ في أي شيء، وكان يُعبر عن ذلك بابتسامة بشوشة كشفت عن صفَّين من الأسنان قلما يُسَر لها نظر الأوروبي المعاصر.

أضاف قائلًا: «لكنِّي بالطبع لا أعرف الكثير عن تلك المسألة سوى أنني أحب الألوان الزاهية، أما أنت ففنانة ولا بدَّ أنك درَستِها بعمق.»

أقرَّت قائلة: «هذا صحيح. فالألوان هي شُغلي الشاغل في الحياة. أحبها كثيرًا لدرجة أنها غالبًا ما تدفعُني إلى رسم صور مكونة بالكامل من الألوان دون أي غرض آخر. كالسيمفونيات والمقطوعات الفردية ولكن بالألوان.»

قال فاندربوي: «أنا واثق أنها جميلة جدًّا بلا شك، مع أنني لا أفهم تمامًا كيف يُمكنك أن ترسمي صورة مكونة من ألوان فقط. ربما أنال شرف رؤية أعمالك يومًا ما.»

«هل تودُّ ذلك؟ إن كنت تود، فسيكون من دواعي فخري وسروري أن أُريَك إياها. أنا أسكن في المنزل المجاور للسيد بيدلي؛ لذا بإمكانك أن تزورَني بسهولة بعد إحدى جلسات الرسم.»

قال السيد فاندربوي مقترحًا: «سيكون من الأفضل أن نُحدِّد موعدًا. في أي وقت تحب أن أحضر من أجل جلسة الرسم يا سيد بيدلي؟»

أجابه توم: «أُفضل أن أعمل في ضوء الصباح، لنقل من التاسعة إلى الثانية عشرة. هل يُناسبك ذلك يا سيد فاندربوي؟»

أجابه الأخير: «يناسبني تمامًا. ماذا عن اليوم؟ متى تحب أن نبدأ؟»

«في رأيي كلما أسرعنا كان أفضل. ما رأيك في يومِ غد؟»

«يُناسبني تمامًا. إذن موعدنا التاسعة من صباح غد. وبالنسبة لك يا سيدة شيلر؛ هل يُناسبك أن أتفقدَ مرسمك بعد الثانية عشرة بقليل؟»

أجابت: «يناسبني تمامًا. سأكون حينها قد أنهيت لتوي عملي الصباحي.» ثم أردفَت: «والآن بعد أن أنهينا إبريق الشاي، أظن أن لديكما ترتيباتٍ أخرى لمناقشتها، ومن الأفضل أن أغادر أنا.»

ونهضت، وبعد أن صافحت الزائرين وذكرت أنه لا حاجة إلى مرافقتها للخارج، منحت السيد فاندربوي ابتسامةَ وداع، ثم أسرعَت بالمغادرة.

أعاد صوتُ غلق الباب الخارجي مجرى الحديث إلى الصورة الشخصية، و«الترتيبات الأخرى» التي لا تَعْنينا تفاصيلها. في النهاية تقرَّر أن تكون الصورة الشخصية لثلاثة أرباع طول صاحبها وأن تُصوره مرتديًا عباءةً وجُمَّةَ المحاماة خاصته، وممسكًا في يده بمذكرة دعوى وكأنما يُخاطب المحكمة؛ وبعد الاتِّفاق على ذلك وعلى التكاليف، همَّ الزائرانِ بالمغادرة.

قال السيد فاندربوي: «إلى اللقاء إذن، أو كما يقول أبناء شعب الهوسا في بلدي «سي جوب» ... أو حتى ألقاك غدًا. سأكون أمام بابك في تمام التاسعة.»

أضاف توم بابتسامة ماكرة: «وفي تمام الثانية عشرة ستكون أمام باب السيدة شيلر.»

ابتسم السيد فاندربوي بدوره، لكن لم يكن ثمة سبيلٌ لمعرفة ما إذا كان وجهه قد احمرَّ خجلًا.

الفصل الخامس

فصل غير ذي أهمية لكنْ ذو صلة

تحقَّقت الآمال الضعيفة التي بناها توم بيدلي بأن تُعفِيَه صداقةً تنشأ بين زبونه الجديد ولوتا شيلر ولو قليلًا من صُحبة السيدة. فبسرعةٍ شديدة بدأ يتَّضح له أن السيد فاندربوي لم يُقاسمه فحَسْب عبءَ تلك العلاقةِ الوثيقة؛ بل في الواقع كان في طريقه إلى إزاحة توم عن مكانته بوصفه الصديقَ الوحيد لها من الرجال. وهذا لا يعني أنها انصرفَت عن توم تمامًا؛ فقد كانت لا تزال مُداومة على زياراتها له في مرسمِه بين الحين والآخر؛ لكن تلك الزيارات كانت تَميل على نحوٍ غريب للغاية إلى التزامُن مع وجود السيد فاندربوي هناك.

لم يكن ثمة غبارٌ على الموقف، أو أيُّ محاولة لمواراته. فلم يُحاوِل الإفريقي المندفعُ المرهفُ الحسِّ أن يُخفي إعجابه بلوتا الحسناء المفعَمة بالحيوية، أو حقيقة أنهما يقضيان أوقاتًا طويلة معًا؛ أما بالنسبة إلى السيدة، فلم تبذل أيَّ عناء لإخفاء تلك العلاقة الجديدة. وهكذا، راقب توم باستمتاع مشوبٍ بالكآبة — مُسترشدًا بنبراس تجرِبته — ظهورَ الأعراض المألوفة؛ ولاحظ أن السيد ويليام فاندربوي قد تَرَقى إلى سَمْت ولقب بيلي — مع الإضافات المعتادة أو بدونها — وأنه لم يعُد مُطالَبًا باستخدام لقب السيدة لوتا شيلر عند مخاطبتها.

كان تقدُّم الصورة الشخصية يسيرُ بوتيرة ثابتة، لكن لكونها صورةً بالحجم الطبيعي تقريبًا وتتضمَّن بعض اللمسات التكميلية، كان تنفيذها يتطلب عددًا كبيرًا من الجلسات، مع أن توم كان غالبًا ما يُوفر الوقتَ بالعمل على رسم اللمسات التكميلية بين الجلسات؛ وعندما شارفَت على الاكتمال، بدأت جودتها تتجلَّى. كانت صورةً رفيعة الذَّوق ومتجانسة. لم تَنطوِ على أي مداهنة. كانت تُجسد الشبهَ بينه وبين صاحبها بصِدق، لكنه كان شبهًا جذابًا إلى حد كبير؛ إذ تُصور صاحب الصورة في أفضل أحواله، وإن كان بها أيُّ نزوع

تجاهَ إبراز مواضع الاستحسان لديه، فقد كان ذلك مجردَ انعكاس لموقف توم بيدلي العادي من بَني جنسه لا أكثر.

من آنٍ لآخَر، كانت لوتا تمر بالمرسم (عادة في حوالي الثانية عشرة) كي تتفحَّص وتنقد، وكان توم يستمع إليها باستمتاعٍ فرح. فقد تخلَّت عن هُرائها حول الرسم التصويري والفن التقليدي. لقد صارت الآن فنانةً محافظة تتَّسم بالصراحة والأمانة. وعلى عكس النقَّاد الفنيين الذين كانت تستعير منهم عباراتها «المتحذلقة»، والذين يَعُدون «التشابه المحض» في صورة شخصية أمرًا غيرَ ذي أهمية تُذكَر، صارت تبحث عن التشابه دون سواه، بل إنها عندما شارفت اللوحةُ على بلوغ مرحلتها النهائية، كانت راضية عنها.

سألها فاندربوي بحماس وهما يقفان أمام اللوحة: «أترَين أنها تُشبهني يا لوتا؟ آمُل ذلك، لكن يبدو بها شيء من التزلُّف.»

قالت: «يا لك من أحمقَ ضئيل لا يعرف قيمة نفسه يا بيلي.» (كان طول بيلي دون حذائه أكثرَ من ستة أقدام بقليل.) «فأنت لا تُدرك كم أنت وسيم.»

تهلَّلت أساريرُه ونظر إليها بابتسامة إعجاب وقال: «عزيزتي، لديَّ استعداد دائم للتعلُّم، وبخاصة منك.»

قالت: «إذن، صدِّقني عندما أُخبرك بأن رجل القضاء الوسيم المرسوم في تلك الصورة هو نسخة مطابقة تمامًا من صديقي بيل، دون أي تملُّق. أليس كذلك يا توم؟»

أجابها: «أظن ذلك. لقد رسمتُه كما أراه ويراه أصدقاؤه، وآمُل أن أكون قد أوفيته حقه بإنصاف.»

أكَّد رأيَ توم واحدٌ من أصدقاء «بيل» الآخَرين، السيد بولتون على وجه التحديد، الذي كان يزوره من آنٍ لآخر، ويُتابع تطورات العمل بأشدِّ قدر من الاهتمام؛ نوع من الاهتمام الذي يُوليه شخصٌ لشيء يملكه؛ إذ تبيَّن، في الواقع، أنه كان وراء الاتفاق على رسم الصورة بعد تجرِبة الصور الفوتوغرافية ووُجدت أنها لا تَفي بالمراد (فالصور الفوتوغرافية لذوي البشرة الداكنة تجعلهم يبدون بلا أي جاذبية). وجاء التأكيد في مناسبة معينة تجمَّع فيها الأشخاص الأربعة المعنيُّون حول الصورة، التي كانت قد انتهَت عمليًّا الآن، يناقشون مزاياها.

قال السيد بولتون بنبرة المُحاضِر: «أرى أن فن الرسم أشبهُ بقوة خارقة. بالطبع أستطيع أن أرسم رسومات بمقياسٍ نسبي لأستخدمَها في عملي، لكنها تكون مجردَ رسوم

بيانية توضيحية. فهي لا تبدو كعناصر حقيقية؛ أما تلك الصورة، إن وقفتُ بعيدًا عنها قليلًا، ونظرتُ إليها وأغمضتُ إحدى عينَي، يُخيَّل لي أني أنظر حقًّا إلى السيد فاندربوي.»

وافقَته لوتا قائلة: «أجل، فهي صورة طبق الأصل؛ تكاد تبدو دقيقةً كصورة فوتوغرافية.»

قال بولتون معترضًا: «أستمحيك عذرًا يا سيدتي، لكنها تفوقها دقةً بكثير. فالمرء لا يُمكنه أن يصل إلى تلك النتيجة بالتصوير الفوتوغرافي.»

«لا أعني الألوانَ بالطبع، بل أعني تصوير الهيئة.»

قال بولتون مصرًّا على رأيه: «لكن يا سيدتي، تلك الصورة تحوي شيئًا أكثرَ من مجرد تصوير للهيئة؛ شيئًا لا يمكن للتصوير الفوتوغرافي أن يبلغه. لقد حاولتُ التقاط بضع صور للسيد فاندربوي عندما كنت أُعلِّمه فنيات التصوير، لكنها كانت قاصرة تمامًا. فقد بدت هيئته فيها مطابقة تمامًا للواقع؛ حتى إنها تصلح لاستخدامها في التعرُّف على هويته على أحسن وجه؛ لكن كان ثمة شيءٌ ما يُعوِزها، وذلك الشيء هو ما قد نُسميه الشخصية. وهذا بالضبط ما تُصوره الصورة الشخصية المرسومة؛ فهي تُصوِّر السيد فاندربوي برُوح شخصيته، بينما الصور الفوتوغرافية مجرد تصوير لهيئته.»

أومأ توم موافقًا. قال: «السيد بولتون مُحق. التصوير الفوتوغرافي يُمكنه أن يُخرِج صورةً طبق الأصل لعنصرٍ ما، كتمثال أو مبنًى لا يتغيَّر شكلُه دومًا. لكن الشخص الحقيقي يتبدَّل بين اللحظة والأخرى. الصورة الفوتوغرافية لا يسَعُها إلا أن تُظهر شكلَ الشخص في لحظة بعينها، لكن الصورة الشخصية المرسومة لا بدَّ أن يتغاضى رسامُها عن عوارضِ اللحظة، ويُفتش عن الشخصية الجوهرية الثابتة.»

بدَت تلك فكرةً جديدة تمامًا بالنسبة إلى لوتا؛ إذ صاحت مندهشة:

«حقًّا! لم يخطر لي ذلك من قبل أبدًا، وأنا آسفة جدًّا كذلك؛ إذ كنت أنوي أن أطلب من السيد بولتون التقاط صورة فوتوغرافية لبيل وهو في وضعية الرسم. لكن إن كانت الصورة الفوتوغرافية لن تُشبهه في الحقيقة، فلا أريدها. لكني أجد ذلك محبطًا جدًّا.»

قال بولتون: «لا داعي للإحباط يا سيدتي. فإن سمح لي السيد بيدلي بالتقاطِ صورةٍ للَّوحة، فسيكون لديكِ صورةٌ مرسومة بكل سمات اللوحة الأصلية عدا الألوان. ستكون نسخة مطابقة.»

تهلَّلَت أسارير لوتا وشكرت السيد بولتون بحرارة شديدة؛ حتى إنها أخبرَته، لدهشته الجمَّة، أنه ظريفٌ للغاية.

سألها بعد أن حصل على الإذن بالتصوير: «بأي حجمٍ تُريدين الصورة يا سيدتي؟»

أجابته: «أريدها صغيرة جدًّا، حتى أتمكَّن من وضعها داخل علبة صغيرة أستطيع حملها معي، أو ربما في دبوس زينة أو دلَّاية أستطيع ارتداءها. هل سيكون ذلك ممكنًا يا سيد بولتون؟»

«بالطبع يا سيدتي؛ لكن إن سمحتِ لي، الدبوس أو الدلاية ليسا مناسِبَين تمامًا لغرضك؛ لأنك عندما ترتدين أيًّا منهما ستكون الصورة ظاهرة للجميع عداك.»

ضحكت لوتا. قالت: «بالطبع، يا لي من غبية؛ وعرضُ الصورة الغالية للغرباء هو بالضبط ما لا أريده. لكن ماذا تقترح؟»

أجاب: «أعتقد أن القلادة المطوية القديمة الطِّراز ستكون الحلَّ الأفضل لمرادك.»

تدخَّل فاندربوي قائلًا: «قلادة مطوية! ما القلادة المطوية؟ عذرًا، لكني مجرَّد إفريقي بسيط جاهل.»

قال بولتون مفسرًا: «القلادة المطوية يا سيدي، هي نوع من الدلَّايات، عادة ما تكون مصنوعةً من الذهب، على هيئة عُلبة مسطحة صغيرة تنفتح بمفصل، وبداخلها إطاران صغيران. أحيانًا كان يوضع في كِلا الإطارَين صورة شخصية، لكن الأكثر شيوعًا هو وضع صورة في أحد الإطارَين، وفي الآخر خصلة من شعر الـ... الشخص المختار، مجدولة أو ملفوفة لفَّة صغيرة أو معقودة في شكل حلزوني مسطَّح.»

قَهْقَه فاندربوي بجذل. ثم قال: «تُعجبني فكرة القلادة المطوية تلك، لكني أخشى أنكم ستُواجهون مشقَّة في التعامل مع شعري.»

أجاب بولتون: «على الإطلاق يا سيدي؛ فكل خصلة من خصلات شعرك تتخذ بطبيعتها شكلًا حلزونيًّا يُشبه زنبركَ ساعةٍ صغيرًا. تلك إحدى سِمات العِرق الإفريقي. هل أريك؟»

أخرج من جيبه ملقط ساعاتي ومقصًّا قابلًا للطي، والتقطَ شعرةً من رأس فاندربوي، وقصَّها بعناية، ثم وضعَها على بطاقة بيضاء، ومرَّرها على الحاضرين لتفحصها.

صاحت لوتا بإعجاب: «يا لجمالِها! تبدو مثل زنبرك ساعة صغيرٍ كما قلت. أجل، قطعًا سأحصل على قلادة مطوية.»

قال بولتون مقترحًا: «إن وَدِدتِ إطالةَ الشكل الحلزوني، ليُصبِح ملءَ الإطار، يُمكنك القيام بذلك بسهولة باستخدام شعرتَين أو ثلاث.»

قالت معترضة: «لكن ذلك سيُفسدها، وهي جميلة جدًّا. كلا، أريد زنبركَ ساعة واحدًا صغيرًا مكتمِلًا في منتصف الفراغ. ألا تُوافقني الرأي يا بيل؟»

أجابها بابتسامة عريضة: «بالطبع يا عزيزتي، لا سيما أنها ستظهر سِمَة عِرْقية. لكن كيف ستحصلين على القِلادة المطوية؟ هل ما زالت تُباع في المتاجر؟»

«أعتقد ذلك. لكني لا أريد قلادة تُباع في متجر. ستكون مجردَ شيء بلا روح من صنع الآلات، لا يليق ببيل الحبيب وشعرته الجميلة التي تُشبه زنبرك الساعة. ماذا تقترح يا سيد بولتون؟ أظن أن بإمكانك أن تصنع لي قِلادةً بنفسك، أليس كذلك؟»

«بالطبع أستطيع صُنع قلادةٍ من الناحية التنفيذية. لكني لست صائغَ ذهب. أما التصميم، فلا بد أن يُنفذه فنان. إن وضَع السيد بيدلي تصميمًا لها، سأُنفذه لك بكل سرور.»

«أوه، ولكن ذلك لطفٌ منك يا سيد بولتون! أنت لطيف للغاية حقًّا. أظن أني أشَرت سابقًا إلى أنك ظريف جدًّا.»

أجاب بابتسامة ساخرة نوعًا ما: «أعتقد أنك فعلتِ يا سيدتي، وأنا أشكرك جزيلًا على تلك الـ... الـ... المجاملة.»

«لا داعيَ للشكر يا سيد بولتون. والآن يا توم، بخصوص تلك القلادة. هل بإمكانك تصميمُها؟»

أجاب: «أجل. لقد رسمتُ من قبلُ بعضَ التصاميم لأعمال أحد الصائغين، وتصميمُ قلادة بسيطة لن يكون صعبًا، وبخاصة أنني سأتعاون مع السيد بولتون. إن شئتِ، سأرسم لكِ بضع رسومات تجريبية لتطَّلعي عليها، ثم يُمكننا بعد ذلك أن نُناقش مسألة الزخارف التي ستُزينها.»

«أجل، سيكون ذلك لطفًا كبيرًا منك يا توم؛ ولا بد أن تُعلمني بالتكلفة.»

قال فاندربوي: «هذا ليس من شأنك يا لوتا. فستكون هدية منِّي.»

«هذا نبلٌ بالِغ منك يا بيل. بالطبع سيجعلها ذلك أثمنَ بكثير، وسأقبلها ممتنَّة بشرط واحد؛ أن تُصنَع لك قلادة أنت أيضًا، وأن تدَعني أُهديها إليك.»

سألها: «لكن الرجال لا يرتدُون القلائد، أليس كذلك؟»

قال توم: «كانوا يرتدونها قديمًا قبل ظهور ساعات اليد. كانت القِلادة عادةً تتدلَّى من سلسلة الساعة.»

قال فاندربوي: «حسنًا، كما ترون، أنا أحمل ساعةَ جيبٍ متصلةً بسلسلة؛ لأن ساعة اليد لا تُناسب المنطقة الاستوائية؛ لذا أنا أهلٌ للحصول على قلادة مطوية، وأود كثيرًا أن أقتنيَ واحدة بها صورةٌ شخصية للوتا وخصلةٌ من شعرها الذهبي الجميل. هل تَقبلان أيها السيدان بتلك المهمة؟»

أبدى السيدان موافقتهما، في حينِ اعترضَت لوتا قائلة:

«لكن تفويضهما بتلك المهمة ليس من شأنك. إنها من شأني أنا؛ فالقلادة ستكون هديةً مني.»

ابتسم فاندربوي بدماثة. ثم قال: «لقد عُرِضَت المهمة وقُبِلَت دون تحيُّز كما نقول في لغة القانون. أما تلك المسألة الأخرى فلها اعتبارٌ آخَر. والآن علينا أن نُرتب التفاصيل. أريد أن تتضمَّن القلادةُ صورة شخصية وخصلةَ شعر ذهبية. الشعر لن يُمثل صعوبة؛ فهو متوفِّر كما هو واضح. لكن ماذا عن الصورة؟ هل نطلب من السيد بولتون أن يصنع لنا صورة فوتوغرافية صغيرة؟»

صاحت لوتا قائلة: «كلا، وأنا مندهشة لك يا بيل؛ فقد سمعتَ لتوِّك ما قاله هذان الخبيران بشأن الصور الشخصية الفوتوغرافية. كلا، يجب أن تكون صورة مرسومة حقيقية. سأرسمها بنفسي، ثم سأطلب من السيد بولتون العزيز أن يلتقط صورة فوتوغرافية صغيرة للوحة، وأنا واثقة من أنه لن يرفض.»

قال بولتون: «قطعًا لن أرفض يا سيدتي. سيكون ذلك من دواعي سروري، وأرى أن تلك فكرةٌ رائعة للغاية. فستكون تَذكارًا مزدوجًا؛ صورة شخصية لصاحبةِ الهدية، وعيِّنة من صُنع يدها.»

غير أن فاندربوي كان أقلَّ حماسًا. (كان قد رأى «صُنْع يد صاحبة الهدية» دون بولتون.) فقال مقترحًا: «لم لا تَسمحين لي بإسناد مهمة رسم صورةٍ شخصية لك إلى السيد بيدلي.»

أجابته قائلة: «لن تفعلَ شيئًا من ذلك القبيل. القلادة ستكون هديتي إليك وأريد أن تكون الصورةُ الشخصية من صنع يدي.»

لم يَعُد ثَمة ما يُقال. بدا فاندربوي واجمًا بعض الشيء، وشعر توم — الذي لم تسمح له دماثةُ خُلقه أن يُبديَ أقلَّ قدر من التنذُّر — بالأسف. فقد لاحت في ذاكرته بوضوحٍ لوحةُ «السيدة العذراء» مُنذِرة بعقَبات مستقبلية وخيبةِ أمل للسيد فاندربوي. غير أنه لم يُعلِّق. فربما يفتح المستقبلُ بابًا ما للخروج من تلك المعضلة.

بعد بِضعة أيام، وفي الجلسة الأخيرة للرسم، وبعد إضافة بضع لمسات أخيرة لتكون الصورةُ قد اكتملت تمامًا، رافق توم صاحبَها إلى صانع الأطُر كي يُعينه في اختيار إطارٍ مُناسب. بعد أن فرَغا من ذلك الأمر، أخرج توم بضعةَ رسومات أوَّلية رسمها خلال الفترة الماضية تُظهِر تصاميمَ بديلةً للقِلادتَين. كانت القلادة المخصَّصة للصورة الشخصية التي تُصوره واقفًا بيضاوية طويلة نوعًا ما، بينما كانت الأخرى، التي ستُعلَّق في سلسلة ساعته، أصغرَ بدرجة ملحوظة ودائرية الشكل. كان كِلا الشكلَين كانا مرسومَين بعدَّة بدائلَ من التصاميم الزخرفية؛ بمعدِنٍ بسيط منقوش بارز، وبمِينا ملونة، وبأحجار كريمة.

قال توم: «إن كنتَ ستلتقي بالسيدة شيلر فقد يُمكنك أن تُطلِعَها على الرسوم الأولية، وتُناقشها معها، وإن اتفقتما على أن تكون القلادة الصغيرة بالشكل الدائري، فلتُذكِّرها بأن تُصمم صورتها الشخصية بحيث تملأ المساحة الدائرية بحيث لا يكون الرأس أصغرَ من اللازم.»

قال فاندربوي: «سأقابلها بعد نصف الساعة. سنتناول الغداء في مكان اكتشفتُه في سوهو؛ لذا سيكون لدينا فرصة لمناقشة التصاميم. لكني أعتقد أن كِلَينا سيُحب أن يستشيرك في الأمر.»

وافقه توم قائلًا: «أجل، ربما يكون خوضُ نقاش بسيطٍ مفيدًا؛ إذ إن الرسومات الأولية غيرُ واضحةِ التفاصيل. ربما بإمكاننا أن نلتقيَ نحن الأربعة في المرسم بعد أن تنتهيَ السيدة شيلر من رسم صورتها الشخصية، كي نُناقش الترتيبات النهائية.»

قال فاندربوي: «سأقترح عليها ذلك، وسأُبلغك والسيد بولتون عندما تكون الصورة الشخصية جاهزة.» ثم أسرَّ إليه قائلًا: «كنت أتمنى لو أنها وافقَت أن ترسمها أنت. فأسلوبُ عملها لا يبدو لي ملائمًا تمامًا لصورة شخصية؛ لكني بالطبع لستُ أهلًا للحكم. ما رأيك أنت؟»

كانت آراء توم بذلك الصدد قاطعة تمامًا؛ لكن إجابته كانت مُراوغة على نحوٍ رصين. «أنا لم أرَ من قبلُ صورة شخصية من رسمها؛ لذا لا يُمكنني أن أحكم، لكن لنأمُلِ الأفضل.»

بعد ذلك القول، وبُغيةَ تجنبِ الخوض في موضوع خطير؛ صافحَ فاندربوي بوُدٍّ ومضى كِلا الرجلَين في طريقِه.

حدثَت المقابلةُ بعد نحوِ أسبوع، وكان بولتون هو مَن حدد اليومَ والساعة، وقبل الموعد المحدَّد بقليل، حضر ذلك الحِرَفيُّ الماهر، وشرَع في عمله دون تأخير. أخرج مِن أحد

جيوبه العديدة الواسعة كاميرا صغيرةً قابلة للطيِّ، تبيَّن عندما فتحها أنها مجهَّزة بميزانِ استواء وإطار لتحديد المنظر.

قال: «لم أُحضر معي حاملًا لأني فكرتُ أن حامل الرسم سيكون أنسبَ وأكثرَ صلابة. هل بوُسعك إقراضي واحدًا؟»

أجابه توم: «أجل، لديَّ واحد شاغر ثقيلُ الوزن وله قضيبُ رفعٍ ملولب، سيَفي بغرضك على أكملِ وجه. إنه ثابتٌ كصخرة.»

سحبه من مكانه وجرَّه إلى موضع مُقابل للصورة، ثم تولَّى بولتون أمرَه، فوضع الكاميرا على منصته، ومستعينًا بإطارِ تحديد المنظر، ضبط موضع الكاميرا بالنسبة إلى الصورة حتى ملأَت تلك الأخيرةُ فراغَ الإطار بأكمله. ثم ضبط التعريض الضوئي، وكان يلفُّ الفيلم المتعرض عندما دوَّى صوتُ جرس المرسم معلنًا وصولَ الطرفَين الآخرَين للاجتماع. حيَّاهما بولتون بانحناءةِ رأس، لكن بدا له أنَّ مُحيا فاندربوي غاب عنه بَشاشتُه المعتادة؛ بل إن السيد الإفريقي بدا في الواقع متجهِّمًا بوضوح. على الجانب الآخر، كانت لوتا الحسناء المتقلِّبة المزاج في أسعد حالاتها، وبدَت في غاية الرضا والسعادة بنفسها.

صاحت لوتا وهي تدلف إلى المرسم بخطواتٍ متواثبة: «مرحى! ها هو السيد بولتون العزيز يستغلُّ الوقت مثل بطةٍ منضبِطة، وعلى أتم الاستعداد لبدء العمل.» وصافحَته بحرارة وتابعَت قائلة: «ويا لها من كاميرا صغيرة ظريفة! لكن أليست صغيرة بعضَ الشيء بالنسبة إلى تلك الصورة الكبيرة؟»

«ستكون الصورة الفوتوغرافية صغيرةً جدًّا يا سيدتي، كما تذكرين؛ لا يتجاوز ارتفاعُها بوصة ونصف البوصة.»

«أجل بالطبع. يا لي من غبية. هل ستلتقطُ الصورة الآن؟»

«لقد التقطتُها بالفعل يا سيدتي، وسيسُرني كثيرًا التقاطُ صورة للوحتك عندما تكون متاحة.»

قالت لوتا وهي تفتح حقيبة يدها وتُخرج منها مظروفًا أبعادُه حوالي ثماني بوصات في ستِّ بوصات: «إنها متاحة الآن. لقد صنعت لوحة صغيرة جدًّا كما ترى، لكنِّي أظن أن حجمها سيكون كافيًا.»

أجاب بولتون: «ذلك الحجمُ كافٍ جدًّا؛ إذ يجب تصغير الصورة كثيرًا.»

أخذ المظروف الذي ناولته إياه، وفتح طرَفه، وبحرصٍ أخرج لوحة صغيرة بالألوان المائية مثبَّتة على بطاقة، وهو ينظر إليها بابتسامة إجلال. خرجت وظهرُها إلى أعلى، لكنه

قلبها بسرعة، وحينها تلاشت الابتسامة من محيَّاه، ليحلَّ محلَّها الدهشةُ والفزع. لبضع لحظات، وقف متسمرًّا عاجزًا عن النطق، يُحدق في الشيء الذي يحمله في يده في ارتياب. ثم استرقَ نظرة إلى الفنانة، فاطمأنَّ عندما وجدها تُراقبه بابتسامة ماكرة. قال في نفسه إنها مزحة لا محالة، لكنه كان كَتومًا للغاية فلم يُفصِح عن ذلك. وقرَّر أن ينتظر ويدعَ الأمور تأخذ مجراها.

قالت لوتا: «حسنًا يا سيد بولتون، ما رأيك؟»

أجابها بابتسامة حذِرة: «بما أنك سألتني رأيي يا سيدتي، فأنا لا أظنُّ أنك أوفيتَ نفسَك حقَّها.»

سألته: «لكنك لم تكن لتُريدني أن أتملَّق نفسي، أليس كذلك؟»

أجاب: «أوه، كلا يا سيدتي. لكن لم يكن ثَمة داعٍ لذلك. فما كان عليكِ سوى أن تُصوِّري نفسك كما أنت بالضبط لتصنعي صورة شخصية بديعة.»

ضحكت لوتا بابتهاج. «شكرًا لك يا سيد بولتون على تلك المجاملة المُنمَّقة.»

تدخَّل فاندربوي قائلًا: «تلك ليست مُجاملة على الإطلاق. إنَّ السيد بولتون مُحِق تمامًا. ما أردته هو صورة تُشبهك، لكن تلك الصورة لا تُشبهك على الإطلاق. ما كنت لأعرفَها قط. ما رأيك يا سيد بيدلي؟» لكن توم، الذي كان يتطلَّع إلى الصورة من خلف كتف بولتون، ضاهى ذلك الأخير في حذره.

قال: «بالطبع، هي ليست تصويرًا بالمعنى الحرفي. لكن ذلك لم يكن القصدَ منها.»

وافقَته لوتا قائلةً: «بالضبط! فالتشابهُ الجسدي لم يكن هو مَقصَدي. فتلك الصورة الشخصية ليست فنًّا تصويريًّا. إنها عمل فني يُعبر عن الذات.»

استمرَّ الجدال الدائر بين لوتا وفاندربوي لبعض الوقت، واعتراه شيءٌ من الحدة، ناهيك عن المرارة. لكنه لم يُفضِ إلى شيء. فلم تتزعزع لوتا عن موقفها، واضطُرَّ فاندربوي في النهاية إلى التراجع منهزمًا. في تلك الأثناء، وبعد أن أدرك بولتون مذهولًا أن ذلك الشيء غيرَ المعقول يجب أن يُؤخَذ بجِدية، أخذه بجدية، ودون أيِّ تعليق آخَر، علَّقه على الحامل بجوار الصورة الشخصية الأخرى وشرعَ يلتقط الصورة بجدية. بعد أن انتهى وأعاد الصورةَ إلى صانعتها، أُخرِجت الرسوم الأولية للقلادتَين ونُوقشت باستفاضة؛ وكانت النتيجة التي تمَّ التوصُّل إليها هي أن كِلتا القلادتَين ستُزيَّنان بتصميم بسيط مطعم بالمينا، على أن تُترَك التفاصيل للمصمم والمنفِّذ.

قالت لوتا وهي تدسُّ «صورتها الشخصية» في حقيبة يدها: «هذا كل شيء على ما يبدو.»

قال بولتون مُذكِّرًا إياها: «عدا خصلتَي الشعر يا سيدتي. إن سمحتما لي بأخذ عينة من الشعر لكلتا القلادتَين، فسأتمكَّن من متابعة العمل دون أن أُزعجكما مرةً أخرى.»

من جيوبه التي لا تنضب، أخرج ظرفَي بذور وملقطًا ومِقصًّا قابلًا للطيِّ، ووضعهم جميعًا على الطاولة. بدأ بفاندربوي، ففصل إحدى خصلات شعرِه الشديدة التجعُّد، وقصَّها من منبتها، ثم وضعها على الفور داخل أحدِ الظرفَين، وكتب عليه بعد أن أحكم غلقه «السيد دبليو فاندربوي».

راقبَته لوتا وعلى وجهها ابتسامة، وأثنَت على حرصه.

«سيكون الأمر مربكًا بعض الشيء إن احتفظت معك بظرفَين غير معنونَين، فلا تستطيع التمييز بينهما. والآن، ما مقدار ما تُريد من شعري؟ أرجوك ألا تُغالي. فلا يُمكن أن أدعَك تترك لي رُقعة خاليةً من الشعر.»

قال بولتون مطمئِنًا إياها: «قطعًا لا يا سيدتي. اثنتا عَشْرة شعرةً ستكفي، ولن تُلاحظي غيابها أبدًا.»

وعلى سبيل التأكيد، عدَّها واحدة واحدة، ثم جمع الخصلة الصغيرة وقصَّها بالقرب من منبتِها. بعد أن برَم الخصلة صانعًا منها خيطًا مبرومًا بغير إحكام، لفَّها بعناية ووضعها في المظروف، ثم أغلقه وكتب عليه «السيدة لوتا شيلر».

بهذا انتهَت الإجراءات، وبعد أن وضع بولتون المظروفَين الثمينَين في محفظة جلدية متينة، ودسَّ تلك الأخيرة في جيب داخلي فضفاض، نهضت لوتا والسيد فاندربوي معًا كي يستأذنا للرحيل، وبعد أن صافحا السيد بولتون، اصطحبهما مُضيفهما إلى الخارج.

عندما عاد الأخير للمَرسم، وجدَ شريكه جالسًا لقاءَ الساعة ينظر إليها بتركيز شديد على ما يبدو. التفتَ عندما دخل توم، وحدَّق فيه قاطبًا حاجبَيه، وصاح في جدِّية:

«ذلك أمرٌ من أغرب ما يكون يا سيدي.»

سأله توم وهو ينظر إلى الساعة دون أن يرى فيها أيَّ شيء غير عادي: «أيُّ أمر؟»

«أقصد تلك الصورة الشخصية للسيدة شيلر يا سيدي. أنا مذهول للغاية. في البداية افترضتُ أنها مُزحة.»

ابتسم توم وعقَّب قائلًا: «لكن فاندربوي لم يَفترض ذلك.»

«قطعًا لم يفعل. لكن، هل تفهم الأمر يا سيدي؟ لقد بدَت لي بالضبط كتلك الصور الشخصية التي كنت أرسمها أنا وغيري من الأطفال حين كنت في العاشرة. لكني أظنُّ أني مخطئ حتمًا. هل أنا مُخطئ يا سيدي؟»

أجابه توم: «كلا، أنت مُحق تمامًا.»

قال بولتون معترضًا: «لكن السيدة شيلر رسَّامة مُحترِفة حسَبما فهمت. هل تُجيد الرسم بالرَّصاص أو الألوان حقًّا؟»

«إن أردتَ رأيي يا بولتون، فسأقول لك إنها لا تستطيعه. هي ترسم بتلك الطريقة لأنها لا تُجيد غيرها.»

«ولكنه أمر عجيب يا سيدي. إن لم يكن باستطاعتها الرسمُ بالرصاص أو بالألوان، فكيف تتمكَّن من مُمارسة مهنة الرسم؟»

أجابه توم: «لا أعرف إن كان يصحُّ وصفُها بممتهِنةٍ للفن. فهي لم تَبِع أيًّا من أعمالها أو تَعرِض أيًّا منها من قبلُ. وعادةً ما يعني المرء بعبارة «مُمتهِن للفن» فنانًا يكسب عيشَه من أعماله. مع ذلك، ثَمة رسَّامون أعمالُهم ليست بأفضلَ من أعمالها يعرضونها بل ويبيعونها. بإمكانك أن ترى أعمالهم في المعارِض الفنية الغريبةِ الأطوار العديدة التي تُقام من حينٍ لآخر في لندن. تلك هي الوسيلة التي تَستوحي بها السيدةُ شيلر أفكارَها. لقد ذهبَت إلى أحد تلك المعارض الغريبة التي يُروِّج لها الصحفيُّون الفنيون، وخطَر لها أن تلك الأعمال تبدو سهلةَ التنفيذ لدرجة أنها قرَّرت أن ترى ما إذا كانت تستطيع الإتيان بمثلِها. فحاولَت، ووجدَت أنها تستطيع ذلك. وهذا أمر طبيعي. فأيُّ شخص يستطيع ذلك؛ حتى إن كان طفلًا، بل حتى بعض الأطفال يُمكنهم الإتيانُ بأفضلَ منه بكثير.»

«لكن هل ثَمة من يأخذ تلك الأعمالَ على محمل الجِد؟»

صاح توم: «على محمل الجد! عزيزي بولتون، عليك أن تقرأ ملاحظاتِ النقاد الفنيِّين عليها، وتُشاهد أولئك الأغبياءَ الذين يودُّون أن يعتقدهم الناس «رفيعي الثقافة» وهم محتشدون في تلك المعارض الفنية، يُحدقون فيما يحسَبونه أحدثَ ابتكارات الفن التقدمي فاغرين أفواهَهم. لكن إحقاقًا للحق، هم نادرًا ما يشترون أيًّا من تلك الأعمال.»

«وماذا عن الفنانين الذين يصنعونها يا سيدي؛ هل هم مُدَّعون أم مجرد أشخاص مهووسين؟»

أجابه توم: «من الصعب تحديدُ ذلك. لقد كان الفنانون الحداثيون الأوائلُ لديهم هوَسٌ بَحْت، بل إن بعضهم كانوا مختلِّين عقليًّا بلا أدنى شك. لكن في وقتنا الحاليِّ

يستحيل الحكم. أتدري يا بولتون، مُضرَّة ذلك هي أنك بمجرد أن تتقبَّل أعمالًا رديئة طفولية همجية باعتبارها أعمالًا فنِّية أصيلة، فأنت بذلك تفتحُ الباب على مِصراعَيه أمام المدَّعين.»

«وماذا عن السيدة شيلر يا سيدي؟»

«حسنًا، لقد قابلتَها بنفسك يا بولتون. هي قطعًا ليست مختلَّة، وقطعًا لا تُجيد الرسم؛ وانطباعي هو أنها تُدرِك ذلك كما نُدركه أنا وأنت. أما دافعها للاستمرار في الادِّعاء، فلا يعرفه سواها.»

تأملَ بولتون في هذه الإجابة لبرهة؛ ثم طرح سؤالًا آخر.

«أنا في حيرة يا سيدي بشأن علاقتها بالسيد فاندربوي. فهي كما فهمتَ امرأةٌ متزوِّجة؛ لذا فتلك العلاقة ليست لائقةً بأيِّ حال من الأحوال. لكنِّي أشعر أنَّ ثمة أمرًا غيرَ حقيقي بشأنهما. يُخيَّل للمرء من تصرفاتهما أنهما صديقان مقرَّبان، إن لم يكونا حبيبَين بالفعل، وأنا مُتيقِّن أن ذلك هو شعور السيد فاندربوي حقيقة. لكن لديَّ شكوكي بشأن السيدة؛ وإن كانت مدَّعية في جانبٍ ما، فبوُسعِها أن تكون كذلك في غيره. لكني مثلك؛ لا أستطيع تصوُّر دافعٍ للاحتيال. بالطبع السيد فاندربوي رجل ثري، لكنِّي بطريقةٍ ما، لا أشكُّ في أنها تُحاوِل انتزاع أيِّ أموال منه. ولكن لا يُمكنني التوصلُ إلى أي دافع آخَر. حقيقة، أنا لا أفهم الأمر برُمَّته.»

سأله توم: «هل ثمة داعٍ لفهمه؟ إنه ليس من شأننا كما تعلم.»

«ليس ثمةَ داعٍ عدا أن السيد فاندربوي صديقي، وهو رجل غاية في الاحترام وجديرٌ بالحب. لا أحب له أن يَنخرطَ في أي مُنغِّصات.»

وافقه توم قائلًا: «أنت مُحق تمامًا يا بولتون، لكنِّي لا أرى أن بوُسعك أيَّ شيء عدا مراقبتهما بعينٍ متحفِّظة؛ وهذا ما يبدو أنك تفعلُه بالفعل.»

بتلك الملاحظة، انتهى النقاش، ونقَل طرَفاه اهتمامَهما إلى الرسومات الأولية والتباحثِ بشأن التفاصيل الفنِّية المتعلقة بفنِّ صياغة الذهب.

الفصل السادس

غابة إسيكس

في مساء أحد الأيام في مطلع شهر نوفمبر، وضع توم بيدلي حاملَ لوحاته أرضًا كي يُحرر إحدى يدَيه، ثم وضع مفتاحه في قُفل البوابة ودفعها ليفتحها. ثمَّ كعادته دومًا، دس المفتاح في جيبه قبل أن يدخل؛ وبينما كان يفعل ذلك، صادف أنْ وقع بصرَه على نهاية الشارع، فرأى لوتا شيلر وصديقُها بيلي يدلفان إلى الشارع ويسيران باتجاهِه. لم يكن قد رأى أيًّا منهما منذ أسبوعَين؛ منذ أن شحن صانع الأطُر الصورة الشخصية، وسُلِّمت القلادتان إلى صاحبَيها المعْنيَّين. لذا رأى أن مِن اللائق أن يتوقف أمام البوابة المفتوحة كي يُبادلهما التحية، لا سيما أنهما رأياه بالفعل وبيَّنا له ذلك.

صاحت لوتا بحماس عندما التقيا عند مدخل البوابة: «أين كنت طوال ذلك الوقت يا توم؟ لم أرَك منذ وقت طويل.»

قال توم: «لم أكن مُستقرًّا في مكان واحد طوال الوقت. اليوم كنت في غابة إيبنج. كنتُ أرسم المناظر الطبيعية قليلًا من باب التغيير بعد الصورة الشخصية.»

قالت لوتا مكررة: «غابة إيبنج! كم هذا مبهج! لم أذهب من قبل إلى غابة إيبنج. هل بوُسعنا أن ندخل ونُلقِي نظرة على ما رسمته؟»

قال توم مُرحِّبًا بحماس: «بكل تأكيد. الصورة لم تكتمل بعد، لكنها ستَمنحُكما فكرة عامة عن طبيعة المكان.»

دخلوا معًا، وبعد أن أخرج توم لوحته من حاملها، نصبها على حاملٍ موضوع بزاوية مقابلة للنافذة الكبيرة.

قال: «الإضاءة ليست جيدةً للدرجة، لكن بوُسعكما أن تَرَيا طبيعة الغابة.»

صاحت في حماس: «أجل، فعلًا، إنها جميلة جدًّا. تبدو كغابة حقيقية.»

قال توم: «هي بالفعل غابة حقيقية. إنها البقية الباقية من غابات بريطانيا البدائية؛ وما زال جزءٌ كبير منها باقيًا.»

«يا له من أمر مثير! غابة بدائية! هل رأيت غابة بدائية قبلًا يا بيل؟»

قال فاندربوي: «أجل، رأيت الغابة العظيمة التي تُغطِّي أشانتي، وتبدو شبيهة بتلك المرسومةِ في اللوحة. أشجار الغابة الإفريقية أكثرُ ارتفاعًا بكثير من تلك، لكن يصعب الجزم من صورة.»

قال توم: «بل يكاد يكون مُستحيلًا دون أشخاص أو حيوانات تمنحها مدًى. أُفكر في إضافة أيِّل أو اثنَين.»

سألت لوتا: «لكن ليس ثَمة آيائلُ في الحقيقة، أليس كذلك؟»

أجابها: «بلى، باركَكِ الرب. ثمة آيائلُ وثعالبُ وأغرة، وجميع أنواع الحيوانات البرِّية. إنها غابة حقيقية، لا مجرد منتزَه. وثمة معسكَران بريطانيان قديمان أيضًا، أمرُّ بأحدهما في طريقي إلى مكمني حيث أرسم.»

قالت لوتا: «يبدو لي مكانًا ساحرًا! ولا أتخيَّل أني لم أرَه مع قربه الشديد من لندن. سيكون من الممتع قضاءُ يوم هناك. ألا تعتقد ذلك يا بيل؟»

وافقها بيل بحماس كما يفعل مع جميع مقترحاتها في العادة.

«اتفقنا إذن. سنقضي يومًا نتجوَّل بالغابة ونتنزَّه بها، وتوم سيُرينا الطريق. أوه، لا داعي لذلك التجهُّم. فلن نبقى معك ونُعطِّلك عن العمل.»

قال توم مُعترضًا: «أنا لم أتجهَّم. سيكون من دواعي سروري أن أُريَكما الطريق إلى هناك وأضعَكما على نقطة الانطلاق إلى جولتكما. ستكون لوحتي جاهزة في غضون ثلاثة أو أربعة أيام؛ لنقُل الخميس القادم. هل يُناسبُكما ذلك؟»

أجابت: «يناسبني تمامًا»، وبعد أن وافقها بيل أضافت: «أعتقد أن علينا أن نأخُذ بعض الطعام معنا. كيف تتدبَّر أمر الطعام يا توم؟»

«آخذ غدائي معي، لكن ذلك ليس ضروريًّا. فهناك نُزل ممتاز بالقرب من هاي بيتش يُدعى «كينجز أوك»، حيث يُمكنُكما الحصولُ على كل ما يشتهيه الرجال والحيوانات من طعام ومرطبات.»

قالت لوتا: «أنا لا أحب ذلك التعبير تمامًا؛ فأحدُنا فقط رجل. لكن لا يهمُّ. لنضع ترتيباتِنا الآن. أعتقد أن من الأفضل أن نَلتقيَ وننطلق من هنا؛ فأنا أسكن هنا بالفعل وبيل ليس من سكان لندن. حدِّد لنا موعدًا، وسنَنطلق معًا ثم نتركك في سلام.»

اقترح توم الساعة التاسعة صباح الخميس، وبعد أن اتفقُوا على ذلك، غادر زائراه؛ عندئذٍ، بعد أن نظَّف لوحة ألوانِه وغسل فرشَه، واغتسل، شرع في إعداد المائدة — وكان من ضمنِ ما فُرش عليها القدح الفريد الذي أهداه له بولتون — وفتح صندوق حفظ الأطعمة الدافئة، وجلس يتناول وجبته المسائية برضًا عميق.

في الوقت المحدد صباح الخميس، وصل المتجولان إلى مكان اللقاء، وبعد بضع دقائق، انطلق ثلاثتهم متجِهين إلى شارع فينتشيرش، وكان فاندربوي يحمل الكرسي والحامل المربوطَين معًا. كان من السهلِ الحصولُ على مقصورة شاغرة بالدرجة الأولى في هذا الوقت من اليوم، فحجزُوا واحدة، وبعد أن وضَعوا عتادَ توم على رفِّ القبَّعات، أشعلوا الغليون والسجائرَ واستعدُّوا للاستمتاع بالرحلة. وكانت رحلة مُمتعة بحقٍّ (باستثناء توقُّفهم في محطة ستراتفورد، حينما تصاعدَت أبخِرة كريهةُ الرائحة من أحد مصانع المواد الكيميائية وتسرَبت إلى داخل المقصورة وجعلتهم يُسارعون إلى إغلاق زجاج النافذة). كان لوتا في حالةٍ من المرح والتفاؤل وكانت تُثرثر بمرح بين نفثات سيجارتها، فيما دخن الرجلان غليونَيهما وتركاها تُسليهما.

عقَّبَت قائلة حينما كان القطار يتحرَّك من محطة وودفورد: «إنني أعتبرك ضعيفَ الملاحظة لدرجةٍ استثنائية بالنسبة إلى كونك رسامًا يا توم. فأنت لم تُلاحظ قِلادتي الجديدة الجميلة.»

في الواقع، كان قد لاحظها، ورأى أنها غيرُ ملائمة بعضَ الشيء لتلك المناسَبة.

قال: «أنت مخطئة تمامًا يا لوتا. فعيناي لم تُغادِراها منذ أن انطلَقنا، وكنت أقول في نفسي لا بدَّ أن من صمَّمها عبقري فذ.»

قالت، وهي تنتقي سيجارةً جديدة من علبة سجائرها: «أسمعتَ ذلك يا بيل؟ أليس مغرورًا ذلك الرجل؟ يُحاول اقتناص إطراءٍ بصفاقةِ وجه؛ لكنه لن يَحصل عليه.»

رد توم: «كنتُ أعلم ذلك؛ لذا أطريت أنا على نفسي. لكنها حقًّا تبدو جميلةً جدًّا، بفضل تنفيذ بولتون البارع لها.»

ضحكَت لوتا باستهزاء. «ها هو يتصنَّع التواضُعَ الآن. لكن لا فائدة من ذلك يا توم. فنحن نعرفك. لكنِّي مع ذلك أتفق معك أن الرجل اللطيف قد أدى دوره على نحوٍ رائع، وأنا مُمتنَّة لكِلَيكما، فضلًا عن مانح الهدية الكريم.»

هنا توجهَت بابتسامة ودودة إلى فاندربوي المُنتشي، الذي بدوره ابتسمَ ابتسامة هي أوسعُ ما يستطيعها رجلٌ يملك تلك الأسنانَ المهيبة. تلا ذلك استراحةٌ قصيرة من ثرثرة

لوتا فيما كانت تُشعِل سيجارتها الجديدة وتُدخِّنُها. بعد بضع دقائق، أبطأ القطار، فأنزل توم عَتاده من الرفِّ ووضع حزام الحقيبة حول كتفه، ثم قال:

«تلك هي محطَّتنا.» ثم همَّ بفتح الباب.

عندما توقف القطار، حمل فاندربوي مرة أخرى عن توم الحامل المطوي، وترجَّل ثلاثتُهم إلى رصيف المحطة. بعد أن خرَجوا من المحطَّة، ساروا في الشارع الريفيِّ الكئيب نوعًا ما حتى وصَلوا إلى بِركة مياه كبيرة على حافَّة الغابة. هنا انعطف توم إلى درب يمرُّ بمحاذاة البِركة، وبعد قليلٍ وصَلوا إلى طريق عريض أخضرَ غير معبَّد. بعد أن ساروا مسافة قصيرة عبر ذلك الطريق، انعطَفوا إلى طريق ضيق أخضرَ غيرِ معبَّد على يسارهم، يُؤدي صعودًا إلى منحدرٍ بسيط، ثم نزولًا إلى طرَفِ وادٍ صغير، يُغطي قاعَه المُستنقعيَّ مراقدُ من العشب المائي.

قال توم: «هذا الوادي يُدعى ديبدن سليد. يُستحسَن أن تتذكَّرا الاسم حالَ احتجتُما إلى السؤال عن الطريق. هذا الدَّرب — الذي يُطلِقُون عليه في الغابة طريقًا أخضرَ — يُؤدي كما ترَيان إلى أعلى التلِّ ومباشرةً إلى طرَف الحصن البريطاني القديم الذي يُدعى معسكر لوتون، ويمر بجانبَين منه.»

قالت لوتا مُشترِطة: «لكنك ستُرينا الطريق إليه.»

«أجل، سأُرافقكما حتى المعسكر، ثم بعد أن ترَياه، سأضعكُما على طريقكما قبل أن نفترق.»

قال فاندربوي: «هل تعرف طريقك جيدًا في تلك الغابة؟»

أجابه توم: «أجل، لقد رسمتُ كثيرًا هنا في الأعوام القليلة الأخيرة. من السهل جدًّا أن تجد طريقك عبرَ الغابة بعد القليل من التجرِبة، لكن في البداية كنتُ أُحضر معي دائمًا خريطة ذاتَ مقياس كبير وبوصلة. ذلك الذي نقترب منه هو المعسكَر؛ الجانب الجنوبي منه. سندور حوله إلى الجهة الشمالية الغربية، وهناك سيَذهب كلٌّ منا في طريق.»

قالت لوتا وهي تنظر بشرود إلى الغابة الكثيفة التي بدَت أنها تُمثل النهايةَ للدرب الأخضر وهم يصعدون: «لكني لا أرى أيَّ معسكر. لا أرى سوى تبَّة مرتفعة تكسوها كتلةٌ من الأشجار القصيرة الغريبةِ الشكل التي تبدو وكأنها بحاجةٍ إلى التقليم.»

أقر توم قائلًا: «إنه لا يظهر بوضوح إلا على الخريطة. لكن لا تَنسَيْ أنه بُنِي منذ ألفَين أو ثلاثة آلاف عام أو يزيد، وأنه غير مأهول ربما منذ الغزوِ الروماني. وطوال تلك القرون، نمَت الغابة عليه، وغطَّته نوعًا ما. لكن يُمكنك تبيِّنُه جيدًا إن صعدتِ التبة عبر

الأشجار، ثم نزلتِ داخل حدوده. حينها سترَين أنه ثمَّة مساحة لها أربعة جوانب يُحيط بها أسوار طينية أو متاريسُ مرتفعة. لكن لأنها مكسوَّة بالكامل بكتلة كثيفة من تلك الأشجار الصغيرة، فلن ترَي منها إلا جزءًا بسيطًا في كل مرة.

سألَت لوتا: «لكن لِمَ الأشجار صغيرة إلى ذلك الحد؟» لا يبدو أن ثمة شجرةً واحدة مُكتملةَ النمو بينها، رغم أنها كان لديها ما يكفي من الوقت للنموِّ حسَبما يتبين مما تقول.»

قال توم: «هي ليست أشجارًا يافعة، بل أشجار قديمة مُتقزِّمة. أهل تلك الضَّيعة الإقطاعية كان لهم حق تقطيع الأشجار وتقليمها. وبهذا كانت جميع الأشجار عندما تنمو، تشذب أطرافها، وكلَّ عام، كانت الأغصان الجديدة التي تنبثق من قمتها تُقطَع لاستخدامها حطبًا، ونتيجةً لذلك الْتوَتْ تلك الأشجار وتوقَّف نموها. إن مظهرَها مدهش نوعًا ما، لكنها ليست جميلة للدرجة.»

وافقَته لوتا قائلة: «أجل، مدهش هي الكلمة المناسبة. إنها تبدو كساحرات ضئيلات الجسد شعورُهن بارزةٌ لأعلى. لكن المكان برُمته غريب ومهيب نوعًا ما، خاصة عندما يفكر المرء بالبريطانيِّين القدامى الراحلين والقرون التي مرت على ذلك المعسكر مهجورًا منسيًّا. أظن أن تلك الثقوب في التبَّة صنعها نوعٌ ما من الحيوانات.»

«أجل. الثقوب الصغيرة عادةً تكون جحورَ أرانب؛ أما الكبيرة فهي أوجار للثعالب.»

أثناء حديثهم، كانوا يسيرون على مهل عبر الدرب الأخضر تحت الظلال الكثيفة التي تُلقيها أشجار الزان المشذبة التي تكسو التبة المرتفعة للمتراس القديم. بعد قليل، انعطفوا عند جانب المعسكر ومرُّوا بمُحاذاة جانبه الشمالي الغربي، حتى وصلوا إلى مساحة أكثرَ انكشافًا حيث اتسع جانبا الطريق الأخضر وانعطف بجِدَّة تجاه اليسار، فيما امتد أمامهم دربٌ أضيق. وعند نقطة تفرُّع الدربَين، توقف توم ومد يده ليأخُذ الحامل الذي كان فاندربوي لا يزال يَحمله.

قال: «هنا نَفترق. فأنا سأسلك ذلك الدربَ الأخضر الضيق إلى غابة جريت مونك، وهي تبعد حوالي ثلاثة أرباع الميل عن هنا. وأنتما ستَسلُكان الطريق الأخضرَ غير المعبَّد عبر سفح التلَّة؛ وهي تمشيةٌ مُمتعة ترَيان فيها منظرًا بديعًا طوال الطريق.»

قالت لوتا وهي تتطلَّع إلى الغابة المفتوحة التي تمتدُّ من أسفل التلة: «أجل، إنه منظر بديع حقًّا؛ يبدو أنه شعور مريح أن يكون المرء في العَراء، بعيدًا عن المعسكر القديم الكئيب وتلك الأشجار المريعة القصيرة ذات الشكل الغريب. لكنِّي بطريقة ما، أشعر

بانبهار غريب بذلك الحِصن القديم. أودُّ أن أدخل إلى ما وراء أسواره لأرى كيف كانت المعسكرات البريطانية تبدو في الحقيقة. ألا تودُّ أن تستكشفه يا بيل؟»

أبدى بيل الوَدودُ والمجامل رغبةً قوية في استكشاف المعسكر واهتمامًا عميقًا بالبريطانيين القدامى وأعمالهم.

قال توم: «لكن لا يُمكنُكما استكشافُه اليوم؛ لأنكما ستَحتاجان إلى خريطة وبوصلة، وينبغي أن يكون معكما نسخة من المخطَّط الذي رُسِم عندما أجرى نادي إسيكس الميداني مسحًا للمعسكر. لديَّ واحدة أحتفظ بها في مكان ما؛ لذا إن كنتما تنويان القيامَ برحلة استكشافية جدية، يُمكنني إقراضُكما إياها ومعها خريطة للغابة وبوصلة. لكن الآن، من الأفضل أن تتمشيا إلى هاي بيتش وتحفَظا طريقكما.»

وافقه فاندربوي قائلًا: «أجل، سيكون ذلك أفضل، بخاصة أننا لم نُحضر معنا أيَّ مرطبات، كما أنك ذكرت أن ثمة نُزُلًا في هاي بيتش يُمكنُنا أن نحصل منه على طعام للغداء. لكننا سنَحتاج منك إلى أن تُرشدنا إلى الطريق.»

أجابه توم: «الطريق سهل جدًّا. أترى أجمة أشجار الدردار البعيدة تلك؟»

«أرى أجمة أشجار وفهمت من كلامك أنها أشجار دردار.»

«حسنًا، إنها تقع في هاي بيتش؛ لذا إذا جعَلتُماها نُصب عينَيكما، فلن تضلَّا الطريق قط. عليكما أن تسلكا ذلك الطريق الأخضر غير المعبَّد حتى سفحِ التلَّة. بعد حوالي نصف ميل من هنا، ستجتازان طريق إيبنج، وبعدها بنصف ميل آخر ستصلان إلى طريق أخضر يتعامد على ذلك الطريق. انعطِفا يسارًا واسلُكاه، وسيُوصِّلكما إلى نُزُل كينجز أوك؛ حيث يُمكنكما التزودُ بالطعام إن أردتُما. تبعد هاي بيتش عن النزل بضعَ دقائق سيرًا على الطريق نفسه. ها قد صرتما تعرفان كلَّ شيء.»

وضع الحامل وحامل اللوحة على العشب وصافح المتجوِّلان مودِّعًا إياهما متمنِّيًا لهما رحلة سعيدة. ابتسمت لوتا بمكرٍ وهي تُصافحه وعقبَت قائلة لرفيقها:

«هذا يعني أنه اكتفى من رفقتنا؛ لذا من الأفضل أن نُغادر؟ هيا بنا يا بيل.»

استدار الرفيقان لينطلقا في مسيرهما، لكن توم لم يستأنف رحلتَه على الفور. كانت يداه فارغتَين، فاستغل تلك الفرصةَ لملء غليونه على مهل. لكن بعد أن ملأه وصار جاهزًا لإشعاله، ظل واقفًا عند مفترق الطرق، يُتابع بعينَين متأملتَين تَقدُّمَ المغامرين وهما يسيران في الطريق الأخضر العريض غيرِ المعبد بخُطًى سريعة. تبادَر إلى ذهنه مرةً أخرى سؤال بولتون. ما طبيعة العلاقة التي تربط بين هذَين الشخصَين؟ كان أسلوبهما أشبهَ

بخطيبَين، غير أنهما ليسا كذلك بالتأكيد؛ لكن هل هما حبيبَين أم مجرَّد صديقَين؟ في حالته هو، كان سلوك لوتا لا يحيد عن الانضباط، فيما عدا مُلاطفاتها الشفهية. صحيحٌ أنه لم يفتح الباب لأيِّ شيء آخر، لكن تظلُّ الحقيقة هي أنها لم تبذل أيَّ محاولة قط للتقرُّب إليه. هل كانت لعلاقتها بفاندربوي الطبيعة الأفلاطونية نفسها؟ بدا له ذلك أمرًا محلَّ شك؛ نظرًا إلى اختلاف الظروف. فلم يكن فاندربوي رافضًا لأن يكون طرَفًا في تلك العلاقة القوية. فقد كان مُعجبًا متيمًا بلوتا منذ البداية؛ ولكن لا يفصل الإعجابَ عن الحب إلا خطوةٌ صغيرة؛ والحب في حالتهما سيقود إلى كارثة حتمية لا مفر.

هكذا فكَّر توم وهو يقف متطلعًا إليهما وهما يبتعدان. في الشهور التالية، تبادر ذلك المشهد كثيرًا في ذاكرته؛ مشهد الطريق الطويل المستقيم المُعشوشِب، وهيئتَي الرجل والمرأة وهما يسيران بمرح ويبتعدان حتى تضاءلت هيئتاهما. ولكنه ظلَّ يُتابعهما بعينيه باهتمام لم يعرف له تفسيرًا، حتى بلغا نقطةً ينعطف عندها الطريق؛ وعندها نظرت لوتا خلفها لتجدَه لا يزال واقفًا في مكانه، فلوحَت بيدها إليه، ورفع فاندربوي قبعته تحيةً له. بادلهما توم تحيةَ الوداع، وبعد بضع لحظات، سلَكا المنعطف وتواريا خلف شُجيرات القائمة على جانب الطريق؛ حينها أشعل غليونه وحمل عتاده، وانطلق عبر الطريق الأخضر الضيق غير المعبَّد متجهًا إلى مَكمنِه في غابة جريت مونك.

كان قد قال لنفسه، ولبولتون، إنَّ طبيعة علاقة لوتا بصديقه الإفريقي ليست من شأنهما. وكانت كذلك بالفعل. ومع ذلك، بينما كان يسير في المسار الضيق عبر الغابة الساكنة المُنعزلة، ظلت المسألة تُؤرق ذهنه؛ خاصة ما يتعلَّق بمآل الأمر. فلم يكُن يُضمِر لأيِّهما — وإلى لوتا قطعًا — أيَّ مشاعرَ شخصية قوية؛ لكنه كان رجلًا طيب القلب، وشق عليه أن يُفكر في أنهما يسيران نحو الهاوية كما يخشى. كان قلقه بالأخصِّ على فاندربوي؛ فكونه إفريقيًّا، مرهفًا ومندفعًا على الأرجح، وغير عليم بأساليب الأوروبيين، يجعله أكثرَ عُرضة للزجِّ بنفسه في مشكلات، وتحمل وطأة أيِّ تبعات وخيمة. فقد كان محاميًا ذا مكانة ينبغي أن يُحافظ عليها ومستقبل ينبغي وضعُه بالاعتبار. سيكون من المحزن أن يتورَّط في فضيحة وهو لا يزال في بداية مسيرته العملية.

عند تلك النقطة في تأمُّلاته، كان قد وصل إلى مدخل الغابة موضوعِ لوحته. فوضع أحماله، وخلع عنه حقيبته، وبعد أنْ ميَّز الثقوبَ التي صنعها كرسيُّه وحاملُه في الأرض في جِلسته الأخيرة، فكَّهما ونصبَهما في موضِعَيهما السابقَين. بعد ذلك ثبَّت اللوحة وجهز لوحةَ ألوانه، وأجرى مسحًا دقيقًا متمعنًا بعينَيه للغابة موضوع لوحته، وقارنَها باللوحة

التي لم تَكتمِل بعد؛ وعلى الفور تلاشَت لوتا شيلر وصديقها الإفريقي من ذهنه، وتفرَّغ لتأمُّل عمله في سكون.

كان يومًا جميلًا رغم قرب العام من نهايته، وكان المشهد بديعًا. كانت أشجار الزان الباسقة المهيبة لا تزال تحمل العديد من أوراقها التي تبدَّل لونُها من الأخضر النضر الصَّيفي إلى درجات الألوان البديعة — السريعة الزوال — التي تُميِّز اقترابَ العام من الانقضاء. ظل توم لأربع ساعات مُمتعة يعمل باجتهاد، ويرسم بأقصى براعته مُستمتعًا بكلِّ لحظة. طوال ذلك الوقت، لم يقترب منه أيُّ مخلوق بشَري، مع أنه كان يتلقَّى زياراتٍ عابرة من سكان الغابة من غير البشر، كعادة رسَّامي الطبيعة. فلعب سنجاب فضولي معه لعبةَ الاختباء والظهور من وراء إحدى الأشجار، ثم ما لبثَ أنْ غادَرَها وراح يدور حوله على بُعد بضعة أقدام من حامل اللوحات. وجاء شُحروران وَدودان يبحثان عن رزقهما بالقرب منه، وانسلَّ أيِّلان لهما فِراءٌ داكن بضعَ مرات عبر الفتحة أمامه، غير مدرِكَين لوجوده على ما يبدو.

في نهاية الساعة الثانية، تناول ما يُسمِّيه العمالُ «وجبة الكادحين»؛ وهي وجبة مُتواضعة من الخبز والجبن (كان نصيب السنجاب منها بضع كسرات من الخبز وقطعة من قشرة الجبن)، مع رشفة من الجعَّة من قِنِّينة كبيرة. ومرة أخرى، التقط لوحة ألوانه وفرشه وتابع العمل دون انقطاع حتى أنبأه تغيرُ الضوء أن الوقت قد حان للرحيل؛ حينها، حزَم أغراضه بعناية، وأشعل غليونه، ثم حمل عدَّته وانطلق عائدًا أدراجَه. عند مفترق الدربَين، توقف ليُلقيَ نظرة على الطريق الأخضر، مع أن المساء كان لا يزال في أوله، وصديقاه لن يعُودا في ذلك الوقت المبكر على الأرجح. ومع ذلك، فيما كان يَنعطِف حول المعسكر ومر بجوار البركة مرة أخرى، كان يترقَّب قدومهما دون إدراكٍ كامل منه لذلك، وحتى في محطة القطار لم يَغيبا عن باله، حتى أتى القطارُ وحمله بعيدًا وحده.

في الأيام القليلة التالية، كان يعود بخاطره إلى صديقَيه من آنٍ إلى آخر، وينسج تخميناتٍ مبهمةً حول ما جرى لهما في الغابة. كان يتوقع زيارةً من لوتا، وبناءً على قوة تخمينِه ذلك، بحث عن الخريطة والبوصلة ومخطط المعسكر كي يُعطيهم لها عندما تزُوره. لكن لدهشته — ولخيبة أمَلِه نوعًا ما — لم تظهر، فاستقرَّ في النهاية إلى أنها تخلَّت عن فكرة استِكشاف المعسكر، وبعد أن عادت الأمور إلى مجاريها، صرَف تفكيره عن الأمر.

ولكن لما مرَّت الأيام ولم تأتِ الزيارة المتوقَّعة، ولم يُقابلها حتى مصادفة في الشارع كما اعتاد، كان وقْعُ اختفائها التامِّ من مدارِه عليه غريبًا نوعًا ما. حتى إنه كان مستاءً

بعض الشيء؛ وهي حالة مِزاجية أدرك هو نفسُه غرابتها ومخالفتها لطبيعته. فمنذ أسابيعَ قليلة، حين كان هو صديقَها الوحيد من الرجال على غيرِ رغبة منه، كانت رغبته الشاغلة في الحياة هي التخلُّصَ منها؛ أما الآن، ومع أنه لا يشعر بقلق كبير عليها، كان يشعر أنه سيُسَرُّ كثيرًا لرؤيتها عند بابه. حتى إنه فكر ذاتَ مرة في أن يمرَّ عليها ليستفسرَ عن أحوالها، لكنَّ تحفُّظه طغى عليه. فلم يكن لديه رغبةٌ في أن يُعيد إيقاظ تلك الصداقة الحميمية المزعجة.

من المحتمَل أنه كان سيَتقبَّل خروج لوتا من حياته ويتوقَّف سريعًا عن ملاحظته لو لم تحدث أشياءُ أخرى. لكنَّ ظرفًا جديدًا أيقظ فضوله. كان عائدًا ذات يوم من سوق كمبرلاند، وبالتبعية مرَّ من أمام منزلها، فلاحظ أن لوحةَ بابها النُّحاسيةَ ليست في مكانها المعتاد. لم تكن لوحة ثابتة مُثبتة على الحائط على نحو دائم، بل كانت محمولة على دعائم قابلة للنزع، وكان من عادة لوتا أن تنزعها في المساء وتُعيد تعليقها في الصباح. وهكذا، عندما لاحظ غيابه، ظن أنها فقط نسيت تعليقها ولم يُعِر الأمر مزيدًا من التفكير. لكن، في اليوم التالي، عندما تصادَف أن وقَع بصره على بابها مرة أخرى فلاحظ غياب اللوحة، استرعى الأمرُ انتباهَه أكثر؛ وبعد عدة أيام من الملاحظة اليومية، كانت النتيجة أنه استقر إلى أن اللوحة قد اختفَت للأبد. ومرة أخرى، فكَّر في زيارتها، لكن فكرة جديدة جعلَته يعزف عن ذلك. فربما تكون الاحتمالات الغامضة التي تصوَّرها قد تحقَّقت بالفعل، وإن حدث ذلك، فمن الأفضل له ألا يتدخَّل في شئون لوتا. على الجانب الآخر، كان يشعر بقلق فِعْلي الآن وبشيء من الانزعاج، خصوصًا بشأن فاندربوي، فارتأى أنَّ بضعة استفسارات حذرة عبر طرف ثالث ربما تكشف له الحقائق دون أن تورطه بأيِّ حال.

كان بديهيًّا أن يكون ذلك الطرف الثالث هو السيد بولتون. فقد كان على صلة بفاندربوي، كما أنه يُراقب سير الأحداث بلا ريب. لكن كان السؤال هو كيف يصلُ إلى السيد بولتون. لم يَجرُؤ توم قط على زيارته لأنه يسكن في منزل ربِّ عمله، الدكتور ثورندايك، وكان يرى أن الزيارة دون دعوة كانت ستبدو تطفُّلًا نوعًا ما. بالطبع كان بإمكانه أن يُراسل السيد بولتون، لكن ذلك كان سيتطلَّب استفسارًا مباشرًا، وهو ما كان يرغب في تجنُّبه. كان يعتقد أنه لو استطاع تدبير لقاء مع صديقه الحاذق، فسيتمكَّن من استخلاص المعلومات المطلوبة بتلقائية من خلال حوار يُديره بحَصافة وتعقُّل، دون طرح أي أسئلة على الإطلاق.

كانت المشكلة إذن هي إيجادَ ذريعة لزيارة بولتون؛ ذريعة مقنعة تُبرر زيارته بدلًا من مراسلته. راح توم يتداوَل الأمر مع نفسه لإيجاد حل لتلك المشكلة، ولما كان رجلًا شديد الصراحة، قليلًا ما يلجأ إلى الذرائع من أي نوع، اضطُرَّ لأن يُوليَ الأمرَ اهتمامًا لا يتناسب وحجمه. ثمَّ ما لبثت المشكلة أن حُلَّت من تلقاء نفسها. فقد تصادف أن فتح درجًا يحتفظ فيه ببعض المخلفات، فوجد فيه عدَّاد خُطًى اعتاد أن يحمله معه في رحلاته لاستكشاف موضوعات للوحاته الطبيعية. لأعوام كان العداد يُؤدِّي وظيفته على أكمل وجه، لكنه في الآونة الأخيرة صار غيرَ منتظم في عمله ولا يعتمد عليه، فلم يعد يحمله معه. لذا نحَّاه جانبًا، وهو ينوي أن يستشير السيد بولتون بخصوصه يومًا ما. لكن لأن البعيد عن العين بعيدٌ عن الخاطر، نسي الأمر. لكنه الآن منحه لا مجرد ذريعة لزيارته، بل سببًا منطقيًّا لها.

وعلى ذلك، أرسل رسالة قصيرة إلى بولتون، يُعلن فيها نيتَه للزيارة، وأنه في حال لم تكن المقابلة غيرَ ملائمة، فسيترك له عدَّاد الخُطى ليَفحصه لتشخيص الخلل؛ أجاب عليها بولتون فورًا بدعوة وُدية مصحوبة بالإرشادات اللازمة لمكان سكنه داخلَ البناية الكائنِ بها المنزل.

الفصل السابع

عداد خطًى ومأساة

في تمام الرابعة، في عصر يوم مشمسٍ من أيام ديسمبر، وصل توم بيدلي إلى مدخل المنزل رقم فايف إيه بشارع كينجز بينش ووك، بعد أن شق طريقه إليه في رحلة مُمتعة عبر الساحات القديمة في منطقة تيمبل.

لبضع لحظات، توقف ليتأمَّل، بذَوق فنان، الرِّواق المُعَمَّد الفاخر المبنيُّ من القرميد الأحمر (الذي عادةً ما يُنسَب إلى كريستوفر رين)، ثم دخل واتبع إرشادات بولتون، فصعد الدرَج إلى الطابق الثاني. عندما وصل إليه، انفتح باب وخرج مضيفه لملاقاته.

قال بولتون وهو يُصافحه بحرارة: «تلك زيارة سارة جدًّا يا سيدي. لا يأتيني زوار في العادة، فأنا رجل كادح أعزبُ مثلُك؛ لذا فزيارتك تلك ستكون مصدرَ سرور بالنسبة لي. هلا تفضَّلت بالدخول إلى المعمل؟ سنَحْتسي الشاي في غرفتي بالأعلى، لكني أسخِّن الغلاية هنا كي أتجنَّب تسخينها على دخان المدفأة.»

عندما دخلا إلى الغرفة الكبيرة، تطلَّع توم حوله بفضول، ولاحظ وجود بعض الأغراض لا تكاد تتماشى مع فكرته عن المعمل، مثل منضدة نجَّار، ومِخْرَطة، وكاميرا نسخٍ كبيرة، وأن ثَمة غلايةً نُحاسية أنيقة، مثبتة على حامل ثلاثي على موقد بنزن، وإبريقَ شايٍ فِضيًّا قديمًا رائعًا يبدو أنهما قد جاءا إلى هنا بالخطأ.

قال توم مقترحًا: «ربما بإمكاني أن أُلقيَ نظرة على عداد الخطى ذلك ريثما تغلي المياه في الغلاية.»

أخرج توم الأداة من جيبه وناوله إياها، ففتح غطاءها الزجاجي الخلفي، ثم وضع عدسة ساعاتي على عينه، وفحص الجزء الظاهر من الآلة.

عقب قائلًا وهو يهز الأداة لأعلى وأسفل كي يختبر ذراع التشغيل: «لا يبدو أن به مشكلةً كبيرة؛ مجرد تآكُل. لقد تآكل زنبرك السقاطة الصغيرُ فصار يميل للانزلاق عن

أسنان ترس السقاطة. هذا عطل خطير، لكن يسهل إصلاحه؛ وربما أجد أعطالًا أخرى عندما أُفككها كما يقول أهل المهنة؛ أي أفصِل أجزاءها. على أي حال، لن يَضير كثيرًا أن أُنظفها وأُضيف لها القليل من الزيت الجديد.»

قال توم: «أخشى أني أتسبَّب لك بعناء أكثرَ مما توقعته.»

تطلع إليه توم بابتسامته الغريبة العريضة.

صاح مستنكرًا: «أي عناء يا سيدي! لا يوجد عناء على الإطلاق؛ إنه ليس عملًا حتى. سيَمنحُني ذلك عدةَ ساعات من التسلية الممتعة، وأنا ممتنٌّ لك كثيرًا لإحضارك تلك الأداة إليَّ.»

وتأكيدًا لكلامه، أخرج من أحد جيوبه العديدة مِفكًّا محمولًا صغيرًا، وكان على وشك أن يُهاجم به عداد الخطى، حين تدخلت الغلاية بأن نفثَت دفقة من البخار؛ فأعاد إلى المفكِّ غِطاءه وأعاده إلى جيبه، ثم شرع يُعِد الشاي على نحو ممنهج.

وبينما كان يتقدَّمه إلى الطابق العلوي حاملًا إبريقَ الشاي فيما تبعه ضيفه حاملًا الغلاية، علَّق توم على جمال الأخيرة.

رد بولتون قائلًا: «أجل يا سيدي، إنها غلاية فاخرة قديمة. لم يعودوا يصنعون مثلها هذه الأيام. وجدتُها في متجر لبيع خردة السفن في شارع البرتغال. أظنُّ أن مصدرها مقرُّ محامٍ عجوز في نُزُل لينكن، وكانت مرضوضة وبالية إلى حدٍّ كبير، لكني بذَلتُ فيها شيئًا من الجهد، فعادت وكأنها جديدة. كما ترى يا سيدي، أنا أشبِهُك في ذلك الأمر؛ أحبُّ أن تكون الأغراض العادية التي أستخدمها وأعيش معها جيدة وممتعة للنظر.»

ومما دلَّل على صحة عبارته تلك مظهرُ الغرفة الواسعة في الطابق الثالث التي دخلا إليها الآن، التي استقرت فيها طاولة شاي على جانبَيها كرسيَّان وثيران أمام المدفأة. بعد أن وضع توم الغلاية على حامل حيث لا يطوله لهبُ المدفأة أو دُخَانها، جلس في الكرسي الذي أُشيرَ إليه بالجلوس فيه، وتطلَّع إلى المشهد من حوله فيما كان بولتون يُعِد لوازم طاولة الشاي؛ فلاحظ أرفف الكتب المكتظَّة، وبضع لوحات معلقة على الجدار (بما فيها رسمه الأوَّلي للَوحةِ «المتنصتة»، داخل إطار بسيط لكن أنيق) وحاجز ذي أربع طيات خمَّن أنه يحجب وراءه فراشًا. كانت كلها بسيطة وعادية، لكن الغرفة بكل ما فيها راقت كثيرًا لذوق توم الرفيع، حتى الساعة المزخرفة القديمة الطراز المعلقة على الجدار التي تكاد لا تُعكِّر صفو السكون بدقاتها التي تبعث على الدفء.

قال بولتون: «هذا مسكني الخاص يا سيدي، لكني لا أقضي وقتًا طويلًا به. فالمعمل هو بيتي الحقيقي. أنا ميكانيكي أصيل، أسعد أوقاتي هي تلك التي أقضيها على طاولة عملي. عدَّاد الخُطى خاصتك ذلك يا سيدي بالنسبة لي هو مِنحة لم تكن بالحسبان. هل تَسمح لي بأن أسألك منذ متى وهو بحوزتك؟»

أجابه توم: «أعتقد أنه معي منذ حوالي اثنتَي عشْرة سنة.»

«وهل تجده دقيقًا إلى حدٍّ كبير؟ فخُبراء المساحة يعتبرون عداد الخطى مجرد لعبة لا فائدة لها. فما تجرِبتك معه؟»

أجابه توم: «أجده دقيقًا بالقدر الكافي لحاجتي. فأنا لست خبيرَ مساحة. لا أتعامل بالبوصات، لكني أجده مُتوافقًا بدرجة كبيرة من الدقة مع الخرائط ولافتات الطرق الإرشادية، وهذا كافٍ بالنسبة إليَّ.»

«سبب سؤالي هو أني أفكِّر في شراء واحد للسيد فاندربوي كي يعودَ به إلى بلده. فليس فيها لافتاتُ طريق كثيرة.»

سأل توم باهتمام أُوقِظَ بداخله فجأة: «هل سيعود السيد فاندربوي إلى إفريقيا قريبًا؟»

أجابه بولتون: «ليس في القريب العاجل؛ فقد انضم لرابطة المحامين في المحكمة الجنائية المركزية، ويحضر جلسات المحكمة بانتظام؛ أعني أنه يُحضرها بانتظامٍ منذ أن غادرَت السيدة شيلر.»

سأله توم وقد تملَّكه ذهولٌ شديد: «إذن فقد سافَرَت، أليس كذلك؟»

«أجل يا سيدي؛ وأتمنى ألا تعود؛ فقبل سفرها، كان يُهمل عمله بشدة. أشعر بارتياحٍ كبير لأنها غادرَت.»

«هل تعلم ما إذا كانت قد غادرت بلا رجعة؟»

«أخشى أنه ليس كذلك يا سيدي. بالطبع لم أجرُؤ على طرح أي أسئلة، لكني فهمتُ من السيد فاندربوي أنها سافرت للإقامة مع بعض الأصدقاء في بريمنجهام. لا أعلم كم من الوقت ستغيب، ولا أظن أنه يعلم أيضًا.»

«أظنك لا تعلم ما إذا كانا يَتراسلان؟»

«لا أعلم حقيقةً يا سيدي، لكني لا أظن أنهما يفعلان. فلديَّ شعور بأنه لا يعرف حتى عنوانها. أمر غريب، أليس كذلك؟ لكنها سيدة غريبةُ الأطوار. فرغم أساليبها الطائشة، فهي تُجيد إخفاء خُططها وأفكارها لدرجة غير عادية.»

أثارت تلك الملاحظةُ الأخيرة إعجابَ توم؛ إذ وهو يتأملها الآن، أدرك فجأةً أنه لا يعرف سوى القليلِ جدًّا عن تلك السيدة الغريبة. لكن على أيِّ حال، لم يعد أمرُها يَعنيه الآن بعد أن تبددت مخاوفه بشأن فاندربوي؛ وعندما تحصَّل على المعلومات التي جاء من أجلها، بدأ يتساءل ما إذا كان الوقت قد حان للمُغادَرة. فبولتون لديه مسئوليات من نوع ما، وزيارة مطوَّلة ربما تكون مزعجة له. لكن عندما أبدى تلميحاتٍ متردِّدة بالمغادَرة، اعترض مضيفه قائلًا:

«آمُل ألا تُغادِر بسببي يا سيدي، فالدكتور سيتناول العَشاء بالخارج الليلة وليس لدي أيُّ مشاغل الليلة. كما أنه الآن بعد أن عيَّن لي مساعدًا احتياطيًّا لمباشرة العمل في غيابي، صِرت أنعمُ بحرية أكثرَ بكثير مما اعتدت. بالطبع لن أُلِح عليك بالبقاء إن كنت مشغولًا، لكن ...»

في الواقع، كان توم سعيدًا جدًّا بالبقاء، وأخبر بولتون بذلك، وهكذا بعد أن عبَّأ غليونه (بدعوة من بولتون)، مكث لقضاء ليلة ممتعة ومثيرة جدًّا. فقد كان مضيفه، مع كونه «ميكانيكيًّا أصيلًا»، يمتلك كَنزًا من المعلومات في شتى الموضوعات الغريبة وغير المتوقعة؛ وبعد أن انتهيا من معاينة مكتبتِه الفنية المميزة، والصور المعلَّقة على الجدار والساعة القديمة البديعة (وهي أقيمُ كنوز بولتون؛ إذ إنها تَذْكار من البيت الذي قضى فيه طفولته، آلَ إليه بوفاة عمته جودي)، جلَسا في كرسيَّيهما يُثرثران بغير اطِّراد حول الموضوعات العديدة ذات الاهتمام المشترك، مع ميل عام نحو الحديث عن «التحف القديمة».

قال بولتون عندما نهض توم أخيرًا استعدادًا للمغادَرة: «عودةً إلى عداد الخطى يا سيدي، سألقِي نظرة عليه في وقت فراغي، لكن إصلاحه لن يستغرق طويلًا. وعندما أنتهي منه، سأحضِره إلى مرسمك، إنْ أخبرتني بموعد وجودك بالمنزل.»

«هذا لطفٌ كبير منك يا بولتون، لكني أظن أن من الأفضل أن تُحدِّد أنت موعدًا. فبإمكاني دائمًا أن أكون بالمنزل إن أردت.»

«إذن أقترحُ يوم الخميس القادم يا سيدي، في حوالي الثالثة إن كان ذلك يُناسبك.»

قال توم وهو يلتقطُ قبعته وعصاه: «يُناسبني تمامًا.» وهكذا بعد أن تحدد الموعد، صافح مضيفه الذي رافقه حتى الطابق الذي يقع فيه المعمل حيث افترقا، ليذهبَ توم إلى منزله، وليبدأ بولتون على الأرجح هجومَه على عداد الخطى.

خلال الأيام القليلة التالية، لم يُفكر توم في لوتا إلا عرَضًا. فقد اطمئن تمامًا. فلم يَفرَّ العاشقان أو تقع فضيحةٌ من أي نوع، وكان هذا هو كل ما يُهمُّه. أما المرأة نفسها،

فلا يسَعُه إلا أن يُوافق بولتون في أمنيته بأن تظل بعيدًا لأطولِ وقت مُمكن؛ وإن لم تَعُد أبدًا، فسيترك غيابها فراغًا ليس مرفوضًا بالكلية. بل إنه في الواقع بدأ يأمُل في أن تكون قد خرَجَت من حياته، وأن يكون قد تخلَّص منها أخيرًا؛ وبالتدريج انتقل من مجرَّد الأمل إلى التصديق بأن ذلك هو ما قد يحدث.

لكنَّ إفاقته من ذلك الوهم جاءت مُفاجئة وصادمة. وتزامنَت مع حلول اليوم المحدد لقدوم صديقه حاملًا عداد الخُطى. ففي تمام الثالثة عصر يوم الخميس، دق جرس المرسم، فخرج توم مسرعًا ليُجيبَه، ليجد السيد بولتون واقفًا على عتبة الباب العريضة. غير أنه لم يكن وحدَه. فقد كان يشاركه عتبة الباب سيدةٌ تبدو عليها أماراتُ القلق عرَف أنها السيدة ميتشنز جارته في المنزل المجاوِر، وصاحبة المنزل الذي تسكن به لوتا. لعدة أعوام كانت علاقتهما لا تتعدَّى التحية بإيماءةِ رأس، لكنه لم يتحدَّث إليها من قبلُ إلا ليتمنَّى لها صباحًا سعيدًا؛ لذا تساءل الآن ماذا عساها أن تريد منه. لكنه سرعان ما عرَف؛ ففور أن ظهر عند الباب، سألته بنبرة مُضطربة:

«هل بوُسعي التحدُّثُ معك قليلًا يا سيد بيدلي؟» (على أثر ذلك حاول بولتون أن يَختفيَ عن الأنظار، وتأهَّب للانسلال عبر الباب الموارب.) «الأمر يتعلق بالسيدة شيلر يا سيدي.»

فورَ أن لفظَت ذلك الاسم، توقَّف بولتون فجأة، وحاول أن يتظاهَر بعدم الإصغاء.

تابعت السيدة ميتشنز قائلة: «لقد قصدتُك يا سيد بيدلي لأنك كنتَ صديقًا لها، وظننت أنك ربما تعرف ما عساه أن يكون حدث لها. فأنا لم أرَها أو أُراسلها منذ وقت طويل جدًّا.»

أجاب توم بابتهاج: «هذا صحيحٌ يا سيدة ميتشنز. فقد غادرَت لتوِّها للمكوث مع بعض أصدقائها في بريمنجهام.»

لكن لم تبدُ السيدة ميتشنز راضيةً بتلك الإجابة. قالت معترضة: «لكن هذا غريب جدًّا؛ فهي لم تذكر لي أبدًا أيَّ شيء حول السفر، ولم تُسدِّد إيجار الشهر، مع أنها دائمًا تُسدِّده في موعده المحدَّد. هل أنت متأكِّد أنها ذهبت إلى بريمنجهام؟»

فكَّر توم لبرهة ثم التفت إلى بولتون وسأله:

«ما رأيك؟ هل أنت متأكِّد؟»

أجابه: «حسنًا يا سيدي، لن أقول إنني واثق حدَّ اليقين. لقد أخبرني السيد فاندربوي أن السيدة شيلر أخبرَته أنها ستذهب للمكوث مع بعض الأصدقاء في بريمنجهام. هذا كل ما في الأمر. نحن لا نعرف ما إذا كانت قد ذهبت بالفعل أم لا.»

قالت السيدة ميتشنز: «إذن، أخشى أنها لم تذهب.»

سألها توم: «لمَ تقولين ذلك؟»

بدَت السيدة ميتشنز تُواجه صعوبة في التعبير. فقد أجابته: «لا أعرف كيف أصوغ ذلك، لكنَّ ثَمة خطبًا ما في مسكنِها. لاحظتُه أنا وزوجي، ويبدو أن الأمر يزداد سوءًا.»

قال توم: «أنا لا أفهم. ما الذي يَزداد سوءًا؟»

أجابته: «يصعب شرح الأمر، لكن إن تكرمتَ بالدخول إلى ردهتها، فستفهم ما أعنيه.»

لم يُبدِ توم أي حماس لقَبول تلك الدعوة، غير أن بولتون، الذي كانت اللهفةُ قد تملَّكَت منه، طلب من السيدة أن تقتاده عبر الطريق وتبعها بهِمَّة فيما تأخَّر توم خلفهما، وراقبها بتجهُّم وهي تُدخِل مفتاح البوابة في ثقبه.

لكن السيدة ميتشنز كانت مُحقَّة. ففور أن دخلوا إلى الردهة وأغلَقوا الباب الخارجي، أدرك كِلاهما تمامًا ما قصَدَته. لكن استجابة كلٍّ منهما لذلك الإدراك كانت مُختلِفة. فقد تراجع توم للخلف تجاه الباب الخارجي وقد ارتسَمَ على وجهه اشمئزازٌ هَلِع، في حين شمشم بولتون الهواء معاينًا إياه، ثمَّ أخذ المبادَرة الحتمية.

قال: «أظن يا سيدتي أن هذا الباب مغلق بالمفتاح، أليس كذلك؟»

أجابت: «أجل. مُغلَق بالمفتاح من الداخل.»

قال بولتون: «حسنًا، يجب أن ندخُل تلك الغرفة فورًا.»

«هذا ما قاله زوجي، وقد حاول فتحه بأحد مفاتيحنا، لكن للأسف المفتاح متروك في ثقبِه، ولم يودَّ أن يفتحَه عَنْوة.»

وافقها بولتون قائلًا: «كلا، من الأفضل أن نستخدم مفتاحًا إن أمكن. هل كان قُفْل الباب يُستعَمَل كثيرًا؟»

أجابت: «أجل، على الدوام. كانت السيدة شيلر دائمًا ما تُوصِد الباب بالمفتاح ليلًا وكلما غادرَت المنزل.»

قال: «إذن ينبغي أن يدور بسهولة.» ثم أردفَ متأملًا، وقد دسَّ يده في جيب داخلي: «أحيانًا يكون من الممكن جعلُ المفتاح على الدوران من الخارج إن لم يكن صعبَ الإدارة كثيرًا. أتساءل إن كان معي بجيبي ما يصلح لذلك الغرض.»

كان معه على ما يبدو؛ ففيما انحنى لينظر من ثقب الباب، خرجَت يده من جيبه مُمسكةً بشيء يُشبه نوعًا ما بريمةَ جيب لسحب سدادات الزجاجات ذات شكل غير

مألوف، مثبَّت بها أذرع سلكية متينة ذات زوايا حادَّة. أدخلَ إحدى تلك الأذرع في ثقب المفتاح وحرَّكه داخل القفل، فيما وقفت السيدة ميتشنز تتطلع بترقُّب إلى يده، التي كان تُخفي ثقب الباب والأداة.

قال: «أجل، هذا هو السبب.» وبينما يتحدث، سمعوا تكَّة فتح القُفل، فسحب بولتون الأداة (التي أخفاها على الفور في جيبه الذي أخرجها منه)، وأدار مقبض الباب ليُجرب فتح الباب، ثم ما لبث أن أغلقه على الفور مجددًا.

قال وهو يتنحَّى إلى الوراء مفسحًا لها الطريق: «كما ترين يا سيدتي، الباب ليس موصَدًا بالمزلاج.»

أبدَت إحجامًا طبيعيًّا عن دخول تلك الغرفة الغامضة المشئومة، لكن بعد بِضع لحظات من التردد، أمسكَت بمقبض الباب وأدارته برِفق، ثم فتحَت الباب ودخلت. لكن بمجرد أن دخلت، أطلقَت صرخة خافتة وتسمَّرت في مكانها وهي لم تزل ممسكة بمقبض الباب، وتُحدق أمامها وقد ارتسم على وجهها الرعب.

صاحت في هلع: «يا للمسكينة! لقد أُنهت حياتها. رجاءً تعالَيا وألقِيَا نظرة عليها.»

على أثر ذلك، دخل بولتون الغرفة وتبعه توم، ولوهلة وقف كلاهما عند الباب يُحدقان في الجسد المُريع الذي استقرَّ وقد تهدلَت أطرافه وتدلى رأسه في كرسيٍّ صغير ذي مسند للمرفقَين موضوعٍ أمام الطاولة. تدلَّت الذراع اليُمنى لأسفل مباشرة بينما استقرت اليسرى على الطاولة، وبجوار اليد الشاحبة اللون، استقر قِدحٌ فارغ، وعلى مسافة بضع بوصات منه وُجِد دورقُ ماء زجاجي وقِنِّينة صغيرة تحوي أقراصًا بيضاء اللون.

قالت السيدة ميتشنز نائحة: «يا للمسكينة! أتساءل لِم فعلَت ذلك، وهي مَن بدَت دومًا مرحة ومبتهجة. كم يبدو مظهرها مريعًا تلك المسكينة العزيزة! ما كنت لأتعرَّف عليها أبدًا.»

في تلك الأثناء، كان بولتون يُلقي نظرة متفحِّصة في أرجاء الغرفة، ثم تقدم إلى الأمام وانحنى فوق الطاولة ليُدقِّق النظر في القدح وقنِّينة الأقراص.

سأل توم: «ماذا تحوي تلك القنينة؟»

كان الرد: «سيانيد البوتاسيوم.»

«ذلك سُم قويٌّ المفعول، أليس كذلك؟»

أجابه بولتون: «بل سُم مُميت، ومفعوله سريع للغاية؛ ويسهل الحصول عليه أيضًا، كما ترى مما هو مكتوب على ملصَق تلك القنِّينة؛ «أقراص تحميض الأفلام الفوتوغرافية»؛ من السهل الحصول عليها فيما يصعب تتبعُ أثرها.»

عقَّب توم قائلًا: «تتبُّع أثرها لن يكون ذا بالٍ في هذه القضية؛ فهيَ مَن سممت نفسها. السؤال هو لِم فعلت ذلك؟»

نقل بولتون اهتمامه من السُّم إلى الجثَّة، وبينما وقف يُحدق في السيدة المتوفَّاة، ارتسم على وجهه تعبيرٌ من الدهشة والحيرة. في تلك اللحظة، تسلَّل شعاعٌ من ضوء شمس الخريف الشاحب عبر النافذة، فأضاء شعرُها الأشقر جاعِلًا إياه لامعًا كالذهب المصقول. بدا ذلك المشهد وقد زاد من دهشة بولتون؛ إذ اقترب من الجثة وقد أجفل وجهه بوضوح، والتقط برفق خصلةً صغيرة من الشعر الذهبي، ثم قربها إلى وجهه وتفحصها بعناية. وكأنما لم يقتنع بعدُ، رفع الرأس المحنيَّ برفق وألقى نظرة مطولة ومتمعِّنة على وجه المسكينة الشاحب المنتفخ. راقبه توم وصاحبة المنزل بدهشة، ثم سأله الأول:

«ما الخطب يا بولتون؟»

أجاب بولتون وهو لا يزال مُمسكًا بالرأس مرفوعًا بنبرة اندهاش:

«تلك المرأة يا سيدي ليست السيدة شيلر.»

قال صاحبة المنزل مرددةً كلماته: «ليست السيدة شيلر! لكن لا بدَّ أنها هي. فمَن سواها عساها أن تكون محبوسة هنا في غرفة السيدة شيلر؟»

قال بولتون مُصِرًّا: «تلك قَطعًا ليست السيدة شيلر. أُناشدك أن تأتي يا سيدي لترى بنفسك. فقد كنتَ تعرفها أكثر منِّي. سترى أن لون شعرها ليس اللونَ المعهود، والملامح مختلفة.»

قال توم: «لقد لاحظتُ أمر الشعر عندما سقط عليه ضوءُ الشمس، فخطر لي أن لونه قد تغير بطريقة ما. لكن بالنسبة للملامح، فأرى صعوبةً بالِغة في تمييزها.»

أجاب بولتون: «على الإطلاق يا سيدي. إنَّ بشرتها مُنتفخة، لكن الأنف لم يتغير، وكذلك الذقن نوعًا ما. وهاك الأذنان؛ تكادان لم تتأثَّرا على الإطلاق. من الأفضل أن تأتي وتُلقي نظرة عليها؛ فالتعرف على هُويتها له أهمية قصوى.»

بعد أن استحثَّه بولتون، استجمع توم شجاعته للقيام بفحصٍ للجثة عن قرب؛ وفيما أمسك بولتون برأسها مرفوعًا، فحص جانبَ وجهها أولًا ثم أُذُنَيها. نظرة متمعِّنة قصيرة للغاية كانت كافية بالنسبة له؛ إذ قال وهو يتراجع عن الجثة:

«أجل، أنت محق يا بولتون. تلك ليست لوتا شيلر. فشكل الأنف والذقن يبدو مختلفًا، لكنَّ الأذنَين حسمَتا الأمر تمامًا. فهما تختلفان تمامًا عن أُذُنَي لوتا، وموضعها في الرأس مختلف.»

قالت صاحبة المنزل: «هل تعتقد حقًّا يا سيدي أن تلك المسكينة ليست السيدة لوتا شيلر؟»

أجابها: «لا شك لدي في ذلك، وأشعر بارتياح بالغ كونها ليست هي.»

قالت السيدة ميتشنز: «وأنا كذلك في الحقيقة. لكن كيف جاءت إلى هنا؟ وقد أغلقَت الباب على نفسها من الداخل أيضًا. ذلك لغزٌ محض.»

وافقَها توم قائلًا: «إنه كذلك بالتأكيد. لكنه ليس من شأننا. سيكون على الشرطة أن تحلَّه.»

قال بولتون: «هذا صحيح يا سيدي، مع أنه ربما يكون من شأننا أكثر مما تَتصوَّر. لكن بالطبع سيكون علينا إبلاغُ الشرطة على الفور، وسيكون عليهم معرفةُ هُوية تلك المرأة المسكينة وكيف انتهى بها الحالُ إلى هنا. لكن ثَمَّة مسالة أودُّ أن أحسمها الآن؛ وهي ما إن كانت قد تجرَّعت السمَّ بنفسها أم أن شخصًا آخر أعطاه لها.»

قال توم معترضًا: «لكن الشرطة ستَتعامل مع تلك المسألة. فالأمر لا يخصُّنا.»

أيَّده بولتون قائلًا: «إنه لا يخصُّنا يا سيدي. لكني أود أن أعرف إرضاءً لفضولي فحسب. هل معك قطعة من ورقة مقوَّاة ملساء السطح؟»

بشيء من الارتباك، أخرج توم من جيبِه دفتر الرسم الذي يَحمله معه دائمًا.

سأله: «هل يصلح ذلك؟ إن كان يصلح، فبإمكانك نزعُ ورقة منه، لكن لا تأخذ ورقة بها رسم.»

قال بولتون: «لن أنزع الورقة منه. ستكون أنفعَ لي وهي في الدفتر، كما أني لن أحتاج إلى الاحتفاظ بها.»

أخذ الدفتر الصغير ذا الغلاف القماشي، واتَّجه إلى طاولة كتابةٍ صغيرة موضوع عليها بجانب لوح الكتابة ختمٌ ومَحْبرة، يُراقبه توم وصاحبة المنزل في فضول.

أخذ المَحبرة وحملها إلى الطاولة التي جلست عليها المتوفَّاة، ثمَّ فحص القدح مرة أخرى دون أن يمسَّه قدر استطاعته.

قال مُعقبًا: «بصمات الأصابع تبدو وكأنها لأصابع اليد اليسرى؛ وبما أن اليد اليسرى قريبةٌ من القدح، سنُجربها أولًا.»

برفقٍ شديد تجنبًا لتحريك الجثة، رفع اليد وأمسك بإبهامها وضغَطه على المَحبرة. ثم وضع المَحبَرة وأخذ الدفتر فوضع الإبهام الملطَّخ بالحبر على صفحة فارغة وضغطه بخفَّة ثم رفعه. وبالطريقة نفسِها، أخذ بصمات الأصابع الأربعة الأخرى، مرتبًا إياها

في صفٍّ وَفْق ترتيبها الصحيح، وفور أن انتهى، مسحَ آثار الحبر بعناية من أطراف أصابعها بمنديله. بعد أن أعاد يدَها برفقٍ إلى مكانها، وضع الدفتر المفتوح بجانب القدح وأخذ يُقارن بدقةٍ بين البصمات على كلٍّ منهما.

قال توم: «حسنًا، ماذا وجدت؟»

أجاب بولتون: «البصمات الموجودة على القدح هي بصماتُ أصابعها. هل تود أن تراها بنفسك؟»

كانت رغبة توم المسيطرة الآن هي الهروبَ من أجواء مستودَع الموتى التي تعمُّ تلك الغرفة، لكن لما كان واضحًا أن بولتون يرغب في أن يُريَه البصمات، اتجه إلى الطاولة.

قال بولتون: «النسخة التي صنعتُها من البصمات رديئةٌ جدًّا وملطخة، لكن الأنماط تظهر فيها بوضوح. انظر إلى نمط الدوامة الحلزونية الذي يظهر في بصمة الإبهام تلك، وقارِنْه بنظيرتها الموجودة على القدح. سترى بوضوح أن النمطَين متطابقان.»

وافَقه توم قائلًا: «أجل، أستطيع تبيُّنَ ذلك بوضوح شديد؛ لكن أنماط الأصابع الأخرى لا تبدو واضحةً للدرجة.»

قال بولتون موافقًا: «هذا صحيح، إنها تبدو مبهمَة بعض الشيء لسبب ما، بخاصة في منتصف كل بصمة. لكن إن قارنتها بتلك الموجودة على القدح، فسترى أن الأنماط متطابقة.»

قال توم: «سأثقُ بكلامك بخصوص ذلك الأمر؛ فأنت أدرى مني به. وعلى كل حال، لا يعنينا إن كانت قد تناولَت السمَّ بنفسها أم لا. بالطبع ستحسم الشرطة تلك المسألة، وإن أردتَ نصيحتي، فلا تذكر أيَّ شيء عن تلك البصمات. فالسلطات لا تحب التدخلات الخارجية في مهامها.»

قالت السيدة ميتشنز: «أعتقد أن السيد بيدلي مُحق. لا نريد أن نبدوَ بمظهر الفضوليين أو المتطفلين، وقطعًا لا نُريد أن نُثير غضب الشرطة.»

قال بولتون موافقًا إياها: «بالطبع يا سيدتي لا نريد ذلك. سيكون من الأفضل كثيرًا أن نحتفظ بآرائنا لأنفسنا؛ وهذا بالفعل ما كنتُ أنوي اقتراحه. فقد أجريتُ تلك التجرِبةَ لا لشيء إلا لإرضاء فضولي؛ لمعرفة ما إذا كانت تلك قضيةَ انتحار أم قتل.»

قال توم وهو يتقدم ببطء نحو الباب: «حسنًا، ها قد عرَفنا إجابة ذلك السؤال؛ والسؤال التالي هو مَن سيبلغ الشرطة؟»

وبينما يطرح سؤاله، نظر نظرة ذات مغزًى إلى السيدة ميتشنز، التي أجابت باغتمام عندما خرجوا إلى الردهة:

«أفترض أن باعتباري صاحبة المنزل ومؤجِّرتَه للسيدة شيلر، من الأفضل أن أفعل أنا ذلك. لكن لا أستطيع إخبارهم بالكثير، وأتوقع أنهم سيرغبون في استجوابك بشأن السيدة شيلر.»

قال توم: «أتوقع ذلك أيضًا، لكن في الوقت الحالي أظن أنكِ الشخص المناسب للإبلاغ عن الأمر.»

وافقه بولتون الرأيَ بشدة، وبغرض إنهاء النقاش سحب المفتاح برفق من القفل ثم أغلق الباب، وبعد أن أوصده بالمفتاح، سلَّم المفتاح لصاحبة المنزل. ثم غادر هو وتوم بعد أن واسَيا السيدة ميتشنز ببضع كلمات، واتجها إلى المرسم.

قال توم وهو يلتقط بضعة أنفاس عميقة حين خرجا إلى الهواء الطلق: «أُف! يا له من أمر مريع! لكني أظن أنك مُعتاد على مثل تلك الأمور.»

أجابه بولتون: «إلى حدٍّ ما يا سيدي. تعلمت من الدكتور ألا أدع الفظاعة المادية تُشتت انتباهي. لكن يا له من لغز غامض! لا أفهم منه شيئًا. فها هي امرأة، من الواضح أنها غريبة، مغلق عليها باب غرفة السيدة شيلر بمفتاح السيدة شيلر. هذا يُثير أسئلةً شتى. مَن هي؟ كيف حصَلَت على المفتاح؟ لِم جاءت لذلك المكان كي تنتحر ... إن كانت قد انتحرت بالفعل؟ وأين هي السيدة شيلر؟ ستحتاج الشرطة إلى إيجاد إجابات لتلك الأسئلة، وأعتقد أن بعضها سيحتاج إلى مجهودٍ كبير للإجابة عنه.»

وافقه توم قائلًا باغتمام: «أجل، وسيأتون إلينا بحثًا عن بعض تلك الإجابات. سيكون ذلك مصدرَ إزعاج مريع.»

بعد أن اغتسلا — وهو الأمر الذي قام به توم بعناية شديدة — في إناء كبير في حوض المرسم، تابعَا نِقاشهما فيما كانا يُعِدان المائدة لتناول الشاي ويسخنان الغلاية. لكن نقاشهما لم يُسفِر عن أي شيء عدا إبراز الاختلاف الغريب في وجهتَي نظرَيهما. بالنسبة إلى توم، كانت تلك المأساة مريعةً إلى حدِّ الاشمئزاز، وكان يجد صلته بها شيئًا مقيتًا للغاية. لم يكن لديه أيُّ اهتمام أو فضول تجاهها.

على النقيض، لم يَبدُ على بولتون أيُّ أثر للصدمة أو الاشمئزاز، بل بدا أنه يستسيغ التفاصيل بتلذُّذ تشمئزُّ منه النفس، ويستمتع بلغز القضية وغموضها؛ حتى إن محاولات توم المتكرِّرةَ لتحويل مجرى الحوار إلى قنوات أكثرَ استساغة باءت بالفشل الذريع، ولأول مرة، كاد يشعر بارتياح لما حان وقت عودة بولتون إلى مهامه.

قال الضيف الموشك على الرحيل وهو يرتدي معطفه ويتمعَّج فيه ليُهندِمه: «حسنًا يا سيدي، لقد كان عصرُ اليوم زاخرًا بالأحداث. وقد استمتعتُ به كثيرًا.» ثم توقف فجأة عن تمعجاته وحدَّق بتوم في ذهول مثير للضحك. صاح قائلًا: «عذرًا يا سيدي، كدتُ أنسى عداد الخطوات. لقد نظفته وأصلحته، ووضعتُ به منظمًا جديدًا ذا لولبٍ ميكروميتري، وألحقتُ به مفتاح ساعة لضبطه به. ستفهم في الحال آلية عمله، لكني دوَّنت لك بعض الإرشادات.»

أخرج الأداة ملفوفةً في منديلٍ ورَقي، ووضعها على الطاولة ومعها ورقة صغيرة. ثم بعد أن استنكر كلماتِ الشكر الممتنَّة التي وجَّهها له توم، صافحه وانطلَقَ في طريقه إلى تيمبل.

الفصل الثامن

اكتشافات جديدة

بعد أن غادر بولتون تاركًا إياه ينعم بسكون وحدته، حاول توم بيدلي أن ينفضَ عن ذهنه تلك التجرِبة المريعة التي خاضها عصر اليوم، وينصرف عنها إلى مشاغله المألوفة. لكن برغم محاولاته للنسيان، كان ذلك الجسد المريع الجالسُ إلى الطاولة لا ينفكُّ يتطفَّل باستمرار على أفكاره، آبيًا الانصراف؛ ثم في وقت لاحق من المساء، دق جرس المرسم معلنًا قدومَ زائر، فأذعن لما هو محتوم، وخرج إلى البوابة، وكما توقع، وجد شرطيًّا ينتظر على عتبة الباب.

قال ذلك الأخير بنبرة ودية بينما كان توم يقوده إلى داخل المرسم: «لقد خمَّنتَ حتمًا سببَ زيارتي يا سيدي؛ جئت فقط لأطرح بعض الاستفسارات الأولية. أنا ضابط من مكتب الطبيب الشرعي ومهمتي أن أجمع الأدلة المتوفرة لأجل التحقيق.»

قال توم: «حسنًا، أيها الرقيب، سأُساعدك قدر استطاعتي، وإن كنت أخشى أن مساعدتي لن تكون ذاتَ قيمة كبيرة بالنسبة لك. لكن تفضل بالجلوس وأخبرني بما تحتاج لمعرفته، وسأبذل قصارى جهدي لمساعدتك. ربما سيُفيدك قدحٌ من الجِعَة.»

وافقه الضابطُ في أنه ربما يُفيده؛ وبعد أن استقرَّ في كرسيٍّ وثيرٍ بجوار المدفأة وبجواره على طاولة صغيرة إبريق من الجِعَة وكأسان، وملأ غليونه وأشعله — بدعوة من توم — بدأ الاستجواب.

لكنَّنا نعرف بالفعل مقدار ما بجعبة توم من معلومات. فهو لا يعرف شيئًا عن الوقائع الفعلية للقضية. فالسيدة المتوفاة كانت غريبة عنه، وكذلك لوتا شيلر؛ بل إنه فيما كان يسعى جاهدًا دون جدوى للإجابة عن أسئلة الضابط، اندهش حين أدرك جهله التام بماضيها وبوضعها الاجتماعي، وأصدقائها وأقربائها، بل كل ما يتعلق بها في الواقع، عدا القليل الذي جمعه من الملاحظة المباشرة.

علَّق الرقيب قائلًا فيما كان توم يُعيد مَلء قدحه: «تبدو لي امرأةً غامضة نوعًا ما، وكَتومة جدًّا كذلك؛ لا تميل إلى الثرثرة. هل ثمَّة أحدٌ يعرف عنها أكثرَ مما تعرف أنت؟»

أشار توم إلى السيد فاندربوي، لكن نظرًا إلى جهله بعنوانه، أحال الرقيبَ إلى السيد بولتون.

قال الرقيب معقبًا: «هذا هو الرجل الذي فتح الباب من الخارج. لا بدَّ أنه سيكون مفيدًا لنا. أجل، سأود الحديث معه إن أخبرتني بمحلِّ إقامته.»

«هو مساعد معمل للدكتور ثورندايك، المقيم في فايف إيه شارع كينجز بينش ووك، ويُقيم معه في منزله.»

عند ذكر اسم «الدكتور»، رفَع الرقيب أذنَيه.

قال: «هكذا هو إذن. سيكون مُفيدًا بالطبع. سأزوره وأرى ما بإمكانه أن يُخبرَني به. هل تظنُّ أن الوقت قد تأخَّر لزيارته الليلة؟»

بالنظر إلى اهتمامِ بولتون الشديد بتلك القضية، رأى توم أن الوقت ليس مُتأخرًا للزيارة؛ وعلى أثر ذلك، تأهَّب الرقيب للرحيل بعد أن أنهى جِعتَه وأعاد ملء غليونه.

قال وهو يتَّجه نحو الباب: «سنَحتاج إلى سماع شهادته لإثبات أن الباب كان بالفعل موصدًا بالمفتاح من الداخل؛ أما بالنسبة لك يا سيدي، مع أنه لا يبدو أن لديك الكثيرَ للإدلاء به، أتوقع أن يأتيَك استدعاءٌ للتحقيق. فربما يتكشَّف شيءٌ جديد تستطيع إلقاءَ الضوء عليه. لكن جلسة التحقيق لن تنعقدَ إلا بعد بضعة أيام؛ إذ يجب إتاحة الوقت الكافي للتحليل بعد إجراء التشريح.»

توالت الأحداث لتُحقِّق نبوءة الضابط. ففي الموعد المحدَّد وصل الاستدعاء، وفي الموعد والمكان المحدَّدَين، حضر توم للإدلاء بشهادته إن طُلِب منه ذلك. وصل قبل الموعد المحدَّد بقليل، فاتخذ مقعدًا مريحًا نوعًا ما بمسند للذراعَين من طراز «ويندسور»، جلس فيه مُسترخيًا يُراقب وصول الشهود الآخرين، وكان من بينهم السيدةُ ميتشنز وصديقه الدكتور أولدفيلد وبولتون وفاندربوي — اللذان وصَلا معًا — وأخيرًا وليس آخِرًا المفتش بلاندي الذي تجمعه به سابقُ معرفة.

قال الدكتور وهو يجلس في الكرسيِّ المجاور له: «مرحبًا يا بيدلي، أكره أن أراك متورطًا في أمرٍ شائن كهذا. لكنَّه أمر غريب للغاية، أليس كذلك؟ ها قد حضر قاضي التحقيق وهيئةُ المحلفين؛ أعتقد أنهم ذهبوا لمعاينة الجثة، ويبدو أنهم لم يَستمتعوا بذلك.

حسنًا، كيف حالك؟ لم أرَك منذ وقت طويل؛ ليس منذ أن تعرَّفت بتلك الفتاة ذات المساحيق التي رأيتُك تتسكع برفقتها.»

احمرَّ وجه توم قليلًا. كان بالفعل قد أهمل أصدقاءه منذ أن استحوذَت عليه لوتا. لكن لم يكن ثمة فرصةٌ لدَحضِ ذلك الاتهام؛ فبعد أن اتَّخذ قاضي التحقيق مجلسه ونظر إلى الشهود والمراسلين الصحفيين، افتتح التحقيقَ بكلمة مقتضبة. كانت مقتضبةً للغاية بحق؛ فلم يَزِد عن قوله: «نحن مجتمعون هنا للنظر في ملابسات وفاة سيدة، تبين أنها تُدعى إيما روبي.» ثم أردف قائلًا: «لا داعي لأن أخوض في أي تفاصيل؛ إذ ستتكشَّف في شهادات الشهود؛ وبغرض إطلاعكم على الملابسات، سأبدأ بسماع شهادة الرقيب بورتر.»

عند سماع اسمه، اتخذ الرقيبُ الذي تعرف به توم مؤخَّرًا موضعَه عند الطاولة، ووقف متأهِّبًا فيما أنهى الإجراءات التمهيدية بسرعة ودقة مِهنيَّين، ثم انتظر السؤال التالي.

قال قاضي التحقيق: «أعتقد أيها الرقيب أن مِن الأفضل أن تذكر لنا ما تعرفه عن تلك القضية.» وعلى أثر ذلك، بدأ الضابط يسرد الوقائع وكأنما يقرؤها من مستند.

«في يوم الخميس الموافق ٣٠ ديسمبر من العام ١٩٣٠م، وفي تمام الساعة ٣:٤٦ مساءً، حضرت السيدة جوليا ميتشنز إلى قسم الشرطة للإبلاغ عن عثورها في غرفة بمنزلها على جُثةٍ لامرأة لا تعرفها، يبدو أنها انتحرت بتناوُل السُّم. ذكَرَت أنها كانت تُؤجِّر تلك الغرفة للسيدة شيلر، التي تَشغَلها في العادة، لكن المُستأجرة المذكورة كانت غائبةً عن مسكنها منذ مدة، ومكانها الحاليُّ ليس معروفًا. وفي معرض إجاباتها على أسئلة محدَّدة طرحتُها عليها، ذكرَت لي التفاصيل الإضافية التالية ...» وهنا ذكر الرقيب سردًا أكثرَ تفصيلًا للأحداث، بما فيها فتح السيد بولتون للباب «مستخدمًا أداةً من نوع ما»، لا داعيَ لذِكرها كونها معروفةً بالفعل للقارئ.

لدى تلقِّيه تلك التفاصيل، رافق السيدةَ ميتشنز إلى منزلها وأدخلته إلى الغرفة؛ حيث وجد الجثة والأغراض الأخرى التي ذكرَتها له. وبعد تقديم وصفٍ تفصيلي للغرفة، والجثة الجالسة، والقدح وقِنينة السم، تابع قائلًا:

«لما كانت الملابسات واضحة تمامًا، قررتُ عدم إجراء فحص مُفصَّل دون الحصول على تعليمات أخرى، وبناءً عليه، غادرتُ بعد أن أغلقت الباب وأخذت المفتاح، عائدًا إلى القسم حيث قدَّمت تقريري للمأمور. بعد سماعه، قرَّر أن مِن المستحسَن إبلاغَ السلطات العليا بالمقر الرئيسي بالوقائع كما بُلِّغَت لنا، ووجهني بمهاتفة قسم التحقيق الجنائي

بشرطة سكوتلاند يارد، وهو ما فعلته، وجاءني الرد بأنهم سيُرسلون ضابطًا على الفور. كما هاتفت أيضًا الجراح التابع للقسم، وأطلعته على الوقائع وطلبت منه الحضور في أقرب وقت ممكن.

في غضون حوالي عشرين دقيقة، وصل المفتش بلاندي من قسم التحقيق الجنائي بالسيارة، وفي اللحظة نفسِها تقريبًا وصل جراح القسم الدكتور أولدفيلد. وبناءً على التعليمات، قدتهما إلى المنزل رقم ٣٩ بشارع جيكوب وأدخلتهما الغرفة. غادر الطبيب بعد أن أنهى فحصَه، لكني مكثت حوالي عشر دقائق لمعاونة المفتِّش في معاينتِه. ثم أعطيتُه المفتاح وغادرت، تاركًا إياه يُتابع تحقيقاته.»

عند تلك النقطة، سكت الرقيب سكتة حاسمة، وتطلَّع باستفسار إلى قاضي التحقيق، الذي أجاب عن سؤاله الضمني قائلًا:

«أجل أيها الرقيب، لقد حضر المفتش بلاندي للإدلاء بشهادته، أعتقد أنه لا داعيَ لإزعاجك بشأن أيِّ تفاصيل إضافية، إلا إن كانت هيئة المحلفين ترغب في طرح أي أسئلة.»

لم يكن لدى هيئة المحلفين أيُّ أسئلة، وعلى ذلك، وبعد أن قرأ الرقيب أقواله ووقَّع عليها، عاد إلى مكانه خلف قاضي التحقيق، ونُوديَ على الشاهد التالي، الدكتور أولدفيلد.

على غِرار الرقيب، أنهى الدكتور الإجراءات التمهيدية بسرعة، وبعد أن جلس في كرسي وبدأ القاضي في استجوابه، أدلى بشهادته بالدقة والسلاسة نفسَيهما. لكن لا داعي لذكرها نصًّا. فالوصف العام للجثَّة ومحيطها ليس سوى تَكرارٍ لأقوال الشاهد السابق، لكن الطبيب أضاف إلى ذلك قائلًا:

«فحصت الجثة بحرص كما وجدتُها، خاصة فيما يتعلَّق بموضع جلوسها في الكرسي. فقد بدا لي غيرَ متوازن على نحوٍ غير مأمون، بل في الواقع بدَت أنها مُستنِدة بالكامل تقريبًا على الذراع الممتدَّة على الطاولة. عندما رفعَت تلك الذراع وتركتها تتدلَّى لأسفل، انزلقت الجثة للأمام في الكرسي، وكادت تسقط على الأرض لولا أنني رفعتُها.»

قال قاضي التحقيق: «يبدو أن هذا الموقف له دلالةٌ ما لديك. فإلامَ يُشير ذلك في رأيك؟»

أجاب الطبيب بحذر: «أعتقد أنها واقعة جديرة بالملاحظة، لكني لن أذهب لما هو أبعدُ من ذلك سوى لأن أقول إن الأمر بدا مخالفًا للاحتمالات نوعًا ما. فقد كنتُ أتوقَّع في لحظة الوفاة، عندما تَرتخي العضلات كلُّها فجأة، أن تنزلق الجثة للأمام من على الكرسي.»

تأمَّل قاضي التحقيق تلك الإجابة الحذرة لبضع لحظات ثم سأله:

«هل بوسعك تحديدُ الفترة التي مرَّت على الوفاة؟»

«تقريبيًّا فقط. سأقول إنَّ الوفاة وقعَت قبل ثلاثة أسابيع.»

«هل اكتشفتَ أي شيء آخر؟»

«ليس في تلك المرَّة، لكني فحصتُ الجثة بدقة شديدة في المشرحة، ووضعت لها وصفًا تفصيليًّا، كي تستخدمه الشرطة. هل تُريد منِّي سرد تلك التفاصيل؟»

أجابه قاضي التحقيق: «ذلك ليس ضروريًّا في الحقيقة، لكن ربما لن يكون ثمَّة ضَيرٌ من إدراج ذلك الوصف في سجلِّ الأقوال. أجل، لنسمع التفاصيل كاملة.»

وبِناءً عليه، بدأ الشاهد في سردِه: «الجثة لامرأة في الثلاثين من عمرها تقريبًا، يبدو أنها متزوِّجة؛ إذ كانت ترتدي خاتَمَ زواج، لكن لا يوجد ما يدلُّ على أنها قد أنجبت. كان طولها يبلغ خمسة أقدام وستَّ بوصات وربع البوصة، ووزنها مائةً وأربعةً وعشرين رطلًا؛ أي ثمانيةَ ستونات واثنَي عشر رطلًا. نحيلة القوام، بل في الواقع شديدة النُّحول. ذات بشَرة فاتحة، وشعرٍ أشقر أو ذهَبي. يبدو مِن طوله إلى أنه قُصَّ حتى عظْمَتي الفك منذ مدة؛ إذ يتجاوز طوله الكتفَين بشيء يسير الآن. العينان رماديَّتان على ما يبدو، ولكن تعذر معرفة لونهما بالتحديد بسبب حالة الجثة. وللسبب ذاتِه، كانت ملامحها مبهَمة بعض الشيء، لكن أمكن الجزمُ بأن أنفها صغيرٌ نوعًا ما، ذا شكل مقعَّر وقصبته ناتئة قليلًا. كان الفمُ متوسطَ الحجم وبدا محدَّد الشكل. أما أذناها فكانتا أكثرَ وضوحًا وأقلَّ تغيرًا؛ إذ كانتا ناتئتَين قليلًا، ونحيلتَين بالكامل وتكادان تَخْلوان من الشحمة، ويستقرَّان في رأسها بميل. وكان خطُّ عظْمتَي الفك مائلًا بدرجة ملحوظة، وذقنها مدببًا ومنحسرًا قليلًا.

أما بالنسبة إلى هُوية المتوفَّاة، فقد كنتُ حاضرًا أثناء نزع الثياب عن الجثة وفحصتُ كل قطعة كانت ترتديها. اثنتان منها كانتا موسومتَين بالحرفَين «إي آر»؛ وواحدة كانت موسومة بالحبر باسم «إي روبي»؛ وكان ثمة منديلٌ فاخر صغير في جيب التنورة مطرزٌ عليه اسم «إيما» بالحرير الأبيض. وبهذا يكتمل وصفُ المتوفاة.»

قال قاضي التحقيق: «أجل، وهو وصف وافٍ وواضح جدًّا. ينبغي ألا تُواجهنا أيُّ صعوبات في التعرف على هُوية الجثة. والآن نأتي إلى مسألة سبب الوفاة. هل كان بوسعك التثبتُ منه؟»

«أجل. سبب الوفاة هو التسمم بسيانيد البوتاسيوم. كانت الجرعة التي تناولتها كبيرةً جدًّا؛ إذ بلغت ستين وحدةً كاملة، وحدثت الوفاة في الحال على الأرجح، أو في غضون دقيقة أو اثنتين على أقصى تقدير.»

«هل سيانيد البوتاسيوم سمٌّ قوي المفعول إلى هذا الحد؟»

«أجل، إلى أقصى درجة. إنه يحتوي على حمض البروسيك في صورته المركزة ومفعوله مماثل له في قوته وسرعته.»

«كم تبلغ الجرعة المميتة؟»

«عادةً ما تُحدَّد بأقلَّ من خمس وحدات، على الأرجح وحدتان ونصف، لكن مثل معظم السموم، يختلف تأثيرها باختلاف الأشخاص. لكن جرعة من ستِّين وحدة تُعَد ضخمة.»

«هل أجريتَ التحليل بنفسك؟»

«أجل، بالتعاون مع البروفيسور وودفيلد. عندما أجريتُ التشريح، أزلتُ الأعضاء الداخلية وأخذتها في حاوياتٍ محكَمة الغلق وموسومة إلى معمل مَشْفى سانت مارجريت؛ حيث أجريتُ أنا والبروفيسور التحليل معًا.»

«أظن أن السم كان مصدره الأقراص التي سمعنا بها، أليس كذلك؟»

«هذا هو المفترض، كما أن التحليل أثبتَ أن الأقراص كانت مكونة بالفعل من سيانيد البوتاسيوم. لكن عندما أجرَينا الفحص، اتضحَت لنا حقيقة غريبة للغاية. فجرعة السمِّ الذي تناولَتْه قُدِّرت على الأقل بستين وحدة، والأقراص كما هو مدوَّن على الملصق على قِنينتها يحتوي كلٌّ منها على تركيز خمس وحدات، وتثبَّتنا من ذلك بالتحليل. بهذا يكون عدد الأقراص التي تناولتها تُكافئ اثني عشر قرصًا. لكن العلبة لم ينقص منها اثنا عشر قرصًا. فالملصق يُوضح أن القِنينة ممتلئة تحتوي على خمسين قرصًا يحتوي كلٌّ منها على خمس وحدات من السم؛ لذا لو كانت قد تناولت اثني عشَر قرصًا، إذن يفترض أن يتبقَّى بها ثمانية وثلاثون. لكن كان المتبقِّي بها ثلاثةً وأربعين، بزيادة خمسة أقراص عن العدد المفترض تبقِّيه.»

قال القاضي معترضًا: «لكن هذا لا يبدو لي حاسمًا للدرجة. ربما يكون قد وقع خطأٌ أثناء تعبئة القنينة. ألا تعتقد ذلك؟»

أجاب أولدفيلد بحسم: «كلا يا سيدي. لقد استبعَدْنا ذلك الاحتمال. فقد اشتريت قنينتَين جديدتَين من منتِجيها، وأحصيتُ أنا والبروفيسور الأقراص بكلِّ واحدة منهما.

كل قنِّينة منهما كانت تحوي خمسين قرصًا بالضبط؛ والحقيقة المهمة هي أن كلًّا منهما كانت ممتلئة عن آخرها. فلا يُمكنها أن تسَعَ أي قرص إضافي. بعدها جربنا القنينة التي وُجِدَت على طاولة المتوفاة، وكانت النتيجة مماثلة؛ وهي أنها لا تسَعُ سوى خمسين قرصًا فقط. فإضافة ولو قرص واحد يمنع إدخال السدَّادة بالكامل.»

بدا القاضي مندهشًا بشدة، وقال: «هذا أمر شديد الغرابة، لكن يبدو أنه لا ريبَ في تلك الحقائق. هل بوُسعك تقديم أي تفسير له؟»

«التفسير الوحيد الذي يخطر لي أن السم الذي تناولَته لم يكن مصدرُه الأقراص على الإطلاق. أو على الأقل بعضه لم يأتِ من القنِّينة قطعًا، ولو كان بعضه قد أتى من مصدرٍ آخر، فالأرجح أن يكون الكل منها. توحي لي الوقائع بأن محلولًا من السيانيد قد أُعِدَّ سلفًا، وأن ذلك المحلول هو الذي تناولته المتوفاة. لكن ذلك مجرد رأي لا أكثر.»

«بالضبط. لكن لو صح رأيك هذا، فما الداعي لوجود الأقراص؟»

أجاب أولدفيلد قائلًا: «هذا سؤال لا يختصُّ به الطب تمامًا.»

وافقه القاضي بابتسامة قائلًا: «صحيح، لكن لا داعي للتزمت. أعتقد أنَّك تفكرت في السؤال، وأود أن أسمع استنتاجك.»

«يُمكنني القول إذن إنه يبدو لي أن الأقراص قد وُضِعَت عمدًا كي تُدعِّم فكرة الانتحار.»

بدا قاضي التحقيق وقد اعتبر ذلك الاستنتاج واهيًا نوعًا ما؛ إذ لم يُواصل مناقشةَ الموضوع، بل عاد إلى موضوع التحليل.

«هل أظهر الفحصُ الكيميائي أي شيء آخر؟»

«أجل، أظهر حقيقةً أخرى ذاتَ دلالة كبيرة. بِناءً على اقتراح مني، اختبر البروفيسور وودفيلد المادة بحثًا عن المورفين بمعاونةٍ مني. وكشفَت لنا نتيجةُ الاختبار وجود آثار مؤكَّدة للعقار، غير أن حالة الجثة لا تسمح بوضع تقدير موثوق لمقداره. لكن المورفين كان موجودًا قطعًا، وبكمية معتبرة كذلك، كما ثبت من التفاعل الإيجابي للاختبار. فلو كانت الكمية ضئيلة جدًّا، لما أمكنَ اكتشافها مطلقًا.»

«هل بإمكانك إعطاؤنا أيَّ فكرة عن الكمية التي تناولتها؟»

«لقد اتفقنا على أن النتائج التي حصلنا عليها أشارت إلى وجود جرعة كاملة وإن لم تكن ضخمة؛ جرعة لا تتعدى ثُلث وحدة، أو نصف وحدة على أقصى تقدير.»

«لكن أوليس نصفُ الوحدة جرعةً كبيرة نوعًا ما؟»

«هي جرعة كبيرة جدًّا إن أُخِذَت عن طريق الحقن، لكنها لا تُعَد زائدةً للغاية إن ابتلعَتها. لكن الطبيب لا يُعطي المريض عادةً جرعةً تَزيد عن ربع الوحدة.»

«ذكرت لتوِّك أن اختبار المورفين أُجرِي بإيعازٍ منك. فما الذي جعلك تشكُّ في وجود المورفين؟»

«لم يكن شكًّا. بل احتمال خطر لي، وبدا جديرًا بالاختبار.»

«لكن ما الذي أوحى إليك بذلك الاحتمال؟»

«خطرَت لي الفكرة بعد النظر في الملابَسات غير العادية لهذه القضية. فالأمور في ظاهرها تُشير قطعًا إلى الانتحار. ولكن مع ذلك، يستحيل استبعاد احتمال القتل عن طريق إكراه الضَّحية على تناول السم. لكن من العسير جدًّا إجبار شخص على ابتلاع حتى سائل بغير إرادته، ومحاولة ذلك ستتطلَّب استخدام العنف الشديد، وهو ما سيترك آثارَه على الجثة. لكن لو أمكن إعطاء الضحية جرعة كاملة من المورفين سلفًا، فستصير خاملةً وطيِّعة للغاية وهو ما سيُسهل إعطاءها السم إلى حد كبير.

في هذه القضية، بحثتُ بدقة عن كدمات أو أي آثار أخرى للعنف، لكني لم أجد أيًّا منها؛ وهو ما بدا يستبعد احتمال القتل، لكن فقط بشرط ألا تكون الضحية قد تناولَت مخدرًا. حينها قرَّرت أن أُجري اختبارًا للكشف عن المخدِّر الأنسب والأكثر ترجيحًا في تلك الحالة؛ وهو المورفين.»

«وبعد أن اكتشفتَ وجوده، ماذا تستنتج من ذلك؟ يبدو أنك تُلمح ضمنًا إلى أن وجوده يُشير إلى احتمال القتل بالسم.»

«لم أكن لأجزمَ بذلك على نحوٍ قاطع؛ لكن حال وجود أدلة أخرى تُشير إلى احتمالية القتل، فسيكون وجود المورفين إثباتًا إضافيًّا دامغًا.»

بهذا اكتملَت شهادة الطبيب، وبعد أن اطَّلع على أقواله ووقَّع عليها، أخبره القاضي أن بإمكانه المغادرةَ لمتابعة عمله. لكنه اختار أن يعود إلى كرسيِّه لسماع الشهادات الباقية، وتدوين بضع ملاحظات.

قال قاضي التحقيق: «أعتقد أننا إنْ سمعنا شهادة المفتش بعد ذلك، سنكون قد اطَّلعنا على جميع الحقائق المعروفة للقضية، وبوسعنا أن نعرف التفاصيل التي تتخلَّلها لاحقًا من شهادات الشهود الآخرين.»

وعلى ذلك، بعد أن جلس المفتش بلاندي في الكرسي الشاغر بدعوةٍ من قاضي التحقيق، حيَّا لجنة المحلَّفين بابتسامة ودودة، ثم أنهى الإجراءات الأولية بأسلوب مَن يتلو صلاةَ

تبريك. ثم ردًّا على السؤال الافتتاحي، استهلَّ شهادته بتصريح عامٍّ، كان في الواقع تَكرارًا لما جاء في شهادات الشاهدين السابقين. وبعد أن وصف الغرفة والجثة والطاولة والأغراض العديدة التي كانت عليها، تابع قائلًا:

«بعد أن أنهى الطبيب معاينته، شرَعتُ في معاينتي، مبتدئًا بالقدح وإبريق الماء. كان عليهما عددٌ من البصمات، معظمها واضحٌ جدًّا، وكان من الواضح أنها لليدَين نفسَيهما. كانت البصمات الموجودة على إبريق الماء لليد اليُمنى، وتلك التي على القدح كانت لليد اليسرى. أخذتُ بصمات أصابع المتوفَّاة على بطاقتَين صغيرتين وقارنتُها بتلك الموجودة على القدح وإبريق الماء، وبإمكاني القولُ عن ثقةٍ إنها متطابقة. جميعُ البصمات على الإناء والقدح هي بصمات أصابعِ المتوفَّاة لا شك، ولا توجد عليهما بصماتٌ لسواها.»

«هل تعتبرُ ذلك دليلًا قاطعًا على أن المتوفَّاة تناولَت السمَّ بنفسها؟»

«كلا، بالطبع لا أعتبره كذلك. فأي شخص متحكِّم بالجثة كان بإمكانه بسهولة أن يترك بصمات المتوفَّاة على الإناء والقدح. إن القيمة الاستدلالية للبصمات تعتمدُ على الأدلة الأخرى.»

«عَلِمت أن باب الغرفة كان مقفلًا على المتوفَّاة بالمِفتاح الذي كان متروكًا في ثقبه من الداخل.»

وافقه المفتِّش وهو يبتسم له بوُدٍّ قائلًا: «أجل، لكني أيضًا علمت أن السيدَ بولتون فتح الباب من الخارج، وكان بإمكانه أن يقفله من الخارج بالمفتاح بسهولة تاركًا المفتاحَ في ثقبِه بالداخل. في الواقع، هذا أمر يفعله المجرمون كثيرًا، بخاصة لصوص الفنادق الذين يملكون أداةً خاصَّة مصنوعة خصِّيصى لذلك الغرض، تُشبه إلى حدٍّ ما ملقطَ خلع الأسنان الذي يستعمله طبيبُ الأسنان. فبواسطة هذه الأداة يستطيعون الإمساكَ بالمفتاح من الخارج، وإدارتَه لفتح الباب، ثم ارتكاب سرقتهم، ثم إعادة غلق الباب بالمفتاح تاركين المفتاحَ في الثقب الداخلي عند مُغادرتهم المكان.»

«هل لديك سببٌ للاعتقاد بأن باب غرفة المتوفَّاة أُغلِق من الخارج بهذه الطريقة؟»

«ليس بتلك الأداة التي ذكَرتها. فتلك الأداة لها فكَّين حادَّين؛ لذا عادةً ما تترك خدوشًا صغيرة على المفتاح. وقد فحصتُ المفتاح بحثًا عن أي خدوش، لكني لم أجد أيًّا منها. ومع ذلك أعتقد أن الباب أُوصِد من الخارج باستعمال أداة مرتجَلة بسيطة جدًّا. ربما من الأفضل أن أشرح تلك الطريقة قبل أن أذكر الأسباب التي دعَتني إلى ذلك الاعتقاد. الإجراء — المعروف جيدًا للشرطة — هو كالآتي: يُوضَع المفتاح في قُفل الباب على نحوٍ يجعل

إدارته ربع دورة كافيةً لفتح مزلاج القفل؛ ثم يُمرَّر قضيبٌ رفيع، مثل عود ثقاب سميك أو سيخ صغير أو قلم رَصاص، عبر رأس المفتاح، وتُعقَد أنشوطة في طرَف قطعة من الخيط ثم تُربَط في القضيب. يجب أن يظل الخيط محكمَ الشد كي لا تنزلق الأنشوطة. بعد ذلك يخرج المدبر من الغرفة ويُغلق الباب خلفه ممررًا الخيط المشدود بإحكام في المسافة بين حافَة الباب وعضادته وفي مستوًى أعلى من مستوى المفتاح؛ بعدها يُشَد الخيط بثبات فتكون النتيجة هي ارتفاعَ القضيب الصغير مديرًا المفتاحَ فينفتح مزلاج القفل. بعد أن يدور المفتاح ربع دورة ويُقفَل الباب، تنزلق الأنشوطة من القضيب، ويُجذَب الخيط إلى الخارج عبر الفُرجة بين الباب وعضادته، ويسقط القضيب الصغير على الأرض أو يندفع من المفتاح ويسقط بعيدًا.»

بدا القاضي متشككًا بعض الشيء. ثم قال: «تبدو فكرة عبقرية جدًّا، لكنَّ فيها شيئًا من المخاطرة بالنسبة لشخص ارتكب جريمة قتل لتوِّه. هب أن الخُطة فشلت.»

أجاب المفتش: «لكنها لا يُمكن أن تفشل يا سيدي. إن لم تنجح في المحاولة الأولى، فما على المجرم سوى أن يفتح الباب ويُحاول مجددًا. ربما إن شرحت لك آليتها عمليًّا فسيتضح لك الأمر.»

فتح حقيبة أوراق أحضرها معه وأخرج منها قطعة مسطَّحة من الخشب مثبَّتًا بها قُفلٌ ومصنوعًا خلالها ثَقبٌ للمفتاح. أدخل المفتاح به، ثم أخرج عودَ ثقابٍ سميكًا وقطعة من الخيط في أحد طرفَيها أنشوطة. أدخل عود الثقاب في رأس المفتاح، ثم ثبته في هذا الموضع بينما أدخله في الأنشوطة، وشد الخيط بإحكام.

قال: «الآن راقِب ما سيحدث. المفتاح مقابلٌ لك وأنا أقف على الجانب الآخر من الباب.»

ثبَّت قطعة الخشب على الطاولة بإحكام، ولف الخيط المشدود بإحكام إلى الخلف، ثم جذبه بقوة. على الفور، شوهِدَ المفتاح يدور، ومِزلاج القفل يندفع للخارج، والأنشوطة تنسلُّ من عود الثقاب الذي اندفع من الباب وطار عبر الطاولة.

كان تأثير التجرِبة العملية جليًّا. فقد ابتسم المحلَّفون وأومَئوا برءوسهم، حتى القاضي أقرَّ باقتناعه.

قال المفتش وهو يلتقط عودَ الثقاب ويفحصه بعدسة: «والآن يا سيدي، سأطلب منك أن تفحص عود الثقاب ذاك. قرب منتصفه، سترى خطًّا منحنِيًا محززًا قصيرًا على أحد الجانبَين، وعلى الجانب المقابل على مسافة نحو نصف بوصة من رأسه، سترى علامةً

أصغر حجمًا وأقلَّ وضوحًا. وعلى الجانب الآخر من عود الثقاب؛ حيث ثُبِّتت به أنشوطة الخيط، سترى أربعة حزوز صغيرة، واحدًا على كل جانب، وإن وضعتَ عود الثقاب في رأس المفتاح كما كان عندما جذبت الخيط، فسترى أن الحزَّين على جانبَيه يُقابلان الحواف الحادة لرأس المفتاح.»

وأوضح آلية ذلك عمليًّا، ثم مرَّر عود الثقاب وعدستُه المكبِّرة إلى قاضي التحقيق الذي فحصه باهتمام بالغ ثم مرَّره إلى هيئة المحلَّفين.

قال قاضي التحقيق بعد أن مر عودُ الثقاب على الجميع: «حسنًا أيها المفتش، لقد قدمتَ لنا توضيحًا عمليًّا قاطعًا لتلك الطريقة، وأنا واثقٌ من أننا جميعًا اقتنعنا بقابليتها للتنفيذ. سؤالي التالي هو هل لديك أيُّ دليل على أنها استُخدِمَت بالفعل؟»

أجاب المفتش على ذلك السؤال بأنْ فتح حقيبته مرة أخرى وأخرج منها أنبوبًا زجاجيًّا مقفلًا بسدادة من الفلِّين بداخله عود ثقاب كبير، على طرَفه بقعة من شمع الختم الأحمر. ثم أخرج من جيبه مِفتاحًا، وأخرج عود الثقاب من الأنبوب ثم وضعه هو والمفتاحَ على الطاولة أمام قاضي التحقيق.

قال: «عود الثقاب هذا الذي ميَّزته بشمع الختم منعًا للخطأ، هو عود كبيرُ الحجم من إنتاج شركة «بريانت آند ماي» كما ترى. عثرت عليه على أرضية الغرفة (التي سأُشير إليها باسم غرفة المتوفَّاة) تحت خِزانة صغيرة، على بُعد قدمَين وثلاث بوصات من الباب. هذا هو المفتاح الذي أُقفِل به الباب. ستجد على عود الثقاب ستةَ حزوز مطابقة تمامًا لتلك الموجودة على عود الثقاب الآخر الذي معك. الحزَّان الجانبيان يُناظران تمامًا الحواف الحادة لرأس المفتاح. لا شك لدي أن عود الثقاب ذلك استُخدِم لقُفل ذلك الباب؛ وما يُؤكد ادِّعائي ذلك علامة محززة وجدتُها على الجانب الحادِّ من حافة الباب، في المكان نفسِه الذي يُفترَض أن يكون الخيط قد مر منه، كما ثبَت بالتجرِبة العملية. لا أستطيع أن أحضر الباب، لكن معي طبعة تُظهر تلك العلامة بوضوح صنعتُها على ورقة وضعتها عليها، ثم حكَكتُها بكتلة من مركب شمعي أسود.»

ناول الورقة لقاضي التحقيق، الذي مرَّر الطبعة إلى رئيس هيئة المحلَّفين بعد أن عاينها، ثم التفت مرة أخرى إلى الشاهد.

«لقد قدمتَ لنا توضيحًا عمليًّا شاملًا ومقنعًا أيها المفتش؛ لكنه يُثير سؤالًا آخَر. يبدو أن المفتاح الذي أريتَنا إياه هو مفتاح باب الغرفة التي عُثِر بداخلها على جثة المتوفاة. لكن مَن يكون صاحبه؟ الافتراض هو أن صاحبته هي السيدة شيلر مستأجرة الغرفة. لكن هل هو مفتاحها فعلًا، أم مفتاح مماثل له؟ هل بوُسعك أن تجيب عن ذلك السؤال؟»

«بوسعي إجابته وفقًا لما سمعته فحسب. أخبرتني السيدة ميتشنز أن ذلك المفتاح هو المفتاحُ الأصلي الذي أعطته للسيدة شيلر. فقد ميزَته من علامةٍ فيه. وبما أنها أحدُ الشهود، فإن بوُسعها أن ترويَ لك التفاصيل بنفسها؛ لكني أعتقد أن ذلك هو مِفتاحُ السيدة شيلر الخاصُّ بلا شك.»

«السؤال التالي هو أين السيدة شيلر؟»

ارتسمت على وجه المفتش ابتسامةٌ متأملة. أجاب: «أتمنى لو استطعت الإجابة على ذلك السؤال. فمنذ أن اكتشفنا الأمر، ونحن نُحاول التواصل معها، لكننا لم نستطع معرفةَ أي شيء عن مكان وجودِها. يُقال إنها في بريمنجهام، لكن ذلك عنوان مبهَم جدًّا، حتى لو كان صحيحًا. لقد نشرنا إعلانًا في الصحف نُطالبها فيه بالتواصل معنا، لكن لم يأتِنا منها رد.»

«إذن فقد اختفَت فعليًّا؟»

«يبدو الأمر كذلك. على أي حال هي مفقودة.»

قال قاضي التحقيق: «أهمية ذلك الأمر هو أنه لو كان هذا المفتاح مفتاحَها، فلا بد أن ثمةَ صلةً ما تربطها بالمتوفاة.»

وافقه بلاندي: «بالضبط يا سيدي. هذا ما يجعلنا مهتمِّين أشد الاهتمام بالتواصل معها.»

كانت تلك هي المشاركةَ الأخيرة للمفتش، وبعد أن وقَّع على أقواله وعاد إلى مقعده، نُودي اسم جوليا ميتشنز، فتقدَّمَت السيدة للإدلاء بشهادتها، التي كانت في معظمها لا تُضيف أي شيءٍ ذي بال. فهي لم تسمع قَط بامرأة تُدعى إيما روبي أو ترَها. ولم تكن تعرفُ أي شيء عن مستأجِرة غرفتها السيدة شيلر. كانت تلك السيدة قد استأجرت الغرف السكنية بالطابق الأرضي مفروشة، لكنها أضافت بعض الأثاث إليها. لم تُقدم لها أي خطابات توصية، لكنها كانت تدفع الإيجار — نقدًا كلَّ شهر — مقدمًا. قالت إنها لا تحتاج إلى مَن يقوم على خدمتها بل لا تُريد أن يُزعجها أحد وهي تُؤدي عملها، وهو الفن. نادرًا ما كانت الشاهدةُ تراها إلا عند دفع الإيجار. كان أسلوبها مهذبًا لكن ليس وَدودًا. كان لها جرسٌ كهربائي منفصل تحته لوحة نُحاسية صغيرة تحمل اسمها، ولوحة نُحاسية أخرى قابلة للإزالة معلَّقة على الجدار، كانت تُزيلها كل ليلة. كان لديها مِفتاح للبوابة خاصٌّ بها وكذلك مفتاحٌ لغرفة النوم وغرفة الجلوس. كان باب غرفة النوم مغلقًا بالمفتاح طوال الوقت، وكانت دائمًا توصِد باب غرفة الجلوس عندما تخرج.

لم ترَ الشاهدةُ أي زائرين يأتونها إلا السيد بيدلي ورجلًا أسمرَ البشرة، وكانت لا تراهما إلا نادرًا. كانت تعرف السيد بيدلي شكلًا منذ بضع سنوات. ولا تعرف ما إذا كانت السيدة شيلر قد غابت عن المنزل من قبل. ولاحظت غياب اللوحة من الجدار لثلاثة أسابيع تقريبًا، وبعدها بدأت تشم رائحةً كريهة في الردهة.

قال القاضي: «عودة إلى موضوع المفاتيح. وُجِد مفتاح في قفل باب غرفة الجلوس. لو تكرم المفتش بلاندي وأقرضَنا المفتاح لبرهة، فهل بإمكانكِ أن تُؤكدي لنا ما إذا كان هو المفتاحَ نفسَه الذي أعطيتِه للسيدة شيلر؟»

أجابته: «أنا واثقة من أنني أستطيع ذلك يا سيدي.»

هنا أخرج المفتش المفتاح، وبعد أن أخذ حيطته وربط قطعة صغيرة من الخيط حول رأس المفتاح، مرَّره إلى قاضي التحقيق الذي ناوله بدوره للشاهدة.

قالت السيدة ميتشنز بعد أن ألقت عليه نظرة واحدة سريعة: «أجل يا سيدي، هذا هو مفتاح السيدة شيلر الخاص.»

قال القاضي: «تقولين ذلك بثقة شديدة. فكيف تستطيعين تمييز هذا المفتاح عن كل المفاتيح الأخرى؟»

أجابت: «بالطريقة الآتية يا سيدي. عندما استأجرَت السيدة شيلر تلك الغرف، كان لباب غرفة الجلوس قفلٌ ضخم قديم الطِّراز ذو مفتاح كبير يصعب استخدامه. وجدَته السيدة شيلر غيرَ مريح تمامًا؛ لذا استدعيتُ صانع الأقفال كي يُركب قفلًا أحدث بمفتاحٍ أصغر. أعطاني مفتاحَين لذلك القفل الجديد وقررتُ أن أحتفظ بأحدهما على سبيل الاحتياط حال ضياعِ الآخر؛ لكني رأيت أن من الأفضل أن أضع علامة مميزة على كِلا المفتاحين منعًا للخطأ؛ لذا حفر زوجي حزًّا على مقبض المفتاح الذي كنت أعتزم إعطاءه للسيدة شيلر، وحزَّين على المفتاح الآخَر كي يَبِينَ أنه المفتاح الاحتياطي. ذلك المفتاح به حزٌّ واحد؛ لذا فهو مفتاح السيدة شيلر، وها هو المفتاح الآخر ذو الحزَّين.»

وأثناء حديثها، أخرجَت من حقيبة يدها مفتاحًا ووضعته بجانب الآخر على الطاولة.

التقط القاضي المفتاحَين وبعد أن قارن بين رأسيهما سريعًا، مررهما لهيئة المحلفين، وما لبث أن عاد المفتاحان إلى مالكيهما.

قال القاضي: «هذا دليل بالغ الأهمية وقاطع تمامًا. لقد صِرنا نعرف يقينًا الآن أن المفتاح الذي وُجِد في الباب هو مفتاح السيدة شيلر. وهي فقط مَن يستطيع أن يُفسر لنا كيف استقر به المقام حيث وُجِد.» ثم التفت إلى الشاهدة وأردف: «أظن أنك لا تستطيعين إعطاءنا أي فكرة عن مكانها المحتمل.»

أجابته: «كلا يا سيدي. فلم أكن أدري أنها تركَت المنزل؛ وعندما لاحظتُ تلك الـ... الرائحة الكريهة للمرة الأولى، ظننتُ أنها ترقد ميتة في غرفتها.»

«على ذِكر ذلك، كان معك مفتاحٌ احتياطي. فلِم لَم تُحاولي دخول تلك الغرفة؟»

«لقد حاولنا بالفعل يا سيدي، لكن المفتاح الآخر كان متروكًا في القفل.»

«أجل بالطبع. حسنًا يا سيدة ميتشنز، لقد قدَّمتِ لنا شهادة في غاية الأهمية، والآن إن لم يكن قد خطر ببالك أي شيء آخر، أعتقد أنه لا داعي لأن نُعطلك أكثر من ذلك.»

كان الشاهد التالي هو توم بيدلي. لكن توم لم يكن يعرف شيئًا عن أي شيء، وهذا ما قاله. كان ما أراحه أن لم تُطرَح عليه أسئلة عن قدرات لوتا الفنية؛ وكان إسهامُه الوحيد هو تقديم رواية مختصرة لكيفية تعرُّفِه بلوتا، وتصريح محدد للغاية بشأن طبيعة علاقته بها، ووصفٌ مختصر لرحلتهم الاستكشافية إلى غابة إيبنج؛ لكونها المرةَ الأخيرة التي رآها فيها. كان الشاهد التالي هو ناثانيل بولتون، الذي شهد بأن الباب كان مقفلًا بالمفتاح من الداخل بلا شك عندما حاول فتحه، وأنه استنتج من السلاسة التي دار بها المفتاح أن القفل كان يُزَيَّت بانتظام. كما شهد بأنه لم يواجه أيَّ صعوبة في فتحه بأداة بسيطة من سلك مثنٍ (نسي إحضارَها معه للأسف) واستطاع إعادة غلقه بسهولة مماثلة. لم يكن يعرف أي شيء عن السيدة شيلر التي تعتبر غريبة فعليًّا بالنسبة إليه.

«أصغَت» هيئة المحلفين إلى شهادة الشاهدَين الأخيرَين باهتمامٍ فاتر بعضَ الشيء؛ لكن عندما نُودي اسمُ الشاهد التالي ونهض السيد ويليام فاندربوي ذو القامة المهيبة، تيقظ انتباههم بدرجة ملحوظة. أدرك الشاهد الجديد ذو المظهر المميز والثياب المهندمة التي لا تشوبها شائبة ذلك، فبدا عليه شيءٌ من الخجل بطبيعة الحال وهو يسير إلى الطاولة؛ لكن بعد أن تلا القسَم، وذكر بياناته الشخصية — من كونه محاميًا عضوًا بجمعية إنر تيمبل — بثقة كبيرة، وأدلى بشهادته بوضوح، ووقار ورِباطة جأش كاملَين.

لم يكن يعرف شيئًا عن الفاجعة، في حدِّ ذاتها، وسمع بها للمرة الأولى من مكتب قاضي التحقيق. ولم يرَ امرأة تُدعى إيما روبي أو يسمعْ بها قط، ولا يعرف أي شيء البتة عن الملابسات المتعلقة بوفاتها. بهذا انتهى الجزء الأول من الاستجواب، أما ما تبقى من شهادته فكان يتعلق فقط بالسيدة لوتا شيلر. بعد أن وصف بداية معرفته بها في مرسم توم بيدلي، أجاب عن أسئلة قاضي التحقيق بإجابات وافية وصريحة وإن لم يزِدْ عنها شيئًا طواعية.

سأله القاضي: «هل كنت ترى السيدة شيلر كثيرًا؟»

«أجل، كنت أراها يوميًّا تقريبًا لفترة، وكثيرًا ما كنا نقضي أيامًا كاملة معًا.»

«وكيف كنتما تقضيان الوقت في تلك المرات؟»

«في زيارة معالم المدينة في الأغلب: المسارح والحفلات ودُور السينما والمتاحف والمعارض الفنية. وكنا نتناول وجباتنا في المطاعم.»

«هل كنتما عادة تتقابلان حسَب موعد محدَّد سلفًا.»

«كلا، بل كنت دائمًا ما أمرُّ عليها في مسكنها، ثم أُوصِلها إليه ليلًا.»

«عندما كنت توصلها إلى المنزل، هل كنت تدخل؟»

«كلا، لم أفعل ذلك قط. كنت أوصلها حتى الباب فحَسْب. حين كنت أزورها، كنت عادة ما أدخل إلى المنزل لبضع دقائق، لكني لم أكن أدخله قط ليلًا.»

«سأطرح عليك سؤالًا لستَ ملزَمًا بإجابته إن كان لديك أي أسباب تمنعك من ذلك. السؤال هو: ما طبيعة العلاقة التي تجمعك بالسيدة شيلر على وجه التحديد؟ هل كنتما مجرد صديقين، أم كانت تربطكما علاقة عاطفية، أم كنتما حبيبَين بالفعل؟ تذكَّر أني لا أُلزمك بالإجابة عن ذلك السؤال.»

أجاب فاندربوي بهدوء: «ليس ثَمة ما أحتاج إلى إخفائه. لقد كنا أكثرَ من مجرد صديقَين عاديين. بل يمكنني القول إن علاقتنا كانت عاطفية، على الأقل من جانبي؛ لا أستطيع تأكيد ذلك من جانبها مع أنها بدَت مخلصةً لي إلى حدٍّ ما. لكننا لم نكن حبيبين قطعًا.»

«هل كنتما تتبادلان القبلات على سبيل المثال؟»

«كلا، لم أُقبِّلها قط. فقد بينَت لي بوضوح لي أن القبلات غير مسموح بها.»

«ذُكِر أنكما تبادلتما قِلادتَين بعينَيهما. ألا تعتبرهما رمزَين للتعبير عن الحب؟»

«كلا، لقد صُنِعا بإيعاز منها كي يكونا تَذكارًا عندما أعود إلى إفريقيا.»

«متى رأيت السيدة شيلر آخرَ مرة؟»

«في الثامنَ عشر من نوفمبر، يوم رحلتنا إلى غابة إيبنج التي تحدث عنها السيد بيدلي.»

«هلا ذكرتَ لنا بعضًا من تفاصيل ما حدث بعد أن افترقتما عن السيد بيدلي؟»

«سِرنا حتى هاي بيتش كما أرشدَنا، وتناولنا الغداء في نُزل كينجز أوك. ثم انطلقنا في جولة داخل الغابة، وسرعان ما ضللنا طريقَنا. بعد أن هِمْنا على وجهنا لوقت طويل، قابلنا أحد حراس الغابة، وأرشدَنا إلى الطريق إلى لوتون، وبشيء من الصعوبة — إذ كان

الظلام قد بدأ يحلُّ — وجَدْنا طريقَنا إلى هناك، ومنها استقلَلْنا قطارًا إلى لندن أخيرًا. أوصلتها إلى المنزل وتمنيت لها ليلة سعيدة على عتبة بابها في حوالي التاسعة والنصف. كنا على متن القطار حين أخبرتني للمرة الأولى أنها ذاهبةٌ للإقامة في بريمنجهام مع بعض أصدقائها.»

«هل أعطَتْك عنوان إقامتها هناك؟»

«كلا. قالت إن من الأفضل ألا نتبادل الخطابات، وأنها ربما تزور أصدقاء لها في مكان آخر؛ لكنها وعدَت بأن تُخبرني عند عودتها، مع أنها لم تعرف لها موعدًا. منذ ذلك الحين لم أرَها أو تَرِدْني أخبارٌ عنها.»

كانت تلك هي فحوى شهادة فاندربوي، وبعد بضعة أسئلة أخرى لم تكشف عن جديد، اطلع قاضي التحقيق على ملاحظاته.

«أظن أن الشاهد أخبرنا بكل ما يعرفه عن تلك القضية الغريبة، ولا داعي لأن نُؤخره أكثرَ من ذلك إلا إن كانت هيئة المحلفين تود طرح أي أسئلة.»

نظر متسائلًا إلى هيئة المحلفين، ولما لم يُبدِ أيٌّ منهم أي إشارة، قرأ الشاهد أقواله ووقَّع عليها، وسمح له القاضي بالمغادرة بعد أن شكره على شهادته الصادقة والمفيدة، فعاد إلى مقعده بجوار السيد بولتون.

كانت الشاهدة التالية — التي تبيَّن أيضًا أنها الأخيرة — سيدة عجوز ضئيلة الجسد لها ملامح ماكرة بعض الشيء، تقدَّمَت إلى الطاولة تعلو وجهَها ابتسامةٌ متكلَّفة بها اعتزاز بالنفس، وأدْلَت بشهادتها طواعية وباستمتاع واضح. كان اسمها جين بيجهام، تقطن بالمنزل رقم ٩٨ بشارع جيكوب، لا عمل لها سوى حياكة الجوارب وبعض السلع الأخرى وبيعها؛ من أجل زيادة الدخل البسيط الذي تركه لها زوجها الراحل. كانت عادةً ما تجلس بجوار النافذة، وكان ذلك في جزء منه التماسًا للضوء، لكن السبب الأساسي أنها حائكة محنكة لا تحتاج إلى أن تُبقي بصرها على ما تَحيك؛ لذا كان بوسعها أن تُسلي نفسها بمراقبة ما يحدث في الشارع. كانت تعرف جميع جيرانها شكلًا، وتعرف الكثير عن عاداتهم ونشاطاتهم؛ ولأن منزلها يقع مقابل منزل السيدة ميتشنز مباشرة، كانت ترى السيدة شيلر كثيرًا. تذكرت أن تلك السيدة انتقلت للسكن بالمنزل ومعها أثاثها المحدود منذ حوالي ستة أشهر، وعلقَت اللوحة المعدنية (التي عبَرت الشارع في اليوم نفسِه كي تقرأ الاسم المكتوب عليها).

عقَّب القاضي قائلًا بابتسامة: «يبدو أنك أوليتِ اهتمامًا كبيرًا للسيدة شيلر.»

«هذا صحيح يا سيدي. فقد تساءلتُ ماذا تفعل امرأة مثلها؛ تضع مساحيقَ التجميل وترتدي أحذية ذاتَ كعب عالٍ في شارعنا الهادئ؛ في الواقع، كنت أشكُّ في أن أخلاقها ليست كما ينبغي.»

قال القاضي: «قلة قليلة منا فقط أخلاقهم كما ينبغي يا سيدة بيجهام، لكن ارتداء أحذية ذات كعب عالٍ أو وضع مساحيق التجميل ليس بجريمة. فمعظم النساء يفعلن ذلك هذه الأيام.»

«هذا صحيح يا سيدي، عارٌ عليهن. على أيِّ حال، في غضون أسبوع من وصولها، رأيتُها تتَّجه إلى باب السيد بيدلي وتدقُّ الجرس، وعندما فتح الباب رأيتُ أنه لا يعرفها ولا يبدو عليه أنه يودُّ ذلك. لكنها دخلَت ومكثت نصف الساعة. بعد ذلك، اعتادت التردُّد عليه كثيرًا، ومرة أو مرتين، ذهب السيد بيدلي إلى مسكنها قرابةَ وقت الشاي، وأحيانًا كانا يعودان إلى بيتهما معًا وكأنما التقيا في مكان آخر.

ثم بعد شهر أو اثنين، ظهر في المشهد رجلٌ أسمر البشرة؛ ذلك الرجل الذي أدلى بشهادته لتوِّه، السيد فاندربوي. في البداية كان يذهب إلى مرسم السيد بيدلي، ويبدو أنها كانت تعلم بوجوده هناك؛ إذ كانت تنسلُّ إلى هناك وتدقُّ الجرس وبعد ذلك تخرج برفقة السيد فاندربوي. ثم صار يألف زيارتها في مسكنها، وكانا يخرجان معًا ولا يعودان قبل حلول الليل، وأحيانًا في وقت متأخر جدًّا.»

هنا اعترضَ مُحلَّف نابهٌ قائلًا: «لقد سبق أن سمعنا كلَّ ذلك.» ووافقه القاضي قائلًا: «من الأفضل أن نتخطى ذلك.» وتابع قائلًا: «هلا تفضلتِ بإخبارنا متى كانت آخرُ مرة رأيتِ فيها السيدة شيلر؟»

نظرَت الشاهدة نظرة حانقة إلى المحلَّف وأجابت بعد زفرة استياء:

«منذ حوالي ثلاثة أسابيع. رأيتُها تعود إلى المنزل برفقة السيد فاندربوي في حوالي التاسعة والنصف مساء، وبدا من مظهرها أنها شربت حدَّ السُّكر.»

سألها القاضي: «ما الذي دعاك إلى اعتقاد ذلك؟»

«بدا لي يا سيدي أنها تترنَّح بعض الشيء، وكانت متشبِّثة بذراعه؛ وتلك لم تكن عادتَها. وعندما وصلا إلى الباب، كان هو مَن أدخلَ المفتاح وفتح وساعدها على الدخول.»

«هل دخل إلى المنزل؟»

«أجل، ومكث بالداخل حوالي ساعةً ونصف الساعة؛ فقد رأيته يخرج بعد الساعة الحاديةَ عشرة ببضع دقائق. تصادف أن توجهتُ للنافذة في ذلك الوقت.» (ابتسم القاضي

في تجهُّمٍ من تلك الصدفة) «ورأيته يخرج حاملًا حقيبة — أو ربما كانت حقيبة سفر صغيرة — لم تكن معه حين دخل؛ وكان حريصًا بشدة على ألا يُحدِث أي ضجيج؛ فلم يصفق الباب، بل وضع فيه المفتاح وأغلقه دون صوت. وكان ذلك أمرًا غريبًا؛ إذ بدا أن معه مفتاحًا خاصًّا به للباب.»

«هل رأيتِ السيد فاندربوي يدخل إلى المنزل في أي مرة سابقة؟»

«لا يسَعُني أن أقول إنني رأيته يفعل من قبل. لكن إن كان معه مفتاح لمزلاج الباب ...»

وهنا قاطعها المحلف النبيه بالسؤال:

«هل بإمكان الشاهدة أن تُقسِم يا سيدي إن الرجل الذي رأته هو السيد فاندربوي؟»

سألها القاضي: «ما قولك في ذلك يا سيدة بيجهام؟ هل أنت واثقة تمامًا أن ذلك الرجل كان السيد فاندربوي؟»

«حسنًا، لقد كان يُشبهه بالتأكيد يا سيدي. إلى جانب ذلك، من عساه أن يكون؟»

«سؤالي هو: هل ميزتِ السيد فاندربوي بوضوح وعلى نحو قاطع؟»

«تمييز شخصٍ بوضوح وعلى نحو قاطع على الجانب المقابل من الشارع وفي ليلة من ليالي ديسمبر المظلمة، ودون وجود أي مصابيحَ قريبة بالشارع أمر يكاد يكون مستحيلًا. بالطبع لم يكن بوسعي تمييزُ لون بشرته وملامحه، لكن بدا لي أنه السيد فاندربوي. فمن عساه أن ...»

«لا يُهم من عساه أن يكون. هل يمكنكِ أن تُقسمي إنه السيد فاندربوي وليس أيَّ رجل آخر؟ السيد بيدلي مثلًا؟»

«يا إلهي! لم يخطر لي ذلك قط. ربما تكون محقًّا يا سيدي؛ إذ إنه يسكن بالمنزل المجاور أيضًا. لكن لا، هذا ليس ممكنًا؛ فقد رأيته يسير باتجاه طريق هامبستيد.»

«أنا لم أكن أقترح أن الرجل هو السيد بيدلي. بل كنتُ أضرب مثالًا فحسب. الحقيقة هي أنك لم تتعرَّفي على الرجل على الإطلاق. لقد افترضتِ أنه السيد فاندربوي. أليس كذلك؟»

أقرَّت الشاهدة على مضضٍ بأن الأمر كذلك؛ فانتقل القاضي إلى أمر التعرف على هُوية السيدة ليصل إلى نتيجة مماثلة. فالشاهدة لم تتعرف عليها فعليًّا. فقد سلَّمَت بأنها السيدة شيلر لأنها «بدَت تُشبهها قطعًا، فمن عساها أن تكون؟» إلى آخره.

حينها كان قاضي التحقيق وهيئة المحلفين قد فاض بهم الكيل من السيدة بيجهام، فأنزلها القاضي عن كرسيِّ الشهادة لتعود إلى مقعدها متحسرة. ثم استُدعِي كلٌّ من السيدة

ميتشنز وفاندربوي مجددًا، وأُعِيدَ استجوابهما سريعًا، لكن لم يستطع أيٌّ منهما إلقاء أي ضوء على تلك الواقعة. فالسيدة ميتشنز وزوجها يستيقظان مبكرًا، وعادة ما يهجعان إلى غرفة نومهما في الطابق الثاني في تمام العاشرة للنوم؛ وكرر فاندربوي تصريحه بأنه لم يدخل المنزل قط ليلًا. وبهذا اكتملت شهادات الشهود وبدأ قاضي التحقيق في سرد موجز ملاحظاته الذي كان مع اقتضابه واضحًا.

ابتدأه بقوله: «لا داعي لأن أرهق أعضاء هيئة المحلفين بإلقاء ملخصٍ للشهادات التي استمعتم لها بالفعل بانتباهٍ جَم، لكني سأشير فقط إلى الاستنتاجات التي تبدو منبثقةً منها. مهمتنا هي أن نتأكد متى وأين وكيف لقيت المتوفاة حتفها، وهي امرأة لا نعرف عنها شيئًا سوى أنها تُدعى إيما روبي. المكان الذي نعرفه هو المنزل رقم ٣٩ بشارع جيكوب؛ أما الزمان فلسنا متيقنين منه بالدرجة نفسِها؛ لكن الوفاة حدثت منذ حوالي ثلاثة أسابيع من وقت اكتشاف الجثة يوم الثلاثين من ديسمبر؛ أي تقريبًا يوم التاسع من ديسمبر. سبب الوفاة هو جرعة ضخمة من سيانيد البوتاسيوم، إما أن المتوفاة تناولتها بنفسها، أو أجبرها شخصٌ آخر على تناولها. إن كانت قد تناولت السم بنفسها، فربما تكون قد فعلَت ذلك سهوًا، أو بقصد إنهاء حياتها عمدًا. أما إن كان شخصٌ آخر هو مَن أعطاها السم، فذلك الشخص متهَم بارتكاب جريمة قتل عمد.

إذن ثمة احتمالات ثلاثة: السهو والانتحار والقتل. يُمكننا استبعاد السهو؛ إذ لا توجد أدلة تشير إليه؛ وبذلك لا يتبقَّى لدينا سوى احتمالَي الانتحار والقتل. ما الأدلة التي تدعم نظرية الانتحار؟ ثمة حقيقتان يبدو، إنْ نظَرنا إليهما مقترنتَين، أنهما تُشيران للوهلة الأولى إلى الانتحار على نحوٍ قاطع. الأولى هي أن بصمات الأصابع التي وُجِدت على القدح وإبريق الماء تعود إلى المتوفاة. أما الثانية، فهي أن المتوفاة عُثِر عليها وحيدة داخل غرفة مقفلة بالمفتاح الذي تُرِك في الباب من الداخل. هاتان الحقيقتان، كما ذكرت، يبدو أنهما تُشكلان دليلًا مقنعًا على الانتحار. لكن، حريٌّ بالذكر أن جرَّاحًا محنكًا تابعًا للشرطة ومفتشًا محنكًا تشكَّكا منذ البداية، مع وجود ذلك الدليل، أن تلك قضية قتل لا انتحار؛ وعندما أدلَيا بشهادتَيهما، قدَّما أسبابًا قوية لشكوكهما تلك. لننظر أولًا في شهادة المفتش بلاندي. لقد عرَفنا منه أن دليل بصمات الأصابع لا أهمية له عمَليًّا؛ إذ ليس من الصعب أن يكون القاتلُ هو مَن صنعها مستخدمًا أصابعَ الضحية بعد وفاتها.

نأتي إلى الباب الموصَد بالمفتاح. إن حقيقة أن السيد بولتون قد فتح الباب من الخارج وكان يستطيع إقفاله مرة أخرى بالسهولة نفسِها ينفي الدلالة القاطعة لذلك الدليل.

فذلك يُثبت أنه كان من الممكن إقفالُ الباب من الخارج بالمفتاح. لكن المفتش في شهادته ذهب إلى ما هو أبعدُ من ذلك. فقد برهنَ لنا على أن الباب قد أُقفِل من الخارج في الواقع. لا داعي لأن أُذكِّركم بشرحه التوضيحي المقنع، لكن عليَّ أن أؤكد لكم على الأهمية البالغة لعود الثقاب الذي وجده باعتباره دليلًا. إن عود الثقاب ذاك كان يحمل علاماتٍ مطابقةً تمامًا لرأس ذلك المفتاح بعينه، وكذلك العلامة الواضحة لعُقدة الخيط. وقد عُثِر عليه بالقرب من الباب في الموضع المتوقَّع إيجاده فيه إن كان قد استُخدِم بالطريقة التي وصفها المفتش وأوضحها عمليًّا؛ والباب نفسه كان يحمل علامة مماثلة تمامًا في الموضع الذي كان ليتركَه فيه خيط مشدود، استُخدِم بالطريقة المذكورة. بافتراض أن الباب أُقفِل من الخارج باستخدام عود ثقاب وخيط، فتلك الشواهد كلها متسقةٌ تمامًا مع ذلك الافتراض ومُعلَّلة في ضوئه. لكن في ضوء أي افتراض آخر، فلا معنى لها على الإطلاق. أُسلِّم بأن لا مناص من دليل عود الثقاب ذاك. فنحن مرغَمون على الاعتقاد بأن الباب أُقفِل من الخارج، ومن ثَم لم تكن المتوفاة هي مَن أغلقته.

أما شهادة الطبيب بخصوص المورفيا — أو المورفين كما يُدْعى الآنَ عادة — الذي وجده في الجثة، والدلالة التي استشَفَّها من وجوده، فكانت مثيرة للدهشة للغاية؛ ولكنها ازدادت غرابةً أكثر وأكثر عند سماعنا شهادة السيدة بيجهام. بوسعنا اعتبارُ تحديدها لهُوية الشخصَين اللذَين رأَتهما مجردَ تخمين، وهو في الأغلب تخمينٌ خاطئ. لكن ما تُثبته شهادتها هو أنه في ليلة مظلمة قبل حوالي ثلاثة أسابيع من اكتشاف الجثة (التي مر على وفاتها حوالي ثلاثة أسابيع)، دخل ذلك المنزلَ رجلٌ وامرأة باستخدام مفتاح.

مَن هما هذان الشخصان؟ لننظر أولًا في أمر المرأة. افترضت السيدة بيجهام أنها السيدة شيلر، وهو ما قد نستنتج منه أنها إمَّا كانت السيدة شيلر بالفعل أو امرأة اعتقدت خطأً أنها هي. لكن السيدة ميتشنز والسيد بيدلي كلاهما اعتقد خطأً أن المتوفاة هي السيدة شيلر، وكلاهما كان يعرف تلك الأخيرةَ جيدًا. لذا من الممكن أن تكون المرأة التي رأتها السيدة بيجهام هي إيما روبي؛ ومن هنا تتأتَّى الأهمية البالغة لشهادة الطبيب. لقد تراءى للسيدة بيجهام أن المرأة كانت ثملةً حدَّ الترنُّح؛ والطبيب في شهادته أقسَم على أن المتوفاة تناولت جرعة كبيرة من المورفين. لكن قد يكون من السهل الخلطُ بين تأثير المورفين وتأثير الكحول على الشخص. لذا تضعُنا تلك الإفادة أمام احتمالية قويةٍ بأن المرأة التي رأتها السيدة بيجهام كانت المتوفاةَ بالفعل.

والآن لننظر في أمر الرجل. لا يسعنا أن نقول عن مظهره سوى أن السيدة بيجهام ظنَّت أنه السيد فاندربوي، وأن ثمة تشابهًا عامًّا ما بينه وبين السيد فاندربوي في العمر والهيئة. غير أن ذلك لا يعدو كونه مجردَ تخمين. لكن ثَمة ثلاث حقائقَ تبدو مهمة للغاية. هذا الرجل فتح البوابة بمفتاح؛ لكن تلك حقيقة ليست مهمة كثيرًا إذ ربما تكون المرأة هي مَن أعطته إياه. الحقائق الثلاث ذات الدلالة اللافتة التي أشير إليها هي: أولًا: أن المفتاح ظل بحوزته حين خرج. ثانيًا: أنه اتخذ أقصى درجات الاحتياط لئلا يُحدِث جلَبة بأنِ استخدم المفتاح لغلق الباب. ثالثًا: أنه خرج حاملًا حقيبة يدٍ أو حقيبة سفر لم تكن معه حين دخل.

ماذا كان يفعل بمِفتاح البوابة الذي ليس مِلكَه قطعًا، أيًّا كانت هُويته؟ الاحتمال القوي هو أنه احتفظ به فقط بغرض إغلاق الباب دون صوت. لكن لِمَ ذلك الخروج الصامت التسلُّلي الغريب؟ لِمَ كان حريصًا إلى ذلك الحدِّ على ألا يعرف أحدٌ من سكان المنزل بمغادرته؟ وأخيرًا، لمن الحقيبةُ التي كان يحملها، وماذا كان بداخلها؟ بعد أن نسأل أنفسنا تلك الأسئلة، دون أن ننسى أن الرجل كان في المنزل مع المرأة وحدَهما على ما يبدو، لساعةٍ ونصف الساعة، فستبدو لنا الإجابة أنَّ تصرُّفه يُشير بقوة بأنه تصرفُ شخص بصددِ الفرار من مسرح جريمة، آخذًا معه أغراضًا معينة تُدينه ذاتَ صلةٍ بالجريمة. لكن ذلك في رأيي مجرد إيحاء. ولا شيء أكثر من ذلك إن نظرنا إليه وحده. لكن إن نظرنا إليه مقترنًا بشهادتَيِ الطبيب والمفتش، فقد يبدو أكثر من مجرد إيحاء. الحكم لكم. وأنتم تنظرون في قراركم، سيتعين عليكم الفصلُ بين بديلَين: هل لاقت المتوفاةُ حتفها بيدَيها أم بيدِ شخص آخر؟ هل انتحرت أم قُتِلت؟ تلك هي المسألة، وسأترككم للنظر فيها.»

كان الصمت الذي عمَّ قاعة المحكمة بعد أن أنهى قاضي التحقيق كلمته قصيرًا؛ قصيرًا لدرجة توحي بأن هيئة المحلَّفين كانت قد اتخذوا قرارهم بالفعل؛ ففي غضون بضع دقائق، أعلن رئيسهم أنهم قد اتفقوا على حكمهم.

قال ردًّا على سؤال القاضي: «قررنا أن المتوفاة قد لقيت حتفها بسبب سمٍّ أعطاه لها شخص مجهول.»

قال القاضي: «أجل، هذا حكمٌ بالقتل العمد. سأُدرِجه تحت ذلك الوصف، واسمحوا لي بأن أقول إنني أوافقكم تمامًا.»

وانتهت الجلسة على ذلك. نهض الشهود والمشاهدون والمراسلون، وبدَءوا في الخروج من المحكمة؛ فاتجه الدكتور أولدفيلد برفقة المفتش بسرعة إلى سيارته التي تنتظره، وانطلق توم بيدلي وبولتون وفاندربوي في الطريق إلى المرسم.

الفصل التاسع

أين لوتا؟

كدَّرَت جلسة التحقيق والأحداث التي سبقَتها مجرى حياة توم بيدلي الهادئ، وتركَته مُقَلْقَلًا بعض الشيء، وفي اليوم الذي تلا الجلسة، لم يجد في نفسه الرغبة في ممارسة عمله الطبيعي، فكرَّسه لإحصاء مخزونه من الخامات ووضعَ قائمة بما ينقصها في دفتره. كشف ذلك الإجراءُ له أن الدفتر الذي يستخدمه قد شارف على الامتلاء، وأنه لا يملك بديلًا له. لم تكن دفاتر ملاحظات توم مجردَ دفاترَ جاهزة يُمكنه ابتياعها عند الحاجة. بل كانت دفاترَ يُصممها هو بتقدير دقيق للحجم والشكل والسُّمك والغلاف المناسبين، ويصنعها له خصِّيصى متجرُ بيع أدوات الرسامين في طريق هامبستيد من ورق فاخر يصلح للرسم عليه بالقلم الرصاص أو بالحبر أو بالألوان المائية الخفيفة إن دعَت الحاجة. كان عادةً ما يطلب دُزينةً منها في المرَّة، وكلما امتلأت أوراق دفتر منها، وضعَ عليه ملصقًا بالتاريخ وخزنه على رف مع سابقيه؛ ليصير جزءًا من سلسلة لا تنفكُّ تزداد.

كانت خُطةً جديرة بالإعجاب؛ إذ إن تلك السلسلة، بجانب أنها كانت تُوفر مخزونًا من المواد المرجعية، كانت أيضًا بمنزلة دفتر يوميات متكاملٍ إلى حدٍّ كبير، وسِجلٍّ لنشاطاته وأماكنِ وجوده في أي تاريخ بعينه؛ إذ كان توم دومًا ما يضع التاريخ على رسوماته مهما كانت بسيطة، حتى الملاحظات المكتوبة. وهكذا وبعد أن أضاف إلى قائمته دُزَينة من الدفاتر التي لا غِنى له عنها، انطلق على الفور إلى المتجر الذي يُمِده بها.

عندما انعطف من شارع جيكوب إلى طريق هامبستيد، أبصرَ على مسافة قصيرة أمامه أحدَ معارفه القدامى، وهو المفتش بلاندي، منهمكًا في حديث جادٍّ مع السيدة بيجهام؛ ولما لم يكن راغبًا في مقابلة المفتش ولا السيدة بيجهام (التي كان يعتبرها في قرارة نفسه «متطفلةً أصيلة»)، عدَّل وتيرة سيره وتصنَّع الانشغال الشديد. لكن ذلك لم

يُجدِ نفعًا. فقد رآه كلاهما في اللحظة نفسِها؛ فأنهى المفتش بسرعة حديثَه مع السيدة، ومضى قدمًا لملاقاته مادًّا يده ومبتسمًا بود.

صاح مبتهجًا وهو يُصافح توم بحرارة: «تلك ضربة حظ سعيدة بالنسبة إليَّ؛ فقد كنت أودُّ الحديث معك قليلًا، وها أنت ذا.»

وافقه توم بحذر على أنه قد صار أمامه، ووقف ينتظر المستجِدَّات.

قال المفتش موضحًا: «المسألة هي أننا كنا نحاول التواصل مع السيدة شيلر لكننا لم ننجح في ذلك. إما أنها لم تُطالع إعلاناتنا أو أنها تتعمَّد الاختفاء؛ وبما أنها لن تتقدم للمساعدة من تِلقاء نفسها، أو على الأقل لم تفعل حتى الآن، فنحن مضطرون إلى اتخاذ إجراءات أكثرَ فاعلية. ولكي نفعل ذلك، لا بد أن يكون لدينا وصفٌ كامل ودقيق لها، وتساءلنا كيف لنا أن نحصل عليه؟ وبمجرد أن طرَح ذلك السؤالُ نفسَه، اتجهَت أفكاري نحوك بطبيعة الحال. قلت إن السيد بيدلي، بقوة ملاحظته الاستثنائية وذاكرتِه البصرية المدهشة، سيستطيع إعطاءنا وصفًا يُكافئ صورة فوتوغرافية بل ربما يفوقها دقة.»

تساءل توم بحذر: «هل السيدة شيلر مشتبَهٌ بها؟»

ردَّد المفتش بنبرة اندهاش: «مشتبَه بها! قطعًا لا. فلِمَ نشتبهُ بها؟ لكن بوسعها أن تُعطينا معلومات لا تُقدَّر بثمن بخصوص ذلك المفتاح على سبيل المثال، وربما عن السيدة روبي وأولئك الأشخاص المجهولين الآخَرين. أنا واثق من أنك لن ترفض مساعدتنا. فمن المصلحة العامة، ومصلحتها الشخصية أيضًا، أن يُستجلى ذلك اللغز.»

قال توم: «لست متأهبًا لتقديم وصفٍ لها ارتجالًا.»

وافقه بلاندي قائلًا: «بالتأكيد. فالذاكرة البصرية لا بد أن تنال الوقت الكافيَ للعمل، لكن لا تُطِل أكثرَ من اللازم؛ فالأمر عاجل. أقترح أن تُفكر في الأمر ثم تُدون بعض الملاحظات.»

اقترح توم وكلُّه أمل: «وأرسلها لكم بالبريد»؛ لكن المفتش قال مصححًا:

«بل تُسلِّمها لي شخصيًّا. فكما تعرف، ربما تحتاج تلك الملاحظات إلى بعض التوضيح والإسهاب. هل يمكنني أن أمرَّ عليك في مرسمك الليلة لآخذها؟»

ولما قرر توم أن من الأفضل أن يُنهي الأمر بسرعة، وافق على الزيارة، وبعد أن اتفقا على الساعة ٧:٣٠ موعدًا للزيارة، صافح المفتشَ وتركه يعود إلى السيدة بيجهام (التي كانت تترصَّدهم بانتباه من مكانٍ ليس ببعيد)، بينما أسرع هو إلى متجر مستلزمات الرسامين.

بعد أن أتم مهمته هناك، غادر المتجر واتجه ناحية الشمال، وبدأ يسير بخطوات سريعة في الميادين الهادئة كي يُفكر في الموقف. كان الأمر برُمته بغيضًا إلى أبعد حد بالنسبة إليه. فهو لم يُكِنَّ أي حب للوتا شيلر، لكنها على نحوٍ ما كانت صديقة له، وكان وفاؤه الفطري يرفض فكرة مساعدة الشرطة في مطاردتها؛ إذ كان هذا هو ما آل إليه الأمر رغم اعتراض بلاندي الاستنكاري. من الواضح أنها كانت في دائرة الاشتباه؛ ولكن إلى أيِّ مدًى، وهل تستحق ذلك، تلك أسئلة لم يشَأ توم طرحها على نفسه. لكنه لم يكن يملك خيارًا. فقد وقعَت جريمة، ومن واجبه باعتباره مواطنًا صالحًا أن يُساعد الشرطة في تحقيقاتها بشأنها قدرَ استطاعته؛ وبعد أن توصل إلى هذا القرار، توجه تلقاء منزله كي يضعه موضع التنفيذ.

فور شروعه في كتابة الوصف، انخرط فيه بدقَّته المعتادة. في إحدى الصفحات القليلة الباقية في دفتر ملاحظاته، دوَّن ما يتذكره عن لوتا بالتفصيل، مستندًا إلى الرسومات الأولية التي رسمها لها من الذاكرة لتفاصيل جانبِ وجهها وحاول تصوُّرَ ملامحها تصورًا كاملًا قدر الإمكان. أدهشته النتيجة نوعًا ما؛ إذ مع أنه رآها مراتٍ كثيرة، وأمعن النظر إليها باهتمام مشوب بالاستنكار، لم يتوقع أن تحمل ذاكرتُه وصفًا لها بتلك الدرجة من الدقة والتفصيل.

بعد أن أتم ملاحظاته، أخذ ورقة ونسخَ عليها نسخة مطابقة لما كتب كي لا يُضطرَّ إلى إخراج دفتر ملاحظاته؛ وما إن انتهى منها، حتى دق جرس المرسم في الموعد المحدد تمامًا، فوضع دفتر الملاحظات في جيبه وذهب ليفتح الباب للمفتش.

قال بلاندي عندما دخل وعلى وجهه ابتسامةُ مَن يتلو صلاة تبريك للمكان: «إنه لَلُطفٌ بالغ منك يا سيد بيدلي أن تمنحَني من وقتك الثمين بذلك القدر. لكني لن آخذَ منه الكثير. هل هذه هي الملاحظات؟»

الْتقطَ النسخة التي كان توم قد وضعها على الطاولة، التي وضع عليها حافظة أوراق أحضرها معه (أدرك توم على الفور أنها تخصُّ لوتا)، ثم مر ببصره سريعًا على الملاحظات، فيما فكر توم بقلق في دلالة حافظة الأوراق.

صاح بلاندي فورَ أن انتهى من قراءته الأولية: «مدهش! قد يعتقد المرء أن السيدة كانت تجلس أمامك وأنت تكتب تلك الملاحظات. كم هي مدهشة ذاكرة الفنان البصرية. يبدو أنك لاحظتَ وتذكرت كل شيء، حتى الاختلاف بين الأذنين. بالمناسبة، كيف يبدو نتوء دارون بالضبط؟ ربما وضحتَ لي برسم بسيط على ظهر تلك الورقة ...»

التقط توم منه الورقة وقلبها، ورسم على ظهرها بالقلم الرصاص رسمًا سريعًا، لكن دقيق، لأذنٍ يمنى تظهر بها السِّمة المعنيَّة.

قال بلانديِ وهو يأخذ منه الورقة: «شكرًا لك، فهمت. إذن النتوء المقصود هو ذلك البروز الصغير على حافَة الأذن. لكن أخبرني، هل يُصور ذلك الرسمُ الأذن المعنيَّة بأي وجه آخر؟»

«أجل، بقدر ما أذكر.»

«هذا كافٍ بالنسبة إلي. والآن بالنسبة إلى الشعر، لا أفهم بوضوح ما تقصد بشأنه. كتبتَ تقول: «لون الشعر غير عاديِ؛ ما بين البني الفاتح والأشقر، لكن قوامه غريب يجعل لونه يبدو متغيرًا.» هلا فسَّرتَ لي ذلك الوصف بمزيد من الإسهاب؟»

قال توم: «أنا نفسي لا أفهمه بوضوح؛ فأنا لم أرَ مثيلًا له من قبل. قد أُشبِّهه بالحرير متبدِّلِ اللون. حتمًا تعرف كيف يبدو؛ يتبدل لونه عندما تُحركه فيسقط الضوء عليه بزاوية مختلفة؛ فقد يبدو أخضرَ في موضع وبنفسَجيًّا في آخَر. بالطبع لا يتغير لون شعر السيدة شيلر إلى ذلك الحد، لكنه يتبدل؛ فيكون ذهبيًّا صريحًا تحت إضاءةٍ ما، ويكاد يكون بُنيًّا تحت أخرى.»

«ألا تعتقد أنه ربما يكون قد صُبِغ أو زُيِّفت طبيعته بطريقة ما؟»

«هذا محتمل. فالشعر الفاتح عندما يُصبَغ باللون الأسود يبدو في بعض الأحيان أحمرَ أو أرجوانيًّا عندما يتخلله الضوء، لكن شعرها لم يُعطِني انطباعًا قط بأنه مصبوغ. لكني أعتقد أنك تعرف عن الشعر المزيف أكثرَ مني.»

أقر المفتش بأنه ربما يكون مُحقًّا، وبعد أن دوَّن «التفسير» على ظهر الورقة، طرح سؤالًا أو اثنين بخصوص عناصر الوصف الأخرى. وبعد أن حصل على إجاباتها، حفظ الورقة بعناية، ثم تساءل بعد بِضع لحظات من التأمل:

«بالمناسبة يا سيد بيدلي، متى كانت آخرُ مرة رأيتَ فيها السيدة شيلر؟»

«في يوم رحلتنا إلى غابة إيبنج، افترقتُ عنها وفاندربوي بالقرب من المعسكر البريطاني القديم، فسلَكا هما الطريقَ الأخضر غير المعبَّد باتجاه هاي بيتش، بينما اتجهت أنا إلى غابة جريت مونك. ودَّعتهما عند مفترق الطريق ولم أرَها مرة أخرى.»

«أمر غريب نوعًا ما. ألا تعتقد ذلك؟»

«اعتقدتُ ذلك حينها، لكني لم أكن أعرف أنها ستُسافر. في الواقع، كنت أتوقع أنها ستزورني في غضون يوم أو اثنين، حتى إنني أخرجتُ خريطة للغابة ومخططًا بمقياس كبير للمعسكر البريطاني كي أُطلِعَها عليهما أو أُقرِضهما لها.»

سأل بلاندي: «ولِم فعلتَ ذلك؟»

«اعتقدتُ أنها تنوي زيارتهما مرة أخرى. فقد بدَت مهتمة كثيرًا بالمعسكر، واقترحت على فاندربوي أن يأتيا في يوم آخر لاستكشافه؛ ولما وافق، اعتبرتُ الأمر محسومًا.»

«ألم تعرف إن كانا قد زارا المكان مرة أخرى؟»

«لا يمكن أن يكونا قد فعلا؛ إذ لم يرها فاندربوي مرةً أخرى بعد تلك الليلة. لقد سمعته يقول ذلك في جلسة التحقيق. لكن ما لا أفهمه هو لِمَ اقترحَت ذلك وقد اعتزمَت بالفعل الذَّهابَ إلى بريمنجهام.»

وافقه المفتش مفكرًا: «أجل، يبدو الأمر متناقضًا بعض الشيء. أتساءل ...»

لكن محل تساؤله لم يتَّضِح قط؛ إذ لم يُكمل عبارته، ولم يُلِح عليه توم في أن يفعل. تلا ذلك برهةٌ من الصمت. بعد ذلك قال المفتش وهو يُمسك بحافظة الأوراق:

«سوف أواصل استباحة حُلمك. هلا تفضَّلتَ بإلقاء نظرة على لوحات السيدة شيلر تلك وأطلعتَني على رأيك فيها؟»

قال توم معترضًا: «أنا لستُ بناقد كما تعلم أيها المفتش. إن عملي هو رسم الصور، لا الحكم على أعمال غيري.»

قال بلاندي: «أعلم ذلك، وأتفهَّم حساسية موقفك. لكن قصدي هو: هل السيدة شيلر فنانة من الأساس أم مُدَّعية؟ والآن ألقِ نظرة على تلك.» وسحب لوحة «آدم وحواء» ووضعها على الطاولة. «إنها تبدو لي كرسمٍ لطفل، وطفل غيرِ موهوب أيضًا.»

اضطُرَّ توم إلى الإقرار بأنها تبدو كذلك، وأضاف: «لكنَّ ثَمة صرعةً جديدة في الفن تعتبر تلك الرسومات الطفولية فنًّا حقيقيًّا. أنا لا أفهمها، لكن الصحفيون مدَّعو الثقافة الرفيعة يفهمونها. لِم لا تطلب رأيَ ناقدٍ فني؟»

هز بلاندي رأسه نفيًا. «لن يُفيدني ذلك في شيء يا سيد بيدلي؛ فأنا لا أودُّ سماع رجل يعرض نظرياتٍ أو يتشدَّق بعبارات. بل أبحث عن حقائق. أنت فنان عبقري؛ بإمكاني أن أرى ذلك بنفسي. وتعلم كيف يكون الفنانُ الكفء، وما أطلبه منك أن تُخبرني، بيني وبينك، هل السيدة شيلر فنانة حقيقية أم مجرد مدَّعية. تذكر أني ضابطُ شرطة يبحث عن المعلومات، وأعتقد أنه ينبغي عليك أن تكون صريحًا معي.»

قال توم: «حسنًا أيها المفتش، إن كان رأيي سيُفيدك، فسأخبرك بما أعرفه، لكني لا أريد أن أُبدِيَ آراءً فحَسْب. ما أعرفه هو أن السيدة شيلر لا تُجيد الرسم ولا التلوين، ويبدو أنها لا تملك أيَّ موهبة فطرية في الرسم. أما عن كونها مدَّعية، فلا يسَعُني أن

أجزم لك بذلك. إن كانت ترى حقًّا أنها فنانة، فهي ضحيةُ وهم؛ أما إن كانت تُدرك أنها ليست بفنانة، بل تتظاهر بأنها كذلك، فهي مدَّعية. هذا كل ما يُمكنني قوله.»

قال بلاندي: «وهذا يكفيني. السؤال الآخر بإمكاني إجابتُه بنفسي. والآن سأقوم بزيارة سريعة إلى حيث وجدتُ تلك الحافظة لأُعيدها؛ ولا يسعني أن أوفيَك حقك من الشكر يا سيد بيدلي لسخائك في تسخير مخازن معارفك الواسعة وقُدرات ذاكرتك المدهشة لي.»

وبتلك الكلمات الختامية المنمقة، صافح توم بودٍّ وسار معه إلى البوابة.

بعد أن خرج زائره إلى الشارع، عاد توم إلى المرسم وهو يتنفس مزيدًا من نسمات الحرية والارتياح ويأمُل أن يكون ذلك هو آخِرَ ما يسمعه عن تلك المسألة البغيضة التي تورَّط فيها. وفي الأيام التالية، بدا أن أمَله ذلك كان له ما يُبرره. فتدريجيًّا، عاد إلى أسلوب حياته العادي؛ فكان الآن يعمل في مرسمه على لوحة جديدة، ويخرج مرتديًا معطفه الثقيل وقفازَيه الواقيين من البرد؛ كي يرسم رسمًا أوليًّا سريعًا في إحدى المقاطعات الريفية التي يسهل الوصول إليها. عرَف من نظرة خاطفة عارضة على إحدى الصحف أن هُوية إيما روبي الغامضة لا تزال مجهولة، وأن البحث عن السيدة شيلر التي لا تقلُّ عنها غموضًا لم يُسفِر عن أي نتائج. لكن عدا القليل من الفضول تجاه دور لوتا في تلك الجريمة، والأمل في ألا تكون على شفا الوقوع في مشكلة خطيرة، لم يكن يُولي ذلك الأمرَ الكثيرَ من الاهتمام. كانت رغبته الأساسية هي أن يُترَك وشأنَه كي يعودَ لممارسة الرسم.

بعد حوالي ثلاثة أسابيع تجددت صِلته بالقضية مرة أخرى، لكن على نحوٍ طفيف جدًّا لم يتسبَّب له في أي إزعاج. صحيح أنه عندما استجاب لقرع الجرس وخرج إلى البوابة ليجدَ المفتش بلاندي واقفًا على عتبتها، انزعج بعضَ الشيء حتى أفصح المفتشُ عن مهمته البريئة.

«أشعر بالخجل من إزعاجي لك هكذا، لكني لن أُعطلك كثيرًا. في زيارتي السابقة لك، تفضلتَ بذكر أنك جهزتَ مخططًا للمعسكر البريطاني في لوتون كي تُريَه للسيدة شيلر أو تُقرضها إياه. وقد جئتُ إليك الآن كي أطلب منك إن تفضلتَ أن تُريَني ذلك المخطط.»

أجاب توم وهو يقوده إلى المرسم: «بالطبع أيها المفتش. هل تودُّ إلقاء نظرة عليه هنا أم تُفضل أن تأخذه معك كي تدرسه على مهل؟»

قال بلاندي (الذي كان من الواضح أنه جاء لاستعارة المخطط): «هذا اقتراح كريم للغاية يا سيدي. لم أجرؤ على أن أطرحَه بنفسي، لكن إن تكرمت ...»

أجاب توم وهو يفتح خِزانة ويُمرر عينيه على الأرفف: «بالطبع! ها هو. هو في الواقع كتيب كما ترى، مرفق به مخطَّط مطوي ملصق مع النص، حتى تتوافر لديك المعلومات كلُّها في مكان واحد. آمُل أن يُفيدك، ولا داعي للعجلة في إعادته.»

ناول الكتيبَ للمفتش الذي نظر إليه نظرة سريعة قبل أن يدسَّه في جيبه، ثم غادر بكياسة وهو يُمطر توم بوابل من عبارات الشكر وهو في طريقه إلى البوابة. بعد أن غادر، عاد توم إلى المرسم وهمَّ بمتابعة عمله؛ لكن هذه المرة كان لزامًا أن يستيقظ فضولُه لا محالة. كانت تلك صفقة غريبة. تُرى لِم قد يحتاج المفتش إلى المخطَّط؟ وما الذي أثار فجأةً اهتمامه الغريب بالمعسكر البريطاني؟ ظل هذان السؤالان يدوران في ذهن توم كلَّ فينة وأخرى لِما تبقى من المساء، ولكن دونما إجابة لأيٍّ منهما. لم يستطع أن يفهم الأمر، وأخيرًا دفعه عن ذهنه مستعينًا بفكرة أنه لا يسَعُه سوى أن ينتظر ويرى ما سيُسفر عنه.

لم يَطُل انتظاره. ففي صباح اليوم التالي عندما خرج لشراء حاجياته المتواضعة، وقعَت عيناه على ملصق لافتٍ للنظر أمام متجر بيع الصحف كُتِب فيه بخط ضخم: «جريمة شارع جيكوب: تطوُّر مثير»، وعلى الفور دخل واشترى نسخة من الصحيفة. كانت مطالعة سريعة للعناوين الرئيسة المُروعة على الصفحة الأولى كافيةً لكي يعيَ الغرض من زيارة المفتش، فطوى الصحيفة ووضعها في جيبه كي يُطالعها بمزيد من التأني بعد أن يفرغ من التسوق.

أخيرًا وبعد أن أنهى جولته، عاد إلى مرسمه، ثم وضع حُزَم مشترياته على الطاولة، وأخرج الصحيفة من جيبه، ثم جلس في الكرسي الوثير وقرأ الخبر بكامل تفاصيله. بعد حذف العبارات الصحفية المنمقة، جاء نصه كالتالي:

> صباحَ أمس كان حارس غابة يقوم بجولته في ذلك الجزء من غابة إيبنج الذي يضمُّ ضيعة لوتون الإقطاعية حين اكتشف اكتشافًا مريعًا. فأثناء سيره عبر المسار المشجر الذي يمر بمحاذاة السواتر الترابية القديمة المعروفة باسم معسكر لوتون، لمح بين جذور الأشجار من منتصف طريق الصعود إلى التبة حقيبةَ يدٍ نسائيةً تكاد أوراق الأشجار الساقطة تُغطيها. فصعد التبة وأزاح عنها أوراق الأشجار ثم التقطها، وعندما لاحظ الحرفَين الأوَّلين «إل إس» على الحقيبة من الخارج، فتحها كي يرى إن كان بداخلها ما يدلُّ على هُوية صاحبتها. وجد بداخلها، ضمن أغراض أخرى، حافظة بطاقات من الجلد تحوي عددًا من

بطاقات الزيارة، وعندما أخرج منها واحدة، وجد عليها: «السيدة لوتا شيلر، ٣٩ شارع جيكوب، متفرع من طريق هامبستيد، لندن.»

تعرَّف على الاسم من الإشعارات التي قرأها في الصحف، فأدرك على الفور أهمية ذلك الاكتشاف، واتجهَ دون تأخير إلى قسم شرطة لوتون حيث سلَّم الحقيبة للضابط المسئول، ووصف له مكان عثوره عليها بالضبط. أظهر فحصٌ أوَّلي للحقيبة أنها تحتوي، بجانب بطاقات الزيارة، على شيئَين آخرين مثيرين للاهتمام. كان الأول هو منديلًا أزرقَ صغيرًا مُطرزًا على أحد جوانبه اسم «لوتا» بالحرير الأزرق، ويُشبه كثيرًا المنديل الذي عُثِر عليه بحوزة القتيلة إيما روبي؛ أما الثاني فكان جراب مفاتيحَ من الجلد لكل مفتاح فيه حلقة منفصلة. كان به ستُّ حلقات وأربعة مفاتيح فقط؛ وكان واضحًا من العلامات المميزة على الجلد أن أحد المفتاحين المفقودين هو لبوابة خارجية، والآخر لباب غرفة أو باب خِزانة كبيرة. بعد أن أنهى المفتشُ فحصه للحقيبة، أبلغ المقر الرئيسي بسكوتلاند يارد بالأمر هاتفيًّا، وفي الوقت نفسِه أرسل ضابط تحقيق برفقة حارس الغابة إلى حيث عثر على الحقيبة، كي يضع علامة مميزة عند موضع الحقيبة ويضعه تحت المراقبة لحين إعفائه من تلك المهمة.

استجابةً للرسالة الهاتفية، أُخطِر المفتش بأن ضابطًا من قسم التحقيقات الجنائية قد أُرسِل لإجراء التحريات؛ وبعد مرور نحو ساعة، وصلت سيارة تحمل المفتش بلاندي والرقيب هيل، من قسم التحقيقات الجنائية. بعد أن عاينَ الضابطان الحقيبة وحرزاها، اقْتِيدا إلى الموضع حيث ينتظر المفتش المحلِّي، وبمساعدته وحارس الغابة، أجرَيا تفتيشًا منهجيًّا للمنطقة المحيطة. ولما لم يُسفر بحثهم هناك عن شيء، صعدوا التبة ثم نزلوا إلى داخل منطقة المعسكر؛ حيث تفرَّقوا وأجرَوا تفتيشًا ممنهجًا لأرضيته التي تكسوها أجمةٌ كثيفة من جذوع أشجار الزان الأبيض وطبقةٌ سميكة من الأوراق الذابلة.

استمر البحث لبعض الوقت دونما نتائج؛ لكنه أخيرًا أثمرَ عن اكتشاف جديد وعلى قدر بالغٍ من الأهمية. ففي فجوة بين جذور شجرة زانٍ بيضاء صغيرة، لمح الرقيبُ قِلادة ذهبية، وعلى الفور أرسل إشارة إلى المفتش وفي أثناء ذلك، وضع علامة مميزة على الشجرة. تبيَّن من فحص القلادة أنها حِلْية ثمينة أنيقة، عليها زخارفُ فاخرة من المينا، ومنقوش عليها الحرفان الأوَّلان

«إل إس»، وعند فتحها، تبين أن جانبًا منها يحمل صورة لرجل داكنِ البشرة يرتدي شعرًا مستعارًا وعباءةَ محاماة، والجانب الآخر منها يحمل ما بدا في بادئ الأمر زنبركَ ساعة من الشعر، لكنه في الواقع كان عبارة عن شعرة مجعَّدة من النوع الأفريقي، يُعتقَد أنها من رأس رجل القانون ذاك.

لم يُفضِ باقي البحث إلى أي اكتشافات أخرى، لكنَّ هذَين الأثرَين اللَّذين يعودان إلى السيدة المفقودة يُعَدان مادة خِصبة للتكهنات؛ فعلى سبيل المثال …

هنا أوضح الكاتب قصده بعرض تكهُّنات عديدة، لا داعي لاقتباسها هنا، لم يُلقِ إليها توم بالًا؛ إذ لم تتضمن أيَّ شيء لا يعرفه. لكن عندما تأمل الوقائع التي كشف عنها المقال، لاحت أمامه أسئلةٌ مزعجة مطالِبة بإجابات.

ماذا حدث للوتا حقًّا؟ هل استدرجها أحدٌ إلى ذلك المكان المنعزل وقتلَها؟ كان ذلك هو الاحتمالَ الأرجح؛ ومن اهتمام المفتش المفاجئ بالمخطط، بدا أنه الاحتمال الذي تُرجحه الشرطة — بعد العثور على القلادة — إذ كان يشير إلى اعتزامها إجراءَ بحث أشمل وأكبر. لكن ماذا كانت تفعل في الغابة؟ ومتى ذهبت إليها ولماذا؟ مَن كان برفقته، وما العلاقة بين تلك الفاجعة الجديدة ومقتل إيما روبي؟ كان المفتاحان المفقودان والشَّبهُ بين المِنديلَين يُؤكدان وجود صلة بينهما؛ وهذا الأخير كان يُشير إلى تواطؤ لوتا بطريقة ما.

لكن الأمر برُمته كان غامضًا ومحيرًا للغاية. لم يستطع توم أن يفهم منه شيئًا، فقرر في نهاية المطاف أن ينتظر ظهور مستجِدات أخرى، وألا يَشغَل باله بالأمر في الوقت الحاليِّ قدر الإمكان. كان اتخاذ هذا القرار أسهلَ من تنفيذه. فمع أنه لم يُكِنَّ للوتا الكثيرَ من الإعجاب، فقد أزعجه كثيرًا تخيُّلُ أن تكون مصيبةٌ ما قد ألَّت بها، وأزعجه أكثر أن يشكَّ في تورطها في جريمة شنيعة كتلك.

الفصل العاشر

زيارة أخرى إلى المعسكر

مرة أخرى، وقف توم بيدلي عند مفترق الطرق أمام المعسكر البريطاني القديم يتطلع في تأمُّل عميق إلى الطريق الأخضر العريض المؤدي إلى هاي بيتش. تحت سماء الشتاء الرمادية، كان المشهد يفتقر إلى الجمال والبهجة اللذَين أَسَرا لُبَّه حين رآه في المرة السابقة؛ حين كانت أشعة شمس نهايات الخريف تُنير الأوراقَ البديعة لأشجار الزان وتنثر ذرًّا ذهبيًّا على الشجيرات وزبرجديًّا على العشب، لكنه استحضر تلك الصورةَ في ذهنه بوضوحٍ غير عادي، ولم تكن تلك المرة الأولى التي يستحضرها فيها؛ الهيئتان اللتان تسيرانِ مبتعِدتَين بخطوات مبتهجة وتُثرثران في مرح، تتضاءلان أمام عينَيه مع كل خطوة تخطوانها، ثم تتوقفان أخيرًا عند المنعطف كي تُودِّعاه. لم يخطر بباله حين ردَّ تحية لوتا أن تلك ستكون المرةَ الأخيرة التي يراها فيها؛ وأنها حين لوَّحَت بيدها له كان ذلك هو الوداعَ الأخير، وأنها خرجت من حياته للأبد حين التفتَت واختفت وراء المنعطف.

لم يكن وجوده في الغابة طواعيةً بالكلية. فلم يكن راغبًا في المجيء. لكن صديقه بولتون، توسَّل إليه بشدة أن يظفر بتلك الفرصة (التي أمَّنها له بولتون نفسُه)، فلم يجرؤ توم أن يُخيب ظنه. وها هو ذا يُحاول الظفرَ بأقل قدرٍ ممكن ومعقول من تلك الفرصة مراعاةً لمشاعر صديقه.

كانت تلك الفرصة هي الاستكشافَ الأخير والشامل للعشَرة أو الاثني عشَر قيراطًا التي تقع داخل المتاريس، بغرض كشف الغموض الذي يكتنف اختفاءَ لوتا. كانت الشواهد الظاهرية تُشير بقوةٍ إلى أنها قُتِلت؛ وإن كانت قد قُتِلت بالفعل، فالاحتمال الأغلب أن جثتَها قد أُخفِيت في تلك المساحة المسيَّجة. وهكذا قررت الشرطة، التي رأَت أن جميع الشكوك المحيطة بذلك الموضوع يجب التحققُ منها في أسرع وقتٍ ممكن، أن المنطقة محلَّ الشبهة يجب أن تُفحَص بعناية حاسمة من شأنها حسمُ تلك المسالة بشكل نهائي.

لكن كان ثمة عقبة. فنظرًا إلى أن المعسكر مدرَج ضمن المعالم الأثرية، لم يكن مسموحًا فيه بأي أعمال حفرٍ غير شرعية. لكن تلك عقَبة كان يسهل تخطِّيها. فالعين الخبيرة تستطيع على الفور تمييزَ أي اضطراب في سطح الأرض، مهما أُخفي بمهارة، وقسم التحقيقات الجنائية لا تُعوِزه العيون الخبيرة. في نهاية المطاف، تقرَّر أن يُرسِل مكتبُ الإنشاءات العامة ممثلًا عنه وأن يحظى ضباطُ قسم التحقيق الجنائي بمساعدة بعض المتطوعين الأكْفاء مِن نادي إسيكس الميداني، والسيد إلمهورست، عالم الآثار الكنتي البارز، الذي رشَّحَته خبرتُه الواسعة في التنقيب في المواقع الأثرية للشرطة ومكتب الإنشاءات العامة. وبذلك ضُمِنَت عمليةُ استكشاف متكاملةٌ لمحيط المعسكر، مؤمَّنة ضد وقوع أضرار للمعسكر من منظورٍ أثري.

تصادف أن سمع السيد بولتون بنبأ ذلك التحقيق المزمَع، وفي الحال تلهَّف لحضوره؛ إذ كان ذلك الحِرفيُّ الماهر يُتابع باهتمام حماسي رهيب كلَّ فصل من تلك الجريمة التي شهد اكتشافها. والآن أوشك الستار أن يُرفَع عن الفصل الأخير من تلك المسرحية المأساوية، التي قد تئول ذروة أحداثها إلى انتباش جثة. كان ذلك أكثرَ من قدرته على التحمل. كان عليه أن يُؤمِّن لنفسه مقعدًا في الصفوف الأمامية بأي وسيلةٍ كانت. وهكذا فعل. فبعد أن قدَّم عرضًا ماكرًا ومقنعًا لصديقه المفتش بلاندي الذي تجمعُه به سابق معرفة، بالمساعدة في أمر التصوير الفوتوغرافي وسبكِ القوالب الجصِّية، نجح في اقتناص دعوة للحضور من ذلك الضابط الدمث المهذَّب. لكنه لم يتوقف عند ذلك؛ بل عرَض على المفتش خدمات توم بيدلي الثمينةَ التي بوُسعه أن يُقدِّمها من خلال التعرف على المتعلقات أو البقايا (وأقنعه بحقٍّ تلك المرة)، فشَمِلَته الدعوة، وهو ما لم يُسعِد توم بقدر ما أسعدَه هو. ها هما ذان قد أتَيا برفقة جماعة المستكشفين، يتابع بولتون كل تحركاتهم باهتمامٍ بالغ، بينما يتجول توم في محيط المعسكر متفقدًا إياه كلَّ فينة وأخرى للمعاينة.

جرَت المعاينة بشمولية احترافية. فقُسِمَت المنطقة داخل حدود المعسكر إلى قطاعات على الخريطة بواسطة خطوط القلم الرصاص، وكانت حدود كل قطاع تُرسَم على أرض الواقع بأوتاد تُغرَس في الأرض، ثم يُفحَص باستفاضة قبل الانتقال إلى القطاع الذي يليه. لم يُشارك أيُّ عمال في عملية البحث؛ فالعملية برُمتها نفَّذها المستكشفون الماهرون، الذين أزالوا الغطاء الكثيف من الأوراق الذابلة برفق، ورقةً تلو الأخرى تقريبًا، كي يضمنوا كشف السطح الفعلي بهدوء دون إحداث أيِّ اضطراب به. وحسنًا فعَلوا؛ إذ ظهر في أول

قطاع كشفوا عنه آثارٌ غير واضحة لكن يُمكن تمييزها، لزوجين من الأقدام، قدَمَي رجل وقدمَي امرأة.

قال بلاندي عندما عرَض بولتون أن يصنع قوالب جصية ويلتقط صورة: «تلك الآثار ليست واضحة كثيرًا. يبدو أنها تُرِكَت من فوق أوراق الأشجار. سنُغطيها في الوقت الحالي حتى نرى إن كنا سنجد آثارًا أفضل منها.»

وعلى ذلك، غُطِّيت آثار الأقدام بعناية بجِوال فارغ، واستمرَّت المعاينة. ظهر المزيد من آثار الأقدام في القطاع التالي، لكنها أيضًا كانت سطحية وغيرَ واضحة المعالم، وتُشير إلى أن حاجزًا سميكًا من الأوراق الذابلة كان يحول بين الأقدام التي صنعَتْها والأرض؛ ثم انتقلَت المعاينة إلى قطاعَين آخَرَين، ظهر بكلٍّ منهما آثارُ زوجَين من الأقدام، وكلا القطاعَين ظهرَت بها آثار الأقدام في أزواج متوازية، مما يُشير إلى أن صاحبَيهما كانا يسيران جنبًا إلى جنب.

في تلك اللحظة، نادى المفتش الذي كان منهمكًا في فحص الخريطة، على الرقيب هيل قائلًا:

«ألسنا نقترب من تلك الشجرة التي وضعنا عليها علامةً أيها الرقيب؟ لقد رسمت على موضعها على المخطط علامة صليب بالقلم الرصاص، لكن ذلك كان مجرد تخمين، قمت به بعيدًا عن المكان.»

أجاب الرقيب: «أعتقد أنك محق يا سيدي، لقد كانت في مكانٍ ما بالقرب من هنا. سأتقدَّمكم لأرى إن كان بإمكاني العثورُ عليها.»

مضى قدُمًا للأمام يخطو بحرص على بِساط الأوراق ذي اللون البني الشاحب، ويُدقق النظر بين أشجار الزان والنِّير المُتقزمة الغريبة الشكل، التي تتزاحم داخل نطاق المعسكر، كحشدٍ من حوريات الأحراج الأسطورية، باسطةً جذورَها الملتوية على السطح. بعد ذلك اختفى داخل تلك الغابة المصغَّرة، ولبعض الوقت، دلت أصوات خشخشة خافتة قادمة من الأَجَمة على حركته غير الظاهرة. وفجأةً نما إلى سمع المفتش صوتٌ أعلى، كصوت جسد سقط أرضًا، مصحوبًا بسُباب، وبعد بِضع لحظات، ظهر الرقيب مرة أخرى يمشي بخطوات غير متوازنة بعض الشيء.

قال موضحًا وهو ينحني ليدلك قدَمه اليمنى: «لقد تعثرت في أحد تلك الجذور اللعينة، لكني وجدتُ الشجرة يا سيدي، ووضعتُ منديلي عند أسفل جذعها كي لا نُغفِلَها.»

في تلك الأثناء، كان المستكشفون يُواصلون عملهم على قدم وساق، وبعد أن كشفوا سطح القطاع بأكمله أخيرًا، وعاينوا كل بوصة مربعة منه بدقة، بدءوا يُحددون القطاع التاليَ تحت إشراف السيد إلمهورست، الذي قاسه بشريط قياس ودوَّن قياساته على نسخته من المخطط. وأثناء قيامه بأخذ القياسات، قابلَ الشجرة ذات العلامة المميزة، التي تقع في حيِّز القطاع الجديد، وبعد أن حدَّد موقعها بالضبط بواسطة شريط القياس الأرضي، «تحدَّدت ومُنِحت اسمًا» على المخطط.

قال الرقيب: «الآن، علينا أن نرى ما يعنيه وجودُ تلك القلادة. لا بد أن شيئًا ما قد حدث، ولا بد أنه حدث في ذلك المكان بالتحديد؛ وأظن أنه من الأحرى بنا أن نبسط بعض الأجْولة كي يقفَ فوقها العمَّال.»

نُفِّذ ذلك الاقتراح، وبعد أن بُسِطت الأجولة على الأرض، ركَّزَت جماعة المستكشفين جهودَها كاملةً على هذه المنطقة، وبدَءوا في إخلاء مسار عريض باتجاه الشجرة من الأوراق، ويفحصون بعناية كلَّ حفنة يُزيحونها من الأوراق. كان السطح الذي انكشف لا يزال يحمل الآثارَ الباهتة غيرَ الواضحةِ المعالم، لزوجَي الأقدام، التي واصلَت السير جنبًا إلى جنب بخُطًى منتظمة، حتى وصلت إلى نقطة تقع على بُعد بضع ياردات من الشجرة. هنا كان ثمة تغيُّر مفاجئ في جانبَين. لم تَعُد آثار الأقدام مبهَمة وغيرَ واضحة المعالم، بل أصبحت واضحة ومحددة وغائرة في التربة الطينية الرطبة؛ وبدلًا من الخطوط المتوازية المنتظمة التي كانت تصنعها، ظهرَت تلك الآثار متداخلةً ومرتبكة وتُشير إلى اتجاهاتٍ شتَّى وتتقاطع ويطمس بعضُها البعضَ جزئيًّا على امتداد مسافة كبيرة. من تلك النقطة، كان خط آثار الأقدام يسير باتجاه الشجرة، وكان يمكن تمييزُ زوجَي الأقدام منها، إلا أنهما لم يعودا متوازِيَين. كان كلُّ زوج منهما يتجه إلى الأمام مباشرة، وفي كلٍّ منهما، كانت أصابعُ الأقدام تبدو غائرةً بوضوح؛ لكن كان ثَمة آثارُ أقدام أخرى تخطو فوق أقدام المرأة في بعض المواضع، بينما كانت آثار أقدام الرجل كاملة وواضحةَ المعالم.

قال الرقيب مخاطبًا السيد إلمهورست وهو ينظر بإمعان إلى مجموعة الآثار برُمتها من حيث يقف على الجوال: «يبدو لي أن تلك الآثار تروي قصتَها بوضوح. أليس كذلك؟»

أجابه ذلك الأخيرُ قائلًا: «هذا ما أراه أيضًا. تفسيري لها هو أن الرجل والمرأة سارا حتى ذلك المكانِ جنبًا إلى جنب، على نحو وُدي تمامًا على ما يبدو؛ ثم هاجم الرجلُ المرأة فجأة، ووقع عراكٌ انتهى بفرار المرأة وركضِها، ومطاردة الرجلِ لها.»

وافقه الرقيب قائلًا: «يبدو أن هذا ما حدث بالفعل، والسؤال الآن هو ما الذي حدث بعد ذلك؟ بالله عليكم، خُذوا حِذركم وأنتم تكشفون آثار الأقدام المتبقية.»

لكن التحذير لم يكن ضروريًّا؛ فقد كان المستكشفون جميعًا الآن على أُهبة الاستعداد، وبعد أن عُرِف موضع الآثار، استطاعوا أن يُباشروا العمل من على جانبَيها كي يتجنَّبوا خطر دهسها بأقدامهم.

قال الرقيب لبلاندي معقِّبًا: «من حُسن حظنا يا سيدي أن الآثار الأهمَّ بالنسبة إلينا هي الأوضح. لا بد أن الأرض هنا كانت مكشوفة حينها، ثم كسَتْها الأوراق بعد ذلك. آمُل فقط أن تكون الآثار المتبقية بذلك الوضوح.»

رد المفتش: «هذا لا يُهم كثيرًا. فنحن نعلم أنهما كانا هنا، ونعلم هُوية أحدِهما. السؤال الحقيقي هو ماذا حدث للمرأة؟»

بعد بِضع دقائق، بدَت إجابة ذلك السؤال وشيكة؛ ففي مواجهة الشجرة ذات العلامة المميزة، وعلى مساحة ممتدة لعدة ياردات بعدها، كان ثَمة مساحة من الأرض وُطِئت بقوة، حيث كانت آثار أقدام الرجل والمرأة متداخلةً ومختلطة حتى لم يكَدْ يُمكن تمييزُ أي آثار كاملة بينها. وتحقَّقت آمال الرقيب. كان من الواضح أن الآثار قد صُنِعَت على أرض مكشوفة، والقِلة الكاملة منها كانت عميقةً وشديدة الوضوح.

قال الرقيب: «حسنًا، يبدو أن عراكًا محتدمًا قد وقع يا سيدي. ولم يَسِر الأمر كما أراد الرجل. أتساءل كيف ...»

لم يُنهِ سؤاله؛ إذ لم يكن المفتش مُصغيًا إليه. كان يبدو أنه لمح بنظره الثاقب شيئًا ما أمامه؛ فبعد نظرة طويلة ومتمعنة، صحِبَتها ابتسامةٌ واثقة، تقدم إلى الأمام فوق الأوراق التي لم تُزَح بعد حاملًا جِوالًا في كلتا يدَيه، حتى وصل إلى بقعة خلف الشجرة حيث كانت لا تزال عملية الإزاحة جارية. بسط عندها أحد الجِوَالَين ووقف فوقه، وانحنى ليُدقق النظر في الأرض عند قدمَيه. بعد دقيقة كاملة من التدقيق، اعتدل ونظر نظرة ذات مغزًى إلى الرقيب الذي كان يتبعه.

قال الرقيب: «أجل يا سيدي، أفهم ما تعنيه. هنا انتهى الأمر. ثَمة ثَلْمٌ محدد صنعه كعبُ حذائها عند انزلاقها، وثمة علامتان تُوضحان طرَفَيْ كعبَي حذائها. لا بد أنها كانت مستلقيةً على ظهرها كي تترك هاتين العلامتين. ويبدو لي أني أرى أثر جثتها.»

ردَّد المفتش في نفاد صبر: «يبدو لك! إنه واضحٌ كالشمس. لقد سقطَت فوق تلك المجموعة من آثار الأقدام فطمسَت بعضًا منها. بإمكانك أن ترى موضع ارتطام كتفَيها بالأرض، وفوقهما علامة غير واضحة حيث يُفترض أن يكون الرأس؛ وتحت أقدامنا مباشرة ثَمة موضع طُمِسَت فيه قليلًا آثارُ الأقدام حيث ينبغي أن يكون رِدْفاها قد استقرا. إنها ليست واضحة كثيرًا، لكنها في الموضع المناسب تمامًا.»

أخرج من جيبه شريطَ قياسٍ زنبركيًّا، وانحنى ليقيس المسافة بين علامتَي الكعبين حتى منتصف المساحة غير الواضحة المعالم التي تسطحَت فيها آثار الأقدام.

ثم عقب قائلًا وقد ثبَّت إبهامه على الشريط: «ثلاث وثلاثون بوصة، وطولها كان حوالي خمسة أقدام وسبع بوصات. السؤال الآن هو ماذا حدث بعد ذلك؟ لا يُمكن أن تكون قد نهضت دون أن تترك آثارَ أقدام مميزةً للغاية، ولا أرى أيًّا منها. لكن ثمة بضعة آثار واضحة جدًّا لقدمَي الرجل يبدو أنها طُبِعت فوق الآثار الأخرى. لنرَ إلى أين تقودنا.»

التقط جِوالَيه وتقدم سائرًا، يتبعه الرقيب، فوق أوراق الأشجار المكومة على جانب المسار الخالي من الأوراق، متتبعًا ببصره في حماس آثارَ الأقدام التي تكشَّفَت بفعل إزاحة الأوراق، حتى وصل إلى الموضع الذي لا يزال العمل على إخلاء سطحه جاريًا.

قال معقبًا: «ثمة خطٌّ واحد فقط من آثار الأقدام كما ترى. لكن لا أثر للمرأة، إن كانت قد قدِمَت بذلك الاتجاه، كان كعب حذائها على الأقل سيترك أثرًا واضحًا. ما رأيك بتلك الآثار؟ هل تراها غائرة إلى درجة غير عادية؟»

أجابه الرقيب: «كنت أتساءل عن ذلك الأمر لتوِّي. ينبغي أن تكون كذلك لو كان يحمل امرأةً ربما كان وزنها في مثل وزنه تقريبًا. لكن يصعب الجزم بهذا.»

قال بلاندي: «هذا صحيح، وحتى إن جزمت به، فهو مجرد رأي. ما نحتاج إليه هو القياسات الفعلية. أتساءل إن كان السيد بولتون قد أحضرَ معه عدة سَبْك قوالب الجص.»

قال الرقيب الذي كرهَ بعض الشيء وجود ذلك الدخيل غيرِ المنتمي إلى الشرطة: «إن لم تكن معه، فهي متوفِّرة معنا، ولدينا الكفاءة التامة للقيام بالمهمة.»

قال بلاندي وقد حرَص على استخدام ضمير المتكلم في كِياسة منه: «نحن كذلك بالطبع، لكن بولتون ليس كُفئًا فحسب، بل هو خبيرٌ من الطراز الأول أيضًا. يجب أن نرى إن كان قد أحضر عدته.»

لم يُواجها صعوبة في معرفة الإجابة؛ إذ كان السيد بولتون، الذي تحمس لاكتشاف وجود «آثار عراك»، يتبع المفتش متواريًا، مراقبًا العلاماتِ الدالةَ عليه بعينَين مغتبطتين. وعندما فاتحه المفتش في الأمر، التمعت عيناه.

أجاب في لهفة: «أجل يا سيدي. معي كمية وفيرة من أفضل أنواع الجص الخاص بالنحَّاتين، ومقدارٌ كافٍ من الماء للبدء. وبما أنك تريد تلك القوالبَ من أجل رفع القياسات، سيكون من الضروري تضمينُ سطح الأرض المحيطة بأثر كل قدم مباشرة.»

رد بلاندي: «بالضبط، تلك هي الفكرة. فلتمنَحْنا حافةً يُمكن قياسها.»

«وبالنسبة للمقارنة يا سيدي؟ بعد أن أَسبِكَ قالَبَ أحدِ تلك الآثار، هل تود أن أسبِكَ أحد قوالب آثار الأقدام حيث كان يمشي الرجلُ والمرأة جنبًا إلى جنب.»

«طبعًا، إن تكرمت. يجب أن يكون لدينا وسيلةٌ مقارنة للتثبُّت مما إن كانت تلك الآثار أعمقَ من غيرها.»

بعد أن تلقى تلك التعليمات، أسرع بولتون إلى مدخل المعسكر حيث ترك عُدتَه، ثم عاد حاملًا حقيبةَ سفرٍ ثقيلةً وصفيحةً من الماء سَعتُها ثلاثة باينتات. اختار المفتش أحد آثار الأقدام لتكون نموذجًا، وميز السيد إلمهورست موضعها على نسخته من المخطَّط بحرفٍ معين، ثم فتح بولتون حقيبته وبدأ العمل. في تلك الأثناء، كان المستكشفون، الذين كانوا لا يزالون يقتفون أثر الأقدام، قد أجلوا خمسين ياردة أخرى من الأرض، أمكن تتبُّع آثار أقدام لسائرٍ واحد عبْرَها، لكنها تارة تكون غير واضحة حيثما كان يسير فوق غطاء سميك من أوراق الأشجار، وتارة تظهر بوضوح حيث كان يطأ الأرض مكشوفة. لكن في الوقت الحاليِّ، تركهم المفتش يعملون دون الالتفاتِ إليهم، فيما وقف مع الرقيب والسيد إلمهورست يُراقبون تعامل السيد بولتون مع الجص بسرعة ومهارة.

سأل المفتش: «ألا ترشُّ عادة مادةَ صقلٍ داخل تلك الآثار قبل أن تصب الجص بداخلها؟»

أجاب بولتون: «ليس في الطميِ يا سيدي. فالطمي — الندِيُّ كهذا — يقبل الجص بسرعة ويصنع قوالبَ محددةَ التفاصيل لدرجة بديعة. كما يجب أن نُراعيَ القياسات يا سيدي. فهي ستكون دقيقة جدًّا، وحتى طبقة خفيفة من مادة الصقل قد تُؤثر فيها.»

وافقه بلاندي قائلًا: «هذا صحيح جدًّا يا سيد بولتون. يجب أن نتحرى الدقة لأقصى درجة.»

وهكذا، تابع سابِكُ القوالب عمله، فصبَّ الجصَّ ووضع بداخله الأسلاك الحديدية الداعمة، وكان يُراقب السطح يتجمد حين أتى أحدُ المستكشفين مهرولًا وهو يُمسك بشيء ما بحرص بين سبابته وإبهامه.

قال وهو يُسلِّم الشيء — وكان زِرًّا خشبيًّا مطليًّا — إلى بلاندي: «لقد وجدنا هذا يا سيدي بين أوراق الأشجار عند سفح التبة. فرأيت أن من الأفضل أن أُحضره إليك على الفور.»

قال بلاندي وهو يأخذ منه الزرَّ وينظر إليه بشيء من الاهتمام: «هذا لطف بالغٌ منك. إذن فقد بلغتم التبة بالفعل؟»

«أجل، وثَمة آثارُ أقدام عليها — غير واضحة نوعًا ما لكن لا تُخطئها عين — وثمة غصن شجرة مكسورٌ يبدو أنه انكسر عندما حاول الرجل التشبُّث به وهو يصعد المنحدر.»

«وماذا عن آثار الأقدام؟ هل ثَمة أي أثر للمرأة؟»

«كلا، إلا إن كان ذلك الزر يعود إليها، وهو ما يبدو أمرًا محتملًا نوعًا ما.»

قال بلانديِ: «هو كذلك، لكن الاحتمال لا يُفيدنا كثيرًا.» نظر إلى الزر متأملًا، ثم مد يده به إلى بولتون الذي أخذه منه وفحصه بدقة، ثم أعاده إليه.

قال متأسفًا: «لا أستطيع التعرف عليه يا سيدي، وليس من المفترض أن أفعل؛ إذ لم أرَ السيدة إلا قليلًا جدًّا. لكن ربما يستطيع السيد بيدلي التعرف عليه. فقد كان يراها كثيرًا؛ وها هو ذا يُقبِل علينا من المسار في هذه اللحظة.»

فيما كان توم يسير بتثاقل باتجاههم عبر الحافة المغطاة بأوراق الأشجار من المسار، ناداه المفتش ورفع يده إليه بالزر؛ فأسرع توم الخُطى.

قال بلانديِ: «لقد التقط أحدهم ذلك الزر للتو يا سيد بيدلي. هل تستطيع أن تخبرنا بأي شيء عنه؟»

أخذه توم منه، وبعد نظرة خاطفة أجاب:

«أجل. إنه زرٌّ من معطف السيدة شيلر.»

قال بلانديِ: «أراك تتحدث بثقة. هل تعني أن معطفها كان به أزرارٌ من ذلك النوع، أم أنك تستطيع التعرف على هذا الزر بالتحديد؟ إنه يبدو لي زرًّا عاديًّا شائعًا كتلك الأزرار التي يُمكِن أن يراها المرء في متجر «وولورث».»

أجاب توم: «لقد كان كذلك بالفعل في الأصل؛ مجرد زر خشبي عادي مغطًّى بطبقة وردية لامعة من مادة السِّلْيولوز. لكنها كانت تريد تزيينَ مجموعة الأزرار بتصميم ملوَّن، واستشارتني بشأن طريقة القيام بذلك. فنصحتها باستخدام ألوان الزيت العادية ووضعِ طبقة عازلة عليها من الكوبال؛ وبعد أن انتهت من الرسم عليها، لم يكن لديها طلاءٌ عازل من الكوبال، فأحضرتها إليَّ كي أضعَ عليها طبقة من العازل. وهذا قطعًا واحدٌ من مجموعة الأزرار تلك. لقد عرَفتُه فور أن وقعَت عيناي عليه؛ من المادة والأسلوب الفني والتصميم الذي أعتقد أنه يمثل زهرة من نوعٍ ما.»

قال بلانديِ: «إذن بإمكانك أن تُقسم في المحكمة على أن هذا الزر هو بلا ريب من معطف السيدة شيلر؟»

أجاب توم: «بالطبع بإمكاني ذلك. فقد رأيتُ الأزرار مثبَّتة في المعطف — الذي كان لونه أخضرَ بالمناسبة — وها هو خيطٌ من الحرير الأخضر لا يزال بارزًا من ثقب الزر.»

قال المفتش وهو يتحقَّق من الأمر حين أعاد له توم الزرَّ: «أجل، هذا دليل شامل وقاطع تمامًا. أتمنى لو كان باقي الأدلة الأخرى مثلَه.»

وضع الزر بحرص داخل مظروف أخرَجه من محفظته، وبعد أن أودعه في جيبه الداخلي، التفتَ إلى المتطوع الذي جاءه به.

«سأعود معك كي تُريَني الموضع الذي وجدتَ فيه هذا الزر بالضبط. هل انتهَوا من إزاحة أوراق الأشجار عن التبة؟»

«كلا أيها المتفش. لقد بدءوا للتو؛ لكن آثار الأقدام كانت ظاهرة لنا على المنحدر؛ إذ لم تكن الأوراق مستقرَّة فوقه بكثافة.»

قال بلاندي: «إذن ربما يكونون قد كشَفوا عن شيء آخرَ الآن»، وانطلق عبر حافة المسار يُرافقه مُخبره، ويتبعه الرقيب والسيد إلمهورست، لكن دون بولتون، الذي لم يجرؤ على ترك قالَبِه الجصيِّ الذي لم يكتمل بعد.

حين وصلَت المجموعة إلى التبة، كان هناك ما يُبرر حَدْس المفتش المستبشِر. فقد كانت آثار الأقدام على المنحدر الشديد الانحدار، مع كونها غيرَ واضحة، تروي القصة بوضوح كافٍ. لقد صعد الرجل المجهولُ الهويةِ التبةَ أكثر من مرة، مستندًا فيما يبدو إلى الأغصان الدانية لشجرة من أشجار الزان المقلَّمة، والتي لم يتحمَّل أحدها وزنَه فانكسر. في أحد المواضع، أظهرَت علامةٌ مستطيلة موضع انزلاقه، وفي موضع آخر، كانت آثار الكعب الغائرةُ دليلًا على أنه نزل من التبة إلى المعسكر مرة على الأقل.

قال الرقيب معقبًا: «يبدو كما لو كان قد صعد التبة كي يرى إن كان ثَمة أحد على الجانب الآخر، ثم عاد أدراجه ليجلب شيئًا ما؛ وبوسعنا أن نُخمن ماذا كان ذلك الشيء.»

قال بلاندي: «لا حاجة بنا إلى التخمين. انظر إلى هذا.»

من حيث كان واقفًا على أوراق الأشجار المكومة على جانب المسار، أشار إلى أثرَين صغيرين ومبهَمين على المساحة المكشوفة من الأرض، كلٌّ منهما يُصاحبه سنٌّ صغيرة ذات حافةٍ حادة.

وافقه الرقيب وهو ينحني للأمام بحماس قائلًا: «أنت مُحِق يا سيدي. تلك آثار الجزء الخلفي لكعبِ حذاء. وتلك العلامات الصغيرة ذاتُ الحواف الحادة تُبين أنها لقدمَيِ امرأة، فلا يمكن لكعبِ حذاءِ رجُل أن يترك علامةً كتلك.»

في هذه اللحظة جاء بولتون مهرولًا وهو يحمل حقيبته وصفيحة المياه. وضع الحقيبة فوق أوراق الأشجار، ثم فتحها وأخرج صُرَّة من الكتَّان، فتحها وأخرج منها القالَبَ المسبوك حديثًا، وقدمه للمفتش.

نظر إليها الرقيب وضحك ضحكة مكتومة. قال: «إنه مدهش للغاية، يبدو تمامًا كنعل حذاء أبيض، ولأغراض المقارنة، فهي تقوم مقام الحذاء نفسِه. ما رأيك يا سيدي في أن يصنع السيد بولتون قالبًا لهاتَين العلامتين؟»

«هذا ما كنت أُفكر به بالضبط أيها الرقيب. ما قولك يا سيد بولتون؟ هل معك ما يكفي من الجص؟»

«معي ما يكفي لسبكِ ثلاثة أو أربعة قوالبَ أخرى إن استخدمته بحرص، وهذه العلامات الصغيرة غير العميقة لن تتطلب الكثير. سيكون معي ما يكفي لتلك الآثار الأخرى التي نحتاج إلى صُنع قوالب لها.»

قال بلاندي: «شكرًا لك، هذا مهم للغاية؛ فالقوالب المصبوبة ستُبين على الأرجح شكل الكعبين بوضوح أكبر.»

وهكذا شرع بولتون في العمل فورًا، فيما تابع المفتش معاينته للتبة، فصعد إلى قمتها وفحص الأرض بدقة شديدة. هنا وجد آثارًا غير واضحة لشيء جُرَّ عبر القمة، والأهم من ذلك أنه وجد خيطًا صغيرًا من الحرير الأخضر على الطرَف المسنن لغصن مكسور. وضع هذا الخيط الحريري في المظروف الذي يحوي الزر ودوَّن عليه من الخارج ملاحظة توصيفية. ثم نزل المنحدر في الجهة الخارجية للتبة، وعاين الأرض عند قاعدته بحرص شديد. لكن هنا كانت الشواهد العينية غيرَ مبشِّرة إلى أقصى حد؛ إذ كان يقف الآن في الطريق الأخضر، ذلك المرج القديم المطروق الذي لا تنطبع عليه أيُّ آثار أقدام على الإطلاق، وهو ما تحقق منه بالسير بِضع خطوات نزولًا، فلاحظ أن قدمَيه لم تتركا أيَّ أثر فيه.

قال باغتمام للسيد إلمهورست الذي كان يتبعه هو والرقيب: «حسنًا، يبدو أن الأثر ينتهي هنا. هل بإمكانك أن تتبيَّن في أي اتجاه سار؟»

هز إلمهورست رأسه نفيًا. «لا شيء أخفَّ وزنًا من حصان من شأنه أن يترك آثارًا ظاهرة على هذا المرج. يجب أن نُحاول اقتفاء الآثار من مسافةٍ أبعد، لو كان حقًّا حمَل الجثة إلى خارج المعسكر. فمن غير المؤكد أنه فعل. ونحن لم نفرغ بعدُ من إجلاء السطح، وحتى نفحص المعسكر بأكمله، لا يمكن أن نكون واثقين من أن الجثة ليست مخبَّأة بداخله.»

لكن ذلك التشجيع الواهيَ لم ينجح في طمأنةِ المفتش.

قال موافقًا: «هذا صحيح، لكننا اقتفينا الآثارَ حتى قمة التبة، ومن الواضح أنه سلك ذلك الاتجاه. ومع ذلك، أنت محقٌّ تمامًا. يجب ألا نترك أي احتمال دون التأكد منه.»

وهكذا توقفت الملاحقة مؤقتًا في الوقت الحالي. عاد إلهورست إلى المستكشفين واستأنف فحصه المنهجي للمعسكر؛ وبعد أن أنهى بولتون صنع القالبَين المصبوبين الصغيرين (اللذين أظهَرا بوضوح عَقِبَي حذاءٍ نسائي ذي كعب عالٍ)، سار عائدًا متبعًا تلك الآثارَ وصنع قالبًا لأثرِ قدم الرجل حيث كان يسير مع رفيقته ليكون «مرجعًا للمقارنة»، وآخرَ لآثار قدمَي المرأة في المكان نفسِه، وثالثًا لقدمي الجسد الذي طُرِح أرضًا بالقرب من الشجرة؛ وفي كل هذه الحالات الثلاث، التقط صورة فوتوغرافية للآثار قبل صب القوالب.

كل هذا، إلى جانب فترات التوقُّف الضرورية من أجل الراحة وتجديد النشاط، استغرق وقتًا، وكان ضوء النهار قد بدأ يخفت بالفعل حين بحث السيد إلهورست عن المفتش كي يُخبره بالتطورات.

قال: «هي ليست هنا أيها المفتش. لقد فحصنا كلَّ بوصة من المعسكر، ولم نجد أيَّ أثر لاضطرابٍ في سطح الأرض. بالطبع لم يكن هذا البحثُ الدقيق ضروريًّا، لكنه جاء بالنفع. فهو يحسم الأمر دون أن يدعَ أي مجال للشك.»

وافقه بلاندي قائلًا في تجهُّم: «هذا صحيح. لكنها نتيجة مخيبة للآمال.»

أقرَّ إلهورست قائلًا: «أخشى أنها كذلك. لكنها مع ذلك حاسمة، ولا تغلق التحقيق»، ثم أضاف بنبرة تشجيعية: «إن لم تكن هنا فلا بد أنها في مكان آخر. لا يزال أمامك احتمالات قائمة فيما تبقَّى من الغابة، بما فيها من بِرَك وبحيرات.»

ابتسم بلاندي ابتسامة أقلَّ وُدًّا من المعتاد. قال: «لا أستسيغ فكرة تجوُّل رجلٍ في الغابة حاملًا جثةَ امرأة ذات وزن كبير نوعًا ما، حتى وإن كان ذلك ليلًا. مع ذلك، أعتقد أننا يجب أن نضع هذا الاحتمال في الاعتبار.»

وهكذا انتهت حملة الاستكشاف، التي بدَت مبشرة للغاية في الصباح، على نحو غير مرضٍ. ولم تكن تلك هي نهايةَ البحث. ففي الأيام التالية، جابت الشرطة، بمساعدة حراس الغابة والأعضاء المحليِّين للنادي الميداني ساحات الغابة المفتوحة وأجَماتها التي كانت الأوراق المتساقطة تكسو أرضيتها الآن، بحثًا عن أثر للمرأة المفقودة، لكن دون جدوى. فقد مُشِّطَت البرك عند منطقة كوكو بيتس والعديد من المسطحات المائية الأخرى،

وفُتِّشت ضفاف الجداول بحثًا عن آثار أقدام، لكن ذلك لم يُسفر عن شيء. حين انتهي كلُّ ذلك، وتُرِك البحث أخيرًا، تبين أن المفتش بلاندي كان مُحقًّا في حكمه. كانت العلامات التي وُجِدَت على قمة التبة بالفعل هي «نهايةَ الأثر». هناك اختفت لوتا شيلر، سواءٌ أكانت حيةً أم ميتة؛ إلى أين ذهبت وفي أي حال، لا أحد يعرف. ذهبَت آخذةً معها سرَّ مقتل إيما روبي الغامضِ واسمَ قاتلها (هذا إن كانت تعرفه).

لا شك أن الشرطة لم تنسَها وتابعت تحقيقاتها بشأنها؛ لكن إن صحَّ ذلك، فلم تُسرَّب أي همسات عن أي اكتشاف جديد. كان السيد بولتون، الذي استقر ملفه المكتظ بقُصاصات الصحف في مكانه المناسب الآن على أحدِ الأرفف، يرى في هذا الفشل خيبةَ أملٍ شديدةً تمنى ألا تكون هي النهاية. أما بالنسبة إلى توم بيدلي فكان بمثابة انفراجة؛ ومع مرور الأسابيع حتى صارت شهورًا وأضْحَت الشهور سنواتٍ، تلاشت ذِكرى تلك الأحداث المفجعة من ذاكرته تدريجيًّا، حتى لم يبقَ منها ما يُسبب له أي ألم.

الجزء الثاني

العنصر المجهول

يرويه د. كريستوفر جيرفيز

الفصل الحادي عشر

السيد بينفيلد يحرك الأمور

مرَّت بنا جميعًا مقولة تمخَّض الجبلُ فأنجب فأرًا؛ لكن لم يسمع أيٌّ منا قط، ولا أنا بالتأكيد، عن فأرٍ تمخَّض فأنجب جبلًا. لكن لأننا نتعامل مع مستحيلات، أجد هذه الاستعارة لا تَقل روعةً عن سابقتها. لكني لا أنوي الخوضَ في تلك المسألة. فقد خطرَت ببالي تلك الاستعارةُ الأخيرة فقط كنايةً عن حقيقة أن أفعالًا تافهةً تبدر من أشخاص قليلي الشأن ربما تُثمر عن نتائجَ ضخمة لا تتناسب مع مصدرها؛ وتلك فكرةٌ واضحة بما يكفي لفَهمها دون الحاجة إلى أي استعارات تمامًا. وأما عن علاقتها بالقصة المأساوية والغريبة التي أنا بصدد روايتها، فربما كان من الأفضل أن أتركها تتضح في الوقت المناسب، مكتفيًا فقط بالإشارة إلى أن اسم ذلك الفأر الوَلود هو ناثانيل بولتون، الذي تصادف أنه مساعدنا المختبَري، وتابع الدكتور ثورندايك الأمين.

بدأت علاقتنا المباشرة بتلك القضية بمحض المصادفة. كان ذلك في سياق زيارة تلقَّيناها من صديق قديم، هو السيد جوزيف بينفيلد القاطنُ بمساكن جورج يارد بشارع لومبارد، في مسكننا بالمبنى رقم فايف إيه بشارع كينجز بينش ووك. كان الغرضُ من الزيارة في ظاهرها هو الاستشارةَ المِهْنية، لكن ثورندايك أجراها بأسلوبه غيرِ المتكلَّف المعهود؛ وهو أسلوب كان يصدم أصدقاءنا من رجال القانون ويروقهم في الوقت نفسِه.

في تلك اللحظة، كان السيد بينفيلد يجلس في ارتياحٍ في كرسيٍّ وثير وُضع أمام المدفأة، مسندًا أصابع قدمَيه إلى حاجزها، وبجانبه على طاولة صغيرة علبة نُشوقه الفِضيةُ وكأسٌ من نبيذ الشيري.

قال: «حسنًا، يبدو أن ذلك هو الحلُّ لجميع ما أواجهه من صعوبات. والآن صرتُ أعرف كلَّ شيء عنه، أو هكذا أظن، بفضل شرحك المتعمِّق الجلي. أعتقد أن محاميًا لديه

من المكانة والخبرة العَملية ما يربو على أربعين سنةً لا يفترض أن يحتاج إليه، لكن بطريقة ما، عندما آتي إلى هنا لمناقشة أمورٍ قانونية معك، أشعر وكأني مجرد تلميذ.»

قال ثورندايك: «إنه شعور مضلل جدًّا. الحقيقة أنك عادة ما تستشيرنا في المسائل التي لا تقع في دائرة اختصاصك، بل في دائرة اختصاصنا. في القضايا المتعلقة بقانون الملكية أو إجراءات نقل الملكية، ربما أنت مَن ستجعلنا نشعر بأننا تلميذان، أما في أمور مثل الإرث أو افتراض الوفاة، حيث تكون المعرفة الطبِّية أو العلمية مفيدة، تكون الغلَبة لنا.»

وافقه السيد بينفيلد بنبرةِ تأكيد أقوى مما يستحق ذلك التفسير الواضح قائلًا: «هذا صحيح. صحيح جدًّا.»

سكت متأملًا، وحملقَ بنظرة ثابتة في نار المدفأة. وبعد أن أنعش نفسه بذرَّة من النشوق ورشفةٍ متناهية الصِّغر من النبيذ، تابع قائلًا:

«أنا سعيد أنك أتيتَ على ذكر موضوع افتراض الوفاة؛ فهذا موضوع يقع في دائرة اهتمامي نوعًا ما في الوقت الحالي.»

سأله ثورندايك: «هل تُفكر في التقدم بطلب افتراض وفاة؟»

أجاب بينفيلد: «كلا. على العكس، أنا أُفكر في جدوى الطعن على واحد. لم أحسم أمري بعد، لكن باعتباري الوكيلَ والقائم على تنفيذ وصية الشخص الذي يفترض البتُّ في طلب افتراض وفاته، أشعر أن مسئولية الطعن على ذلك الطلب تقع على عاتقي. واجبي بالطبع هو مراعاة مصالح موكِّلي؛ ولأن افتراض الوفاة ليس كواقع حدوثها، يظلُّ احتمال أن يكون الشخص المفترض وفاته على قيد الحياة في الواقع قائمًا دومًا. وسيكون موقفي حرجًا جدًّا إن تبين، بعد الحكم بافتراض الوفاة وتوزيع التركة، أن موكلي لا يزال على قيد الحياة وأتاني طالبًا تقريرًا عن إدارتي لممتلكاته. لن أكون سعيدًا تمامًا إن صدَّقت على ذلك الطلب دون اعتراض.»

قال ثورندايك: «أعتقد أن ثمة مبرراتٍ دامغةً للاعتقاد بوفاة ذلك الشخص، أليس كذلك؟»

«لا بد أن ثَمة مبرراتٍ دامغة. الحُجة التي يستند إليها الطلبُ هي أن ثمة سببًا وجيهًا يدعو إلى الاعتقاد بأن ذلك الشخص قد قُتِل؛ ورغم عدم وجود دليل مباشر على الجريمة، وعدم العثور على الجثة، لم يرَ أحدٌ ذلك الشخصَ أو يأتِه منه خبرٌ منذ تاريخ الجريمة المفترَضة. ولأن ذلك التاريخ ليس ببعيد — إذ لم يمرَّ عليه سوى عامَين تقريبًا — فلا بد

أن ثَمة مجموعة معتَبَرة من الأدلة الظرفية التي جعلَت تقديم ذلك الطلب ممكنًا. لكني لم أخُض في أمرها.»

«وبالنسبة إلى الملابسات الفرعية، أظنك تعلم عنها كلَّ شيء؟»

«في الواقع لا، ولست مهتمًّا بها كثيرًا؛ فهي ليست جوهريةً بالنسبة إلى الأمر. السؤال المهم هو هل من المرجَّح أن تكون تلك السيدة ميتة أم لا. هذا ما على المحكمة أن تُقرره، وهذا كلُّ ما يَعنيني.»

عقَّبَت قائلًا: «إذن فمُوكلتك تلك امرأة، أو كانت كذلك.»

«أجل، امرأة تُدْعى السيدة شيلر.»

صِحتُ متعجبًا: «لوتا شيلر!»

«أها! إذن تعرفان الاسم، وربما تعرفان أيضًا بعضًا من مُلابَسات القضية، أليس كذلك؟»

«بلى بالطبع. كان بولتون على معرفة بالسيدة، وكان يُولي ظروفَ اختفائها اهتمامًا يكاد يكون مُفرِطًا. لقد جمع كلَّ معلومة مهما كانت ضئيلة تتعلق بهذا الأمر، وحضر بالفعل عملية البحث عن الجثة، فكان يَسبِك قوالبَ آثار الأقدام ويلتقط صورًا فوتوغرافية لها. من المحتمل أنه لا يزال محتفظًا بتلك الصور.»

قال السيد بينفيلد: «أها، هذا مثير جدًّا للاهتمام، مع أن أثر القدَم عادةً ما يُشير ضمنًا إلى شخص حي. ولكن ما ذكَرته يضعُ حدًّا لتردُّدي، سأطعن في ذلك الطلب إن ضمنت مساعدتك. فما قولك؟»

أجاب ثورندايك: «موافق بالطبع. فالقضية تقع ضِمن دائرة اختصاصي تمامًا.»

«ليس هذا فحسب. فإلى جانب درايتك وخِبرتك العامة، أنت على دراية بوقائعِ تلك القضية بالذات، وهو ما سيكون له قيمةٌ لا تُقدَّر أثناء الاستجواب.» ثم أردفَ بابتسامته الغريبة الساخرة: «كما أن من الأشياء الأخرى التي تجذبني إليك أنك تستطيع إعدادَ عريضة الدعوى بنفسك.»

قال ثورندايك: «لنقل إنني سأُعِد جزءًا منها فقط. يجب أن نعتمد عليك في معرفة الوقائع العامة للقضية. كالدافع، على سبيل المثال. لِمَ يُريد شخصٌ ما اعتبار تلك السيدة في عداد الموتى؟ ومن الأطراف المعنيَّة؟ هل الزوج واحدٌ منهم؟»

«كلا. لا شك أنه سيُهِمه معرفةُ ما إذا كان زوجًا أم أرمَل، لكنه ليس معنيًّا من الناحية القانونية. فليس لديه ما يَجْنيه، وهو ليس طرَفًا في ذلك الطلب. أما الدافع، فهو

مبلغ مالي يُقدَّر بحوالي عشرين ألفَ جنيه إسترليني، والمدَّعي هو المستفيد الوحيد من وصيَّة السيدة شيلر، وهو الذي سيذهب إليه ذلك المبلغ حالَ قَبول الطلب. هذه الوقائع لا تبدو ذاتَ صلة بقضيتنا، التي هي ببساطة ما إذا كانت تلك المرأة حيةً أم ميتة؛ لكني أوافقك الرأي في أنك ستحتاج إلى معرفة الخطوط العريضة للقضية. بداية، ربما يُفيدك أن تحصل على ملخَّص لتاريخ علاقتي بالسيدة شيلر. أما التفاصيل فيُمكن استكمالها لاحقًا.»

وافق ثورندايك على ذلك الاقتراح، فاستنشق السيد بينفيلد ذرةً من نشوقه وبدأ يسرد روايته.

«منذ حوالي خمس سنوات — لا أستطيع أن أُحدد لك تواريخَ أو أرقامًا بعينها؛ إذ إنني أتحدث من الذاكرة — لكن منذ ما يزيد على خمس سنوات بقليل، زارتني السيدة شيلر في مكتبي وطلبَت مني أن أَصوغ لها وصيتَها وعهدت إلى بتنفيذها وبمبلغ مالي تَملكه. كانت غريبة عني، لكنها أحضرَت لي خطابَ تعارُف من أحد عملائي — لم يَعُد على قيد الحياة في الوقت الراهن — فوافقَت على تولِّي المهمة، مع أن انطباعي عن السيدة نفسِها لم يكن حسَنًا للدرجة؛ فقد كانت امرأةً لَعوبًا مبهرجة ذاتَ شعر ذهبي، تضع زينة تجعلها تبدو كالمهرجين ومساحيقَ تفتيحٍ تجعلها تبدو كالطحانين، وأسلوبها متحرِّر للغاية وغيرُ متكلِّف. غير أن الأمر كان بسيطًا وسهلًا للغاية؛ حوالي ثلاثمائة جنيهًا أوصَت بها لمستفيدٍ واحد فقط؛ وعلى ذلك صُغت مسوَّدة أوَّلية قصيرة للوصية في حضورها، وقرأَتها عليها، وبِناءً على طلبٍ منها عينتُ نفسي المنفِّذَ الوحيد لها. وبعد أن ضرَبتُ لها موعدًا في صباح اليوم التالي، كتبت النصَّ النهائي للوصية وأجريتُ الترتيبات اللازمة مع البنك.

عندما جاءت في صباح اليوم التالي، وبحوزتها أموالها نقدًا، كان ثَمة ترتيباتٌ إضافية ينبغي اتخاذُها. فنظرًا إلى أنها كانت كثيرة التنقل وليس لها عُنوان ثابت، أرادتني أن أكونَ وكيلَ أعمالِها وأتولَّى إدارة شئونها المالية على قلَّتها. لا داعي إلى الخوض في تفاصيل. بموجِب تلك الترتيبات صِرْت وكيلها المخوَّل باستلام الأموال ودفعها بالوكالة عنها؛ وبعد توقيع الوصية والوثيقة الأخرى في حضور الشهود في مكتبي، تم الاتفاق. وغادرتُ مكتبي على الفور، ولم أرَها مجددًا ولم تتواصَل معي منذ ذلك الحين.»

«أعتقد أنها تركَت لك عُنوانها، أليس كذلك؟»

«أجل. كانت تسكن حينَها في غُرف مستأجَرة في مكانٍ يُدعى لينتون جرين — في شارع كوربي على وجه التحديد حسَبما أعتقد — وأتذكَّر أن صاحبة المنزل كانت تُدعى وارتون. لكن لا أهمية لذلك؛ إذ إنها كانت قد تركَت تلك الغرفَ المستأجَرة حين سألت عنها هناك، ولم تكن صاحبةُ المنزل تعلم إلى أين ذهبَت. كانت قد وعدَتني بأن تُخبرني بمكانها حين تغيَّر عُنوانها، لكنها لم تفعل قط؛ وهو ما لم يَشغَل بالي لمدَّة من الزمن؛ إذ لم يحدث ما يستدعي التواصلَ معها.

لكن بعد ذلك استجدَّ أمرٌ ما. فقد تُوفِّي رجل ثري نوعًا ما يُدعى السيد تشارلز مونتاجو (يُؤسِفني أن أقول إنه أيضًا قد قُتِل. كانت قضية مقتلِه برُمتها بغيضة). على أي حال، كان هذا الرجل قد أوصى لامرأةٍ تُدعى الآنسة دالتون بمبلغ قدره حوالي عشرين ألفَ جنيه إسترليني. حدث بعضُ التأخير فيما يتعلق بمسألة التحقق من صحة وصيته بسبب أن ثَمة مدفوعاتٍ بمبالغَ كبيرة — تعدَّت ألفَ جنيه — كانت قد سُدِّدت نقدًا دون أن تُسجَّل في دفاتر الحسابات. وهي تفصيلة أخرى بغيضة؛ إذ لم يكن ثمة شكٌّ في أن تلك المبالغ المدفوعة تُشير إلى ابتزاز، بخاصة أن الرجل قد قُتِل. لكن ثبتَت صحة الوصية في نهاية المطاف؛ لكن ما كادت صحتها تثبت حتى تُوُفِّيت الآنسة دالتون.

حينها تبينَ أنها كتبَت وصيةً تُوصي بموجبها بكاملِ أملاكها للسيدة شيلر، التي آلَت إليها العشرون ألف جنيه أيضًا باعتبارها الموصى لها بباقي التَّرِكة. لكن ظهرَت مشكلةٌ جديدة. فإلى جانب عدم معرفتنا بمكان وجودِ السيدة شيلر، لم نكن واثقين من أنها على قيد الحياة، أو حتى أنها كانت على قيد الحياة وقت وفاة الآنسة دالتون. تلك مسألةٌ لا أستطيع منحَك أيَّ معلومات بشأنها بالطبع. حاولت التواصل معها عبر القنوات المعهودة لكني لم أُوفَّق في ذلك؛ ولذا ظلَّ الأمر معلقًا لفترة.

ثم انكشف الأمرُ بطريقة غريبة جدًّا. فقد وقعَت جريمةُ قتل أخرى (لا بد أن أعتذر عن تلك التفاصيل البشعة) وتبيَّن أن دائرة الشك طالت السيدة شيلر، على الأقلِّ كشريكةٍ في الجُرم. لكن هذا لا يعنينا. فالحقيقة الأهم هي أنه قد ثبت أنها كانت على قيد الحياة، وبالتبعية، صارت الوصية نافذةً وآلت إليها التَّرِكة؛ وبمقتضى الحال، قدَّمتُ مطالبة بالنيابة عنها، متغاضيًا عن التفاصيل الجنائية. لكن المدهش هو أنه تبيَّن حينها أنها كانت تسكن طوال ذلك الوقت في مكان يُدعى شارع جيكوب، يبعد عن مكتبي مسافةَ رحلة قصيرة بالحافلة.

لكن ما إن انكشفَ الغموض عن ذلك الأمر حتى حل محلَّه غموضٌ آخر؛ وهو الأمر الذي يعنينا. أولًا، اختفَت السيدة شيلر. ثم اكتُشِفَت آثارٌ لها دفعَت الشرطة إلى الاعتقاد بأنها قُتِلت. لكن لم يُعثَر قطُّ على جثتها أو على أي دليل فِعْلي على وفاتها. على الجانب الآخر، لم يرَ أحد تلك المرأةَ أو يأتِه منها خبرٌ منذ اختفائها. يبدو أن الشرطة قد أجرَت جميع التحريات الممكنة، لكنها لم تستطع العثور على أي أثرٍ لها. وكما فهمتُ، فموقف الشرطة من الأمر غير واضح على الإطلاق؛ فهي ربما تكون ميتة أو على قيد الحياة، لكن لا يوجد دليل مؤكَّد يُرجح أيَّ الاحتمالَين.

هذا هو الوضع؛ وستكون مهمتنا — أو بالأحرى مهمتُك — هي النظرَ في الوقائع وتقييمَ الاحتمالات. إنْ تبيَّن أن ثمة أسسًا قوية بشكل واضح لافتراض الوفاة، فقد لا يكون ثَمة ما يستحق فِعله سوى مراقبةِ سير القضية لصالح موكلتي الغائبة. سنستطيع الحكم على ذلك على نحوٍ أفضل عندما نعرف ما هي الوقائع التي يستند إليها المدَّعي على وجه التحديد.»

قال ثورندايك: «إذن أفهم من ذلك أنك لم تتسلَّم بعدُ نسخًا من الإفادات الموثَّقة للشهود، أليس كذلك؟»

«بلى. لم أتسلَّم بعدُ أي إخطار رسمي بالدعوى؛ بل مجرد إخطار وُدي تمامًا وغير رسمي بالطلب المقدَّم. ومن جانبي، لن أُنازِعَك دون داعٍ في حكمك. فأنا لا يعنيني كثيرًا كونُ المرأة حيةً أو ميتة. بل أفعل فقط ما أعتقد أن الواجب يُمليه عليَّ تجاه موكلة غائبة، وبالطبع لن أُعارض الطلب إن رأيتَ، بعد النظر في الوقائع، أنه يجب الموافقةُ عليه. فور أن أتسلَّم نسخًا من الإفادات الموثقة للشهود، سأُسلمها لك، وحينها سيكون بإمكانك أن تُشير عليَّ بالإجراءات الأخرى.»

بهذا انتهت المهمة، وبعد ذلك بقليل، نهض السيد بينفيلد، ووضع علبة النشوق في جيبه، وأزاح قارورة النبيذ التي قُدِّمت له، ثم صافحَنا وغادر.

بعد رحيله قلتُ مُعقبًا: «تبدو لي قضيةً واعدة للغاية، مع أن بينفيلد لا يبدو متحمسًا لها كثيرًا. لكنه لا يكون متحمسًا قطُّ إنْ شابَ القضيةَ أيُّ عنصر جنائي. سيكون من المشوق معرفةُ تفاصيل الحجة التي أقامها محامُو المدعي لإقامة الدعوى.»

قال ثورندايك: «أتوقع أنهم سيسيرون في المسار نفسِه الذي اتخذه بينفيلد.»

قلت موافقًا: «أجل، وعلى كل حال، تبدو وجهةُ نظره منطقية تمامًا، مع أني أظن أنك لن تُوافقني الرأي. لكن في الحقيقة، كل ما على المحكمة أن تُقرره هو ما إذا كان

احتمال وفاة تلك المرأة راجحًا بما يكفي لتسويغ افتراض وفاتها. والملابسات الفرعية العديدة، كما يُصِر بينفيلد، تبدو لا علاقة لها بالأمر.»

رد ثورندايك قائلًا: «السؤال هو، ما المقصود بالملابسات الفرعية؟ بينفيلد يفترض أن الوقائع والملابسات التي يبدو ظاهريًّا أنْ لا علاقة لها بالقضية الأساسية غيرُ ذات أهمية، وربما يُمكن التغاضي عنها. لكن إلى حينِ النظر في تلك الوقائع، يستحيل الجزمُ بأهميتها من عدمها. فمن الخطأ الشديد تصنيفُ الوقائع مسبقًا إلى مهمة وغير مهمة، وقصرُ النظر فيها على تلك التي تبدو مهمة في ظاهرها.»

قلتُ في إصرار: «لكن الوقائع المادية واضحةٌ أمامنا؛ وإن كانت تُرجح بقوة احتمال أن تلك المرأة قد قُتِلت، فلا أرى حقًّا أيَّ أهمية للوقائع الأخرى العديدة، كشخصيتها وأسلوبِ حياتها على سبيل المثال. المسألة بسيطة، مفادها هل المرأة حيةٌ أم ميتة. إن كانت ميتة، فالقضية محسومة. أما الطريقة التي ماتت بها أو العوامل التي ساقتها إلى الموت، فهي أسئلة مُشوقة، لكنها غير جوهرية للقضية. غير أن الوقائع المعروفة قد لا تكون حاسمةً بما يكفي لاتخاذ قرار مسوِّغ. سنكون أكثرَ قدرة على الحكم عندما نطَّلع على الإفادات الموثقة للشهود.»

قال ثورندايك: «لا أعتقد أنها ستُخبرنا بأي جديد. لقد سمعنا قصة البحث كاملة من بولتون وإلمهورست، وقرأنا تقريرًا عما ما حدث حينها. على الأرجح، نحن نعرف جميع الوقائع التي سيستند إليها المدَّعي، بِناءً على ما قاله بينفيلد.»

«ربما تعرفها أنت، لكني لا أتذكرها بوضوح. أخشى أنني لم أكن أُشارك بولتون حماسه كثيرًا. وعلى كل حال، لم يكن الأمر يَعْنينا شخصيًّا.»

قال ثورندايك: «إذن دعني أُنعِش ذاكرتك. باختصار، القضية كما يلي: عُثِر على امرأة مقتولة بداخل مسكن لوتا شيلر بالمنزل رقم تسعة وثلاثين بشارع جيكوب. دخَل مرتكب الجريمة باستخدام مفاتيح لوتا شيلر.»

قلتُ مقترحًا: «أو ربما باستخدام مفاتيحَ شبيهةٍ بها، أو مفاتيحَ هيكلية عامة.»

«كلا. لقد عُثِر على مِفتاح منها في قُفل الباب، وثبت يقينًا أنه مفتاح لوتا شيلر الخاصُّ. وقت اكتشاف الجريمة، كانت لوتا قد اختفَت بالفعل، وفشلت الشرطة في العثور عليها أو التواصلِ معها. بعد ذلك بقليل — لا أذكر التواريخ على وجه التحديد — عُثِر على حقيبة يدها على التبة التي تُحيط بالمعسكر البريطاني في غابة إيبنج. كان بداخلها جراب مفاتيح ينقصه مِفتاحان؛ أحدهما مفتاح البوابة الخارجية، والآخَر مِفتاحُ الغرفة

التي يبدو أن جريمةَ القتل ارتُكِبَت فيها. وبداخل المعسكر، عثرَت الشرطةُ على قِلادة تخصُّ لوتا، التي تَصادف أنْ كان بولتون هو مَن صنعها، وكان بداخلها صورةٌ شخصية لصديقنا السيد فاندربوي.»

«أجل، أتذكَّر ذلك. مسكينٌ فاندربوي! سيتمنَّى لو كان قد عاد إلى إفريقيا عندما يعرف أن تلك الفضيحة ستُنبَش من قبرها.»

وافقني ثورندايك قائلًا: «أجل على الأرجح، مع أن شهادته لن تُشير سِوى إلى تاريخ آخر مرة رأى لوتا فيها. لكنْ عودةً إلى موضوعنا: لما كان العثور على هذه الأغراض يُشير إلى احتمال أن تكون المرأة قد قُتِلَت، وأن قاتلها تخلَّص من جثتها في الجوار، نظَّمَت الشرطة بحثًا مكثفًا في المعسكر في محاولة لإيجاد أيِّ آثار أخرى لها، حية أو ميتة. كانت ثمرةُ ذلك البحث هي اكتشافَ سلسلة من آثار الأقدام، تعود إلى رجل وامرأة على الأرجح كانا يسيران جنبًا إلى جنب حتى موضعٍ قريب من ذلك الذي عُثِر فيه على القلادة. في هذا الموضع، كانت مواطئُ آثار الأقدام تُشير إلى حدوث عراك، وكان ثَمة أثرٌ غير واضح نوعًا ما يُشير إلى أن المرأة كانت ترقد ممدَّدة على ظهرها. من هذه النقطة، استمرَّت آثار الأقدام، لكنها كانت لقدَمَي الرجلِ فقط. أما المرأة فلم يكن ثَمة آثارٌ أخرى لقدمَيها؛ كما لوحظ أن آثار قدمَي الرجل كانت أعمقَ نوعًا ما من ذي قبل.

عبرَت آثارُ قدمَي الرجل المعسكر إلى الجهة الشمالية الغربية حتى وصلَت إلى التبة المحيطة به، وهناك اكتُشِفَت بعض الأمور الأخرى. لُوحظ أن الرجل قد صعد التبة مرتَين؛ الأولى كانت بغرض الاستطلاع فيما يبدو. بالقرب من قاعدة التبة، كان ثمة أثرٌ آخرُ مبهَم تمامًا لجسدِ امرأة ممدَّدٍ على الأرض. بالقرب منه، عثر أحدهم على زِر. كان زرًّا مميزًا للغاية، مَطليًّا باليد، وتعرَّف عليه السيد بيدلي يقينًا بأنه زر من معطف لوتا. على غُصن شجرة مكسورٍ في منتصف الطريق صعودًا إلى التبة، عُثِر على قطعة صغيرة من خيط باللون الأخضر من خامةٍ ما عالقةٍ به. وقد تعرَّف عليها السيد بيدلي بأنها من الخامة نفسِها المصنوعِ منها معطفُها وثوبُها. وأخيرًا، على قمة التبة، كان ثَمة آثارٌ على الأرض تُشير إلى أن شيئًا ثقيلًا أُلقي من القمة.

كان ذلك، كما وصفه المفتش بلاندي حينها، هو «نهاية الأثر». على الجانب الخارجي من التبة، امتدَّت حشائشُ الطريق الأخضر، التي ما كانت لتظهر عليه آثار أقدام على أي حال؛ لكن الحقيقة هي أنه لم يُعثَر على أي آثار أو علامات من أيِّ نوع خارجَ حدود المعسكر، بينما لم يُعثَر بداخلها على ما يُشير إلى أن الأرض نُبِشَت في أي موضع. يُمكن

الجزم يقينًا بأن الجثة — إن كان ثمة أيُّ جثث — ليست مدفونةً بداخل المعسكر؛ كما لم يتَسنَّ العثور على أي آثار للرجل أو المرأة في أي مكان خارجه.

تلك هي الوقائع التي أعتقد أننا سنجدها مثبَتةً في الإفادات الموثقة الموقعة، إلى جانبِ ما يُفيد بأن أحدًا لم يرَ المرأة أو يَرِدْه منها خبرٌ منذ زيارتها للغابة برفقة فاندربوي. تلك هي الوقائع التي سيستند إليها الطلب المقدَّم إلى المحكمة للحصول على تصريح باعتبار لوتا شيلر متوفَّاة؛ وأنا أسألك يا جيرفيز باعتبارك طبيبًا شرعيًّا محنكًا، إن كنتَ ما زلتَ ترى أن تلك الوقائع الفرعية، مثل شخصية المرأة وأسلوبِ حياتها، غيرُ جوهرية بالنسبة إلى المسألة؟»

قلت: «ما زلتُ أراها كذلك. لكن أعتقد أنني مُخطئ؛ إذ يبدو أنك تُخالفني الرأي. لكن يبدو لي أن تلك الوقائع التي ذكَرتها تُشير بقوة إلى أن المرأة قد قُتِلَت وأُخفِيَت جثتها في مكانٍ ما في الغابة. ويبدو كذلك أنه كان ثمة دافعٌ كافٍ لقتلها؛ وهو حيازة المفتاحَين والتخلص من شخصٍ ربما يُمثل خطرًا على القاتل. فمن المؤكَّد فعليًّا أن لوتا شيلر كانت ستعرف أو تُخمن هُوية مرتكب الجريمة التي وقعَت في مسكنها.

تبدو لي الأدلةُ الظاهرية على مقتلها قويةً للغاية، وإن أضَفْنا لها حقيقة أن أحدًا لم يرَها أو يأتِه خبرٌ منها قط منذ ذلك الحين، فسترجح كفة ذلك الاحتمال، ويصير قطعًا كافيًا، في رأيي، لتسويغ افتراضِ وفاتها.»

عقَّب ثورندايك مقهقِهًا بإعجاب: «وهو المطلوب إثباته. لقد عرَضتَ حُجة المدعي بوضوحٍ رائع. لكنها للأسف الحُجة التي علينا دَحضُها، إنْ تسنَّى لنا أن نفعل ذلك بطريقةٍ عادلة وبالاتساق مع ما نعتقد أنه الحقيقة. لأجل ذلك، أدعو صديقي الخبيرَ أن يستدعيَ قدراته الفكرية الفذَّة للنظر في عرض نقيضِ ذلك الاحتمال. هلمَّ يا جيرفيز، ها قد أتتك فرصةٌ كي تستدعيَ فطنتك وتستغلَّ حنكتك. لقد استعرضتَ لتوِّك ببراعة الأسبابَ التي تدعو إلى افتراض وفاة لوتا شيلر. الآن، انتقل إلى الجانب الآخر وانظر إن كان بوُسعك إيجادُ أسباب تدعو إلى افتراض أنها لا تزال على قيد الحياة.»

راودَني شكٌّ قوي ومتزايد في أنني كالعادة أغفلتُ حقيقةً جوهرية ما، فوعَدتُه بأن أُعيدَ النظر في القضية، وكخطوةٍ أولى لا غِنى عنها، سأُنعش ذاكرتي فيما يتعلق بملابَسات القضية بأكملها؛ وفي سبيل ذلك، قصَدتُ جُحر بولتون، وبعد أن أخبرتُه بأمر الطلب المُقدَّم، لم أجد صعوبةً في استعارة مجموعته الضخمة من قُصاصات الصحف، التي أخذتها معي لأدرسها بتروٍّ.

الفصل الثاني عشر

توم بيدلي يستقبل زوارًا

صحيحٌ أن السؤال الذي ختَم به ثورندايك روايته أجفَلَني نوعًا ما؛ لكن ما فاجأني بحقٍّ هو تذكُّره للقضية بكامل تفاصيلها وبوضوح. لكن كان حريًّا بي ألا أُفاجَأ من ذلك؛ إذ إنه أمرٌ تكرر كثيرًا فيما سبق، لكني دائمًا ما كنتُ أُخفق في أن آخذ بعين الاعتبار وجودَ اختلاف جوهري بيني وبينه؛ لقد كان ثورندايك خبيرًا جنائيًّا عبقريًّا، أما أنا فلم أكن كذلك. عندما كنتُ أُطالع تقريرًا لقضية جنائية، كنت أفعل ذلك بلا اكتراث، وإن لم تكن القضية تعنينا، كنت أصرفُها عن ذهني وأنسى أمرَها في الحال.

لكن ليس هذا ما كان يفعله ثورندايك. فكل قضية بالنسبة إليه كانت بمثابة مشكلة؛ وإن شابها أيُّ عنصر من الغموض أو الالتباس، كان يدرسها، ويخرج بحلٍّ محتملٍ أو أكثرَ لها، ويحتفظ بالقضية في ذاكرته حتى يُزال عنها الغموض — إن حدث ذلك — وينكشفَ حلُّها الفعلي. كانت تلك عادةً مفيدة؛ فبجانب كونِها رياضةً ذِهنية تُعادل في قيمتها الخبرة في الواقع، كانت لها مَيزة عملية، وهي أنه حال أُحيلت لنا إحدى تلك القضايا في نهاية المطاف — كما يحدث في الأغلب — يكون ثورندايك عليمًا بوقائعها وربما يكون قد توصَّل بالفعل إلى حلِّها.

أعتقد أن هذا هو الموقف الحالي. فبينما كنتُ أُطالع بعناية مجموعةَ التقارير التي جمَعها بولتون، أدركتُ أن القضية برمتها، بما فيها مقتل إيما روبي، شابَها غموضٌ شديد. ولكني أدركت كذلك أهميةَ سؤال ثورندايك. لقد كانت لوتا شيلر متورطةً في تلك الجريمة لا محالة.

كان بينفيلد ليقول إن هذا ليس جوهريًّا لمسألةِ موتها أو وجودها على قيد الحياة. لكنه كان جوهريًّا. فاختفاء شخص يُشتبَه في تورطه في جريمة قتل يستدعي نظرةً أكثرَ تمحيصًا بكثير من اختفاء شخص لا يَملك دافعًا معلومًا لذلك.

في الوقت المناسب، أُخطِر السيد بينفيلد بالدعوى، وأُرسِلت لنا نُسَخ من الإفادات الموثَّقة للشهود، التي ما إن اطَّلعتُ عليها حتى أدركت أن ثورندايك كان محقًّا. فالوقائع التي سردَها أصحابها تحت القسَم تتعلق فقط بأدلة وفاة لوتا شيلر. أما مقتل إيما روبي فلم يُشَر إليه إلا عرَضًا في معرض الحديث (في إفادة خطية لسيدة تُدعى السيدة بيجهام) عن الرجل الذي دخل برفقة سيدة إلى المنزل رقم ٣٩ بشارع جيكوب باستخدام مِفتاح بوابة. كان واضحًا أن القرينة التي سيدفع بها المُلتمسُ هي أن هذا الرجل قتل لوتا شيلر بالفعل واستولى على مفاتيحها.

هكذا استبانت لي حُجة المدَّعي إلى حدٍّ كبير. صِرت أرى ما الذي يعتزم «الطرَف الآخَر» إثباتَه؛ وبالنظر إلى الوقائع في ظاهرها، فقد كانت حُجة وجيهةً نوعًا ما. لكن السؤال التالي كان، ما الذي كان ثورندايك يعتزم إثباته، وماذا سيفعل في سبيل ذلك؟ إن افترضنا — كما فعلت — أنه قد درَس القضية بالفعل وتوصَّل على الأرجح إلى استنتاجات أولية، أتوقع أنه سيتبع منهجه المعتاد، ويبدأ بمحاولة توسِعة دائرة معارفه؛ وذلك بالبحث عن وقائعَ جديدة مكمِّلة لتلك المعروفة بالفعل، وانتابَني فضولٌ قوي لمعرفة الاتجاه الذي ستتَّخذه تحرِّياته، ولم أُفاجَأ كثيرًا حين تكشَّفَت لي نواياه.

قال لي معلقًا في اليوم التالي: «إذن، هل درس صديقي الخبيرُ المطَّلع الإفاداتِ والملفَّ الذي جمعه بولتون وصار يعرف جميع الوقائع المعلومة؟ ربما وجدها منقوصةً بعض الشيء، أليس كذلك؟»

أجبته: «على النقيض، أظن أنَّ لدينا بيانًا كاملًا للقضية. ماذا تريد أن تعرف أكثر من ذلك؟»

«أريد أن أعرف كل ما بوُسعي معرفتُه. على سبيل المثال، هناك لوتا شيلر، الشخصية المحورية في القضية. ما الذي نعرفه عنها؟ هي أكثرُ بقليل من مجردِ اسم؛ بل أقربُ إلى رمز جبري. أريد أن أُحوِّلها إلى شخص حقيقي؛ أن أعرف كيف كانت شكلًا وفِكرًا وخُلُقًا.»

همَمتُ بالاعتراض بأن تلك المعلومات لن تُفيدنا كثيرًا على الأرجح في معارضة الطلب، لكنني لحُسن الحظ رأيتُ الضوء الأحمر في الوقت المناسب.

سألته: «وكيف تعتزم الحصولَ على تلك المعلومات؟»

«المصدر الأرجح لها هو السيد توماس بيدلي. من الواضح أنه عرَفها عن قرب وبإمكانه أن يُخبرنا بالكثير عنها. لذا راسلته منذ يوم أو اثنين، وتكرَّم بإعطائي موعدًا عصرَ غدٍ. هل أنتظر دعمك لي في تلك المقابلة؟»

لحسن الحظ، صادف أن كنتُ متفرغًا عصرَ اليوم المحدد، فقَبِلتُ بسرور، بل بالأحرى بتلهُّف. فقد كان فضولي إزاء هذه الزيارة شديدًا. فقد بدا من غير المعقول أن يكون الغرضُ منها هو مجردَ الحصول على وصف لشكل لوتا شيلر وشخصيتها، وكنت آمُل إن أصغَيتُ بانتباه إلى أسئلة ثورندايك، فربما أُكوِّن فكرة عما يدور بذهنه حقًّا.

كان شارع جيكوب، كما اكتشفنا، شارعًا زريًّا عتيق الطراز يتفرَّع من طريق هامبستيد، وكان مرسم السيد توماس بيدلي الكائنُ به مميزًا ببوابته الخشبية الخضراء التي تحمل الرقم «٣٨ إيه» بأحرف وأرقام نُحاسية مصقولة جيدًا، وبلوحة نُحاسية على جانبه مكتوب عليها «تي بيدلي» يعلوها مقبضُ جرسٍ نُحاسيٌّ لامع. جذَبْنا المقبض فسمعنا دويَّ جرس كبير من على بُعد، ثم انفتحَت البوابة وظهر من ورائها رجل ضخم وَدود ذو وجهٍ لطيف، نظر إلينا لوهلة بعينَين زَرقاوين ودودتين، ويبدو أنه إما عرَفَنا أو سلَّم بهُويتنا؛ إذ دعانا إلى الدخول، فتَبِعناه عبر ممر حجري ومنه إلى باحة صغيرة إلى داخل المرسم الذي بهَرني حجمُه كثيرًا، وبخاصة حجم نافذته الشمالية الكبيرة.

قال ثورندايك: «إنه لَلُطفٌ بالغٌ منك يا سيد بيدلي أن تسمحَ لنا بالقدوم إلى هنا وشَغْلِ وقتك بأمور لا أظن أنها تَعنيك كثيرًا.»

أجاب بيدلي: «بل تَعنيني كثيرًا، لكني أخشى أنني سأُخيِّب أملَك؛ فأنا حقًّا لا أعرف شيئًا عن لوتا شيلر أو عن أمورها.»

رد ثورندايك بابتسامة: «بدايةً، تلك حقيقة، وهي حقيقة غيرُ مجردة تمامًا من الأهمية. لكن على أيِّ حال، أنت تعرف عنها أكثرَ مما أعرف أنا. لذا فمن شأني أن أعرف شيئًا ما.»

قال بيدلي: «أخشى أنه سيكون شيئًا يسيرًا جدًّا. لكن ربما يُساعدني كوبٌ من الشاي في قَدْحِ زِناد فكري. أما أنت فلا يحتاج ذهنك إلى أي قدحٍ على الأرجح.»

قادنا إلى طاولة الشاي التي كانت موضوعة مع ثلاث مقاعد ذات مَساند للذراعَين، أمام المدفأة، وبعد أن أجلسَنا إليها، بدأ في إعداد الشاي على موقد غاز بجانب الحوض الكبير؛ وأثناء انشغاله بذلك، ألقيتُ نظراتٍ خاطفةً فُضولية حولي، وانبهرتُ كثيرًا بالخزف

الفاخر وتجهيزات الطاولة الأنيقة وشتى العلامات الأخرى الدالَّة على ذوقٍ رفيع وأنيقٍ في أثاثات المكان، التي تناقضَت تناقضًا غريبًا بعض الشيء مع الحوض وموقد الطهي والأجهزة المنزلية.

قال توم بيدلي بعد أن صبَّ الشاي واتخذ مقعده: «أنت تعرف ما تريد الاطِّلاع عليه من معلومات على عكسي؛ لذا أعتقد أن من الأفضل أن تُعاملني كشاهد. اطرح عليَّ أسئلتك، وسأُجيبك بقدر استطاعتي.»

قال ثورندايك وهو يُخرج دفتر ملاحظات ويفتحه: «حسنًا جدًّا، بما أنني لم أرَ السيدة شيلر وليس لدي فكرةٌ عن شكلها، فسوف نبدأ بمظهرها الشخصي. هل بوسعك أن تصفَها لي؟»

بدَت الدهشة على بيدلي — وكان حقًّا له أن يندهش — لكنه أجاب بسلاسةٍ كبيرة: «أجل، بوُسعي ذلك بلا ريب؛ فقد تصادف أن طلَب مني المفتش بلاندي ذلك، فكتبتُ مسوَّدة لوصف تفصيلي لها وأعطيتُه نسخة منه. بإمكاني أن أُرِيَك المسودة الأصلية.»

توجَّه إلى رفٍّ اصطفَّ عليه صف طويل من الدفاتر ذات غلاف كتَّاني، كلٌّ منها يحمل على ظهره ملصقًا عليه تاريخ.

قال وهو يُمرر عينَيه سريعًا عبر صف الكتب: «لنر، كان ذلك عام ١٩٣٠م تقريبًا. أجل، ها هو ذا.»

أخرج الدفتر الصغير وأحضره إلى الطاولة، وقال موضحًا وهو يُقلب صفحاته: «هذا هو دفتر الملاحظات الذي كنت أستعمله حينها. إنه يحتوي على ملاحظات من شتى الأنواع؛ رسومات أولية ورسومات متقنة وملاحظات خطِّية، وبما أنني أدوِّن التاريخ على كل ما أدرجَه فيها، فهو بمثابة دفتر يوميات. ها هي المسودة التي كتبتها لبلاندي.»

ناول الدفترَ مفتوحًا إلى ثورندايك، الذي طالعه بسرعةٍ وإمعان في الوقت ذاتِه، وبعض أمارات الدهشة كما خُيِّل إليَّ.

صاح في إعجاب: «هذا وصفٌ متكامل إلى درجة استثنائية يا سيد بيدلي. يبدو أنك قد كنت تُلاحظ كل شيء، ولا يسقط من ذاكرتك أي شيء.»

رد بيدلي: «حسنًا، كما تعلم، تلك وظيفة الفنان؛ أن ينظر إلى الأشياء بنظرة متمعِّنة، ويحتفظ في ذاكرته بما رآه. لكني سعيدٌ أنه حاز إعجابك. لقد أُعجِب به بلاندي كثيرًا، مع أنه احتاج إلى استيضاح بضعِ نقاط.»

«مثل ماذا؟»

«مثل الأذنَين. لقد سألني إن كان بوُسعي أن أرسمها من الذاكرة، وبالطبع كان بوُسعي ذلك وفعلت.»

قال ثورندايك: «لقد كان محقًّا بالفعل. فالرسم أفضلُ من أدقِّ وصفٍ لفظي. أتساءل إن كان بوسعك أن تتفضل وتفعلَ مثل ذلك لأجلي؟»

على الرغم من أن كان لا يزال يبدو متحيرًا قليلًا، استجاب بيدلي لذلك الطلب عن طِيب خاطر. وعلى رِزْمة صغيرة من ورق الرسم الخشن، رسمَ بسرعة وبتروٍّ شديد في الوقت ذاتِه أذنَين متقابلتَين.

قال وهو ينزع الورقة ويُناولها إلى ثورندايك: «كما ترى، هما مجرد أذنَين عاديتين متقنتَي الشكل، لكنَّ اليمنى كان بها نُتوء داروينيٌّ صغير. لقد حدَّدت خطَّيِ الفكِّ كي أوضح لك موضعَيهما في الرأس.»

شكَره ثورندايك على الرسم، ووضعه في محفظته بعناية بعد أن ألقى عليه نظرة فاحصة. ثم نظر سريعًا مرة أخرى إلى الوصف، وقال:

«ثمة نقطةٌ واحدة هنا تحتاج إلى شيءٍ من الإيضاح. أنت تذكر أن خامة الشعر كان بها شيءٌ غريب يجعل لونَه يبدو متباينًا. أنا لا أفهم ذلك تمامًا.»

ابتسم بيدلي. قال: «ها هو ما حدث مع بلاندي يتكرَّر. هو أيضًا لم يفهمه، ولا أنا. لذا لم أستطع إخبارَه بأكثرَ من أن لونه بدا لي أنه يتغير بالفعل بتغيُّر الإضاءة. لكن التغير كان طفيفًا جدًّا، ولا أعتقد أن أغلب الناس كانوا لِيُلاحظوه على الإطلاق. لكنه كان موجودًا؛ ولم أرَ مثيلًا له من قبل أو من بعد.»

قلت مقترحًا: «هل تعتقد أنه ربما صُبِغ أو زُيِّفت طبيعته بطريقةٍ ما؟ النساء يفعلن أشياءَ غريبة بشعورهن هذه الأيام.»

أجاب بيدلي: «فكرتُ في ذلك، لكن ثمة قرينة واحدة بدا أنها تستبعده. الشعر المصبوغ أو المستعار كما تعلم لا يصمد أمام نظرة متفحِّصة عن قُرب، وبخاصة عند جذوره. لكن السيدة شيلر لم تُمانع الفحص الممعِن على الإطلاق. فعندما أراد بولتون عيِّنة من شعرها، لم تُمانع في ذلك وتركته يقصُّها بنفسه، ففصَل خصلة صغيرة منه وقصَّها بالقرب من الجذور كاشفًا عن فروة الرأس، ويبدو أنه لم يلحَظْ بها أيَّ شيء غير عادي.»

سأله ثورندايك: «هل سبق أن أشرت إلى تلك السِّمة الغريبة أمامها؟»

«كلا؛ ولا أظن أنها كانت تُدركها.»

قلت: «بالمناسبة، لِمَ أراد بولتون الحصولَ على خصلة من شعرها؟»

«كان يصنع قِلادة مطوية للسيد فاندربوي، واتفقوا على وضع خصلة من شعرها في جانبٍ منها لتكونَ مواجهة لصورتها الشخصية في الجانب المقابل.»

«أجل، أذكر القلادة — كانتا في الواقع قِلادتَين — لكنهما كانتا فارغتَين عندما رأيتهما. لم أعرف ما وُضِع بداخلهما.»

سأل ثورندايك: «بالنسبة إلى الصورة الشخصية التي وُضِعت داخل قلادة فاندربوي، هل كانت صورةً مصغَّرة أم صورة فوتوغرافية؟»

«كانت صورة فوتوغرافية، لكن ليست من الواقع. فقد رسمَت هي صورة شخصية لنفسها بالألوان المائية، ثم التقط بولتون صورةً فوتوغرافية مصغَّرة لها.»

«هل كانت الصورة تُشبِهها إلى حدٍّ كبير؟»

ابتسم بيدلي. «لم يكن ثمة أيُّ شبَهٍ بينهما. لم تكن الصورة تُشبه لوتا على الإطلاق، ولا أي كائن بشَري آخر.»

قلت: «لكني أتعجَّب من أن فاندربوي لم يُعارض ذلك؛ إذ كان الشبَهُ هو غايتَه حسَبما فهمت.»

«لقد عارض؛ بل أثار ذلك حنقَه كثيرًا. كان يُريدني أن أرسم صورة شخصية للوتا يلتقط لها بولتون صورة فوتوغرافية مُصَغرة لتُلائم القلادة. لكنها رفضَت ذلك، كما رفضت السماحَ لبولتون بالتقاط صورةٍ فوتوغرافية لها. أصرَّت أن تكون الصورةُ الشخصية من صُنع يدَيها، وأبَت أن تتزحزح عن رأيها. فاضطُرَّ فاندربوي المسكين إلى القبول بلوحتها، لكني لن أنسى قطُّ وجه بولتون حين وقعَت عيناه عليها لأول مرة. ظن أنها دعابة، لكنه أدرك خطأه في الوقت المناسب.»

سألَته مستغربًا بعضَ الشيء من روايته لتلك الواقعة: «لكن كيف كانت تبدو؟»

«كانت رسمًا لرأس امرأةٍ كالتي قد يرسمها طفلٌ في التاسعة أو العاشرة؛ طفل غيرُ بارع، إن فهمت ما أعني، بل مجرد طفل عادي لا يملك أيَّ موهبة فطرية في الرسم.»

قلت: «لكني لا أفهم هذا. ألم تكن فنانة محترفة؟»

«كانت تدَّعي ذلك، لكن بالطبع، أي شخص يمكن أن يدعوَ نفسه فنانًا. لكن الحقيقة هي أنها كانت لا تُجيد الرسم بالرصاص أو بالألوان.»

سأله ثورندايك: «أتعني أن رسمها كان رديئًا، أم أنها حرفيًّا لم تكن تستطيع الرسمَ على الإطلاق؟»

أجابه بيدلي: «كان رسمها كرسم طفل عادي؛ وأنا واثق تمامًا من أنها لم تكن تستطيع الإتيانَ بأي شيء خلافَ ذلك.»

قال ثورندايك: «هذا أمر جدير بالملاحظة بلا ريب، ويُثير بِضعةَ أسئلة. السؤال الأول يخصُّ قُواها العقلية. هل كانت مختلَّة لدرجة تجعلها تعتقد حقًّا أنها تُجيد الرسم؟»

ضحك بيدلي ضحكةً مكتومة. قال: «بلاندي من جديد. هذا ما كان يُريد بلاندي معرفته أيضًا، لكني تملَّصتُ من الإجابة عن أسئلته نوعًا ما. لكني لن أُراوغك؛ فقد فكَّرت في الأمر مليًّا منذ ذلك الحين، وتوصَّلت إلى أنها كانت تنتحلُ تلك الصفة. لم تكن مختلَّة على الإطلاق. لقد كانت شابة فَطِنة ومتَّزنة جدًّا، وأنا واثق من أنها لم تكن تُعاني أيَّ أوهام تجاهَ مهاراتها الفنية. بل كان ذلك تدليسًا متعمدًا منها. أما عن غرَضها من انتحال صفةِ فنانة، فلا أدري ما هو؛ لكن ما أعلمه يقينًا هو أنها فقط استغلَّت صرعة اللوحات الشاذَّة الجارية في الوقت الحاليِّ وبدأت تصنع مثلَها. أي شخص يستطيع ذلك. ما على المرء سوى أن يرسم شيئًا لا صلة له باللوحات التقليدية من قريبٍ أو بعيد، ويترك لمدَّعي الثقافة مهمةَ تفسيره للجمهور. لكنها كانت تعرف عنهم كلَّ شيء، وتعرف جميع مصطلحاتهم عن ظَهرِ قلبها.»

قال ثورندايك: «هذا يُجيب جزئيًّا عن سؤالي التالي، وهو عن كيفية حِفاظها على ذلك الادِّعاء. هل سبق أن عرَضَت أعمالها للبيع؟»

«كلا. تحدثَت عن نيتها إرسالَ بعضِ أعمالها إلى مَعرِض فني، لكنها لم تُرسل أيًّا منها قط.»

«هل كانت تُوقِّع لوحاتِها باسمها؟»

«لم تكن تُوقِّعها قط، بالمعنى الصحيح للكلمة. كانت تستخدم رمزًا؛ عبارةً عن زهرة مبسَّطة الشكلِ من نوعٍ ما على كل جانب من جانبَي ساقها دائرةٌ صغيرة.»

قلتُ معقبًا: «يبدو الأمر كله منطويًا على التواءٍ وسرية.»

وافقني بيدلي قائلًا: «أجل، لقد كانت متكتِّمة في جميع شئونها. كان بولتون هو أولَ مَن لفَت نظري إلى قدرتها على إحاطة شئونها بالسرِّية. لكني لا أفهم لِمَ السرية فيما يخص لوحاتها. يبدو وكأن صفةَ الفنانة كانت حيلةً مؤقتة تنوي الاستغناءَ عنها بعد أن تُؤدِّيَ غرضها، أيًّا ما كان ذلك الغرض.»

قال ثورندايك: «فعلًا، ولكن اللوحة النحاسية التي كانت تضعها على بابها تستبعد فكرة السرية فيما يبدو. لقد كانت بمثابة إعلانٍ عام.»

أجاب بيدلي: «لم تكن ظاهرة جدًّا للعامة. كانت مجردَ لوحة صغيرة، أبعادها حوالي ستٍّ بوصات في أربع بوصات، تحمل كنيتها فقط بخطٍّ صغير مطليٍّ بالنُّحاس. لم يكن من السهل قراءتُها من الرصيف، حتى حين كانت لا تزال جديدة، وبعد بِضْعة أسابيع من المواظَبة على تلميعها، تلاشى معظمُ الطِّلاء الداكنِ من الاسم المحفور، وصارت قراءتها شِبهَ مستحيلة. أيُّ عابر غريب لم يكن ليستطيع قراءتها.»

قال ثورندايك: «يبدو أن هذا يَدْحَض اعتراضي. والآن لِنَعُد إلى الوصف. هل تملك صورةً فوتوغرافية لها؟»

أجاب بيدلي: «كلا، ولم أرَ قط أيَّ واحدة لها.»

«هل رسمتَ لها صورة شخصية؟»

«لم أرسم لها صورةً من الواقع. كنت قد فكَّرت في أن أقترح عليها رسم صورة شخصية لها ثم تراجعتُ عن الأمر. لكني رسمت بضعة رسومٍ تجريبية لها من الذاكرة لأرى كيف ستبدو صورتها الشخصية من جانبِ وجهها. إنها في ذلك الدفتر الذي معك. هل تودُّ رؤيتها؟»

أجاب ثورندايك وهو يُناوله الدفتر وينظر إليه بترقب وهو يُقلب صفحاته: «أود ذلك كثيرًا.»

قال بيدلي وهو يُعيد إليه الدفتر: «تلك هي أفضلُها، والرسوم الأخرى مجردُ محاولاتٍ أوَّلية؛ لذا يُمكننا تجاهلُها.»

فحَص ثورندايك الرسم باهتمام بالغ، وكذلك فعَلتُ، وإن كان أكثرُ ما أثار اهتمامي بها هو دقةَ التصوير وجودته. كان المرء ليحسبها رسمًا متقَنًا منقولًا عن صاحبته مباشرة.

قال ثورندايك: «هذا أكثر من مجرد رسمٍ أوَّلي يا سيد بيدلي. إنها تبدو كصورةٍ شخصية فِعلية، لكن بالطبع لا أستطيع أن أحكم على الشبَه. فما قولك في ذلك؟ هل تُشبِهها حقًّا؟»

أجاب بيدلي: «أجل. يُمكنني القول إنها تُشبهها كثيرًا.»

«هل تظن أن أي شخص كان يعرفها سيستطيع تمييزَها؟»

«بالطبع. عندما أنظر إليها الآن، بعد كل ذلك الوقت، تُذكرني بها تمامًا. كما ترى، المرء عندما يرسم من الذاكرة، فإنه يختار فطريًّا السِّماتِ الأكثرَ تميزًا والأسهلَ في تذكُّرها.»

قال ثورندايك: «أجل، أرى ذلك. لكن يبدو أن ذاكرتَكِ استثنائية حقًّا.»

قال بيدلي: «ليست استثنائية. إن ذاكرتي جيدة، وقد حرَصتُ على تدريبها. لكن في الواقع، كل أنواع الرسم منبعُها الذاكرة. فالمرء لا يستطيع أن ينظر إلى صاحب الصورة ويرسمه في الوقت نفسه. عليه أولًا أن ينظر إلى صاحب الصورة بإمعانٍ شديد ويُحاول أن يحفظَ في ذاكرته الجزءَ الذي يرسمه. بعد ذلك يرسمه، كفعلٍ منفصل، ثم يُقارن ما رسَمه مع الواقع ويُصحح الرسم إن اقتضى لذلك. الرسم من الذاكرة لا يختلفُ عن ذلك، غير أن الفاصل الزمنيَّ بين رؤية الشيء ورسمه يكون أطول.»

تأمَّل ثورندايك ذلك وعيناه مثبَّتتان على الصورة الشخصية. وأخيرًا قال:

«إن كانت تلك الصورة تُشبه لوتا إلى درجةٍ تسمح بالتعرُّف عليها، فربما تكون مهمةً نوعًا ما باعتبارها السجلَّ الوحيد المتاح لهيئتها الشخصية. أتساءل إن كنتَ لتسمح بأن يُحضِر بولتون كاميرا إلى هنا ويلتقطَ صورة لها؟»

«بالطبع، بكل سرور. لكن لِمَ كل ذلك العناء؟ من الأفضل أن تضعَ ذلك الدفترَ في جيبك، ثم تُعيده لي بعد أن تنتهيَ منه.»

قال ثورندايك: «هذا كرمٌ بالغ منك يا سيد بيدلي، وسيكون أنسبَ بكثير من اقتراحي بالتأكيد. لم أشَأْ أن أطلب منك استعارته لأني فهمت أن الدفتر يحوي بعض المذكَّرات الشخصية الخاصة.»

رد بيدلي مبتسمًا: «لا داعي لأن تكون دقيقًا إلى تلك الدرجة، فليس لدي أيُّ أسرار، ولو كان لدي أسرار، فلن أكتبها في دفتر ملاحظاتي. كلا يا دكتور، إنني أسمح لك بتصفح الدفتر بكلِّ حرية إن كانت الرسومات والملاحظات الموجودة به تُهمُّك في شيء. ربما تودُّ رؤية بصمات الأصابع التي أخذها بولتون من المرأة المسكينة التي قُتِلَت. إنها في موضعٍ ما بالدفتر. هل لي أن أرى إن كان بوُسعي إيجادُها؟»

قال ثورندايك وهو يُناوله الدفتر: «لا أعلم إن كان لها أهميةٌ كبيرة في الوقت الحاليِّ، إلا في الطريقة المرتجلة التي استعملَها بولتون لرفعها.»

أضفتُ قائلًا: «ودافعُه إلى ذلك. لم يكن ذلك إجراءً سليمًا تمامًا، ولم أفهم قط لِمَ أراد التدخل.»

قال بيدلي: «أظن أن دافعه واضحٌ جدًّا. لقد أراد أن يعرف في حينها ما إذا كانت قضيةَ انتحار أم قتل. آها، ها هي البصمات.»

أعاد الدفتر إلى ثورندايك، الذي رغم ما قاله، نظرَ إلى البصمات غير الواضحة بشيء من الاهتمام الذي بدا لا ينفكُّ يتزايد كلما أطالَ النظر؛ إذ ما لبث أن أخرج عدسته المكبِّرة من جيبه وفحصها عن قُرب، وأنهى فحصَه بالنظر إلى البصمات وهو مُمسكٌ بالدفتر وقد مدَّ ذراعه أمامه.

عقَّب قائلًا: «عملٌ جدير بالثناء، بالنظر إلى قلة الموارد المتاحة. ما رأيك بها يا جيرفيز؟»

ناولني الدفتر وعدسته، وفحصتُ البصمات بشيء من الفضول.

قلتُ مؤيِّدًا إياه: «أجل، ليست سيِّئة؛ هي غيرُ واضحةٍ وباهتةٌ نوعًا ما، لكن يُمكن تبيُّن نمطها بوضوح شديد، حتى في الأصابع الثلاثة الأخيرة؛ حيث يبدو أن البصمات لم تنطبع جزئيًّا. سوف أحتفظ بتلك الطريقة في ذاكرتي لاستخدامها في الحالات الطارئة المشابهة. وبالمناسبة، تلك الطريقة ليست بالجديدة علينا، فدفاترُ التوقيع بالبصمات الأصلية كانت تُرفَق بمَحبَرة.»

أعَدتُ إليه الدفتر، وبعد أن أغلقه ودسَّه في جيبه، انتظرتُ في ترقُّبٍ سؤالَه التالي، لكنه لم يأتِ؛ يبدو أن «الاستجواب الرئيسي لشاهد المدعى عليه» قد انتهى.

أقول «يبدو» لأنه مع ثورندايك، لا يُمكن قطُّ الجزمُ بانتهاء الاستجواب فعليًّا. فقد كان لديه أسلوبٌ في توجيه الحوار دون أن يشعر الطرَفُ الآخَر بذلك، وبهذا يسمح للمعلومات التي يبحث عنها بأن تنكشف، كما بدا، على نحوٍ عَفْوي؛ وكان لديَّ شيءٌ يسير من الظن بأنه في الموقف الراهن كان يقود بيدلي برفق في رحلة عبر أروِقة الذاكرة في الاتجاه المراد.

غير أنها بدَت رحلة مدهشة؛ فقد كان سردُ بيدلي لتفاصيلِ علاقته بلوتا شيلر بأسلوبه الطريف الهزلي مسليًا جدًّا، لكنه مع ذلك كان عديمَ الأهمية تمامًا ولم يَبدُ أن له أيُّ تأثير على الإطلاق على قضيتنا. الطريقة التي ابتدأَت معرفتَها به بذريعةٍ مكشوفة، ثم نصَّبته أعزَّ أصدقاءها رغم محاولاته للفَكاك منها كانت مضحِكة نوعًا ما، لكن لم يكن لها أيُّ ارتباط مباشر بأي شيء مما يعنينا. على الأقل كان هذا تقديري للأمر؛ على الرغم أنه في حينها دُحِض تقديري بفضل هذا الاهتمام البالغ الذي أولاه ثورندايك لتلك الذكريات التافهة، والعبارات البسيطة التي كان يستحثُّه بها على الإسهاب.

قال معقِّبًا بضحكة مكتومة متفهِّمة: «يا لها من صورة غريبة! السيدة اللَّعوب والحبيب المُكرَه.»

قال بيدلي معترضًا: «ليس حبيبًا. فلم يكن ثَمة تظاهرٌ حتى بذلك.»

قال ثورندايك محتجًّا: «لكن يبدو أن علاقتكما كانت عاطفيةً ووُدِّية جدًّا.»

قال بيدلي: «من جانبها هي فقط، وكان الأمر كلُّه هُراءً بحتًا. كان مجردَ ادِّعاء، كادِّعائها إجادةَ الرسم. لكنه كان أمرًا غريبًا جدًّا. فلم أفهم قَط ما كانت ترمي إليه من لُعبتِها تلك. كانت تَدْعوني «توم» منذ البداية، وسرعان ما تحوَّل اسمي إلى عزيزي توم أو محبوبي. لكن كل ذلك كان مجردَ كلام شفهي؛ لم يكن ثمة أيُّ إظهار عمَلي للعاطفة. أي شخص يُصغي إلينا من غرفةٍ مجاورة كان ليظنَّنا خطيبَين؛ لكن سلوكنا الفعلي كان خاليًا من العواطف تمامًا.»

«هل تعني أنه لم يكن ثمة أيُّ مداعبات جسدية؟ ألم تُقبِّلك قط مثلًا؟»

«يا إلهي، كلا! لم أكن لأسمحَ لها بذلك. لكنها لم تُقدِم على شيء من هذا القبيلِ قط. كما قلت، لم يتعدَّ الأمرُ الكلام الشفهي. اعتبرتها مجردَ عادة سخيفة في الحديث، بخاصة أنها كانت تستخدم الألفاظَ نفسَها مع آخرين. حتى إنها دعَت بولتون بالبطَّة اللطيفة، وبالنسبة إلى فاندربوي المسكين ... لكن وَضْعه كان مختلفًا. لقد أخذ عباراتِ التودُّد على محمل الجد. لكن مع ذلك، لم تصل علاقتهما إلى حد القُبلات. لقد أقسَم في جلسة التحقيق أنه لم يُقبِّلها قط، وراودني شكٌّ في أنه ربما حاول ذلك لكنه لم ينَلْ مأربه.»

علَّق ثورندايك قائلًا: «هذا غريب جدًّا، بخاصة أنه يبدو أن المرأة العصرية لا تستحي كثيرًا من تلك الأمور. هل امتدت عبارات التودد اللفظية إلى المراسلات الخطية؟ كيف كانت تخاطبك في رسائلها إليك؟»

«لم تُراسلني قط، وأنا سعيدٌ أنها لم تفعل؛ فلو كان خطُّها كرسمِها بأيِّ حال، لاقتضى الأمرُ جهدًا لفكِّ شفرته. لكنها لم تُراسلني قط، وأظن أنها لم تُراسل فاندربوي قط كذلك. يبدو كأنها كانت تتجنَّب وضع أيٍّ من هُرائها بالحبر على الورق، مع أنه لم يكن به ما يُدين كثيرًا.»

قال ثورندايك: «ربما لا يُدين، لكنها في النهاية كانت امرأةً متزوجة، والرسائل المثيرة للشبهات عادةً ما تكون خطيرةً إن تصادفَ وجودُ زوج عدواني في الخلفية.»

«لا أظن أن زوجها كان عدوانيًّا. بدا لي أنهما انفصلا باتفاقٍ مشترك، ومضى كلٌّ منهما في طريقه متجاهِلَين أمرَ الزواج. في المرات القليلة التي ذكَرَته فيها، لم تذكره بأيِّ ذرة من العداوة.»

«يبدو أنها لم تكن تميل إلى الحديث عنه كثيرًا.»

«أجل، لقد كان شخصًا مبهَمًا نوعًا ما بالنسبة إليَّ. كل ما عرَفتُه منها أن اسمه كارل، وأنه يعمل تاجرَ نبيذ متنقلًا، وأنه مستقرٌّ في مكانٍ ما بألمانيا نوعًا ما، لكنه يَقْضي معظم وقتِه متجولًا في أرجاء أوروبا، ويَزور هذا البلدَ والولايات المتحدة أحيانًا. هذا كلُّ ما أفصحتُ عنه. بالطبع لم أطرح عليها قط أيَّ أسئلة بشأنه.»

يبدو أن هذا كان آخِرَ ما في جعبة بيدلي من الذكريات؛ إذ انحرف الحوار الآن في اتجاهِ أعماله وأسلوب معيشته؛ وبعد أن أرانا بعضًا من لوحاته وأخذَنا في جولةٍ قادها بنفسه في أرجاء مسكنه، بما فيه حُجيرة النوم الصغيرة اللطيفة التي أنشأها في ركنٍ من أركان المرسَم، شعرنا أننا قد أطَلْنا البقاء.

قال ثورندايك: «إنه لَكرمٌ شديد منك يا سيد بيدلي أن سمحتَ لنا بأن نأخذ من وقتك كلَّ هذا، وأنْ ساعدتَنا بهذا القدر البالغ في تحقيقنا.»

رد بيدلي وهو يُرافقنا عبر الممر الممهَّد: «يسرُّني أن أعرف أنني قد أفَدتُكما. كان يُخيَّل لي أنني لن أستطيع إفادتَكما كثيرًا. لكني استمتعتُ بالأمر. فبالنسبة إلى رجل وحيد مثلي، أجد في حديثٍ طويل وُدِّي وممتع حقًّا كهذا تجديدًا منعشًا.»

بتلك المجاملات المتبادَلة ومصافحةٍ حارَّة غادرنا، ثم عبَرنا طريقَ هامبستيد وانطلقنا في طريقنا إلى منطقة تيمبل عبر الشوارع الخلفية غيرِ المطروقة كثيرًا. ظللنا نسير في صمتٍ لبعض الوقت؛ لكني كالعادة سرعانَ ما جازفتُ بمحاولة حذرةٍ لجسِّ النبض.

«تقدير بيدلي لقيمة الحوار يُشبه تقديري له نوعًا ما، والأرجح أنَّ كلَينا جانَبه الصوابُ؛ لكن بخلاف أوصافِ المرأة والصورة الشخصية (التي لا أرى قيمتها بوضوح)، لا أظن أننا عرَفنا أي شيء ذي قيمة.»

رد ثورندايك قائلًا: «لا بد أن هذا يرجع إلى عدم اتِّضاح إشكاليات تلك القضية في ذهنك.»

«لكني أظنُّها واضحة. الإشكالية ببساطة هي ما إذا كان يُرجَّح أن تكون لوتا ميتة أم لا.»

«هذا صحيح، لكن دَعْنا نَصُغِ الأمر بعبارة أخرى. المرأة إما أنها ميتة وجثَّتها مخبَّأة في مكانٍ مجهول، أو أنها على قيد الحياة ومتواريةٌ عن الأنظار. المسألة تتأرجَح بين احتمالَين؛ جثة مختفية وامرأة حيَّة مختفية.»

«لا بد أن تكون مختبئةً ببراعة شديدة كي تظلَّ بعيدة عن الأنظار على مدى عامَين؛ بخاصَّة في ظل ترصُّد الشرطة لها طوالَ هذا الوقت. ظننتُ أن الأمر مستحيلٌ بالنظر إلى جميع الإمكانات والوسائل الحديثة المتاحة لهم.»

قال: «لكن احتمال بقائها على قيد الحياة هو ما يَعنينا، وقيمة المعلومات التي حصَلنا عليها من بيدلي في صِلَتها بتلك النقطة؛ أوصيك أن تفعل الآتيَ: عندما تعود إلى المنزل، بينما لا يزال الأمرُ حاضرًا في ذاكرتك، أحضِر ورقةً ودوِّن فيها تقريرًا وافيًا لحوارنا مع بيدلي. بعد ذلك اقرَأه واستخلِص منه أيَّ حقائق، سواءٌ ذُكِرت صراحةً أو ضِمنًا، دون اعتبار أهميتها، ودوِّنها في ورقة أخرى. وأخيرًا، فكر في تلك الحقائق منفصلةً ومجتمِعة، في إطار الاحتمالين اللذَين ذكرتهما. أعتقد أنك سترى أن المعلوماتِ اليسيرةَ التي أدلى بها أكثرُ أهمية مما بدَت لك حينها.»

الفصل الثالث عشر

ثورندايك يلجأ إلى السرية

أثبتَ الإجراء الذي اقترَحه ثورندايك لاستخلاصِ ما هو مهمٌّ من المعلومات اليسيرة التي أدلى بها توم بيدلي — الذي نفَّذته كما ينبغي — فعاليةً بالغة. غير أنه لم يكن فعَّالًا بما يكفي. فمع أنه كشَف لي عن عدةِ حقائق ربما تكون مهمةً في ظل ظروفٍ محدَّدة، لم تُلقِ الضوء على علاقتها بمعضلتِنا الآنيَّة؛ لذلك، ولأن القارئ، الذي يُعَد أسرعَ بديهةً مني، قد أدركها بالفعل بلا شك، فلن أُشير إليها. ولكن إذا كانت دراستي تلك لم تكشف لي الكثير، فقد أثارت فُضولي تجاهَ ما يدور بذهنِ ثورندايك. لم يكن لديَّ أدنى شكٍّ في أن لديه نظريةً مؤكدة بخصوص اختفاء لوتا شيلر، وأن تلك النظرية وثيقةُ الصلة بالمعضلة الأساسية، ولأنني لم أستطع تخمينَ طبيعة تلك النظرية، فلم يسَعْني سوى أن أنشُدَ الفَهم بمراقبة ما يتخذُه من إجراءات ومحاولة استنتاج غايتها. لكني فشلتُ في ذلك تمامًا؛ إذ كلما اطَّلعت على أساليبه أكثر، ازدادَت حيرتي، وازددتُ عجزًا عن ربطها بأي وسيلة بقضية السيد بينفيلد. لذا سأَعرِض ملاحظاتي باقتضابٍ ودون مواربة أو أي تعليقات غير ضرورية.

بعد بضعة أيام من زيارتنا لبيدلي، حين حضر ثورندايك للغداء، أخرجَ من جيبه الداخليِّ بضعة مستندات وأودَعها في الخِزانة التي تُحفَظ فيها تلك الأشياءُ عادة، ولاحظتُ أنه وضعها في الدرج الذي يحوي الأوراقَ الخاصة بالسيد بينفيلد.

قلت له وقد أبصرتُ النُّسَخ الرسمية: «أرى أنك ذهبتَ إلى السجلِّ المدني بسومرست هاوس.»

أجاب: «أجل. زيارة ربَّما لم تكن ضرورية، لكن المرء لا يعرف أيَّ أسئلة غير متوقَّعة قد تُفاجئه في جلسة الاستماع؛ لذا أحضرت نسخًا موثَّقة من اثنتَين من الوصايا ذاتِ الصلة بقضية بينفيلد. ولدينا بالفعل نسخةٌ من الثالثة، وصية لوتا شيلر.»

سألته: «لمن الوصيَّتان الأخرَيان؟»

«إحداهما لباربرا دالتون التي أوصَت بعشرين ألفَ جنيه للوتا. والأخرى للسيد تشارلز مونتاجو، التي تُوصي، ضمن عدة تَرِكات أخرى، بتركة قدرُها عشرون ألف جنيه لباربرا. هل تود إلقاءَ نظرة عليهما؟»

أجبتُه قائلًا: «لا، شكرًا لك. لستُ مهتمًّا بهما، إلا إن كان بهما شيءٌ غيرُ متوقَّع أو غريب. فهل بها شيء كذلك؟»

«كلا، إنهما بسيطتان للغاية ومباشرتان، وبالطبع لم يطعَن أحدٌ في صحتهما.»

«إذن أعتقد أن بوُسعنا أن نتركَ أمرهما لبينفيلد، إن جاء ذِكرُهما في القضية من الأساس.»

هكذا انتهى الأمر، تاركًا إيايَ في شيء من التعجب لاهتمام ثورندايك بأحداث بعيدةِ الصلة كتلك. لكنْ بدا أنها لم تَكُن إلا مثالًا آخرَ لإصراره الذي يكاد يبلغ حدَّ التطرُّف على معرفة الحقائق كافَّة.

كانت خطوته التاليةُ التي لفَتَت انتباهي لها صِلةٌ ما على الأقل بقضيةِ بينفيلد، مع أني فَشِلت فشلًا ذريعًا في اكتشاف تلك الصلة. جاءت تلك الخطوة في هيئة استجواب شامل ومستفيضٍ لفاندربوي، الذي صرنا نراه كثيرًا الآن؛ إذ عاد على أثر العطلة الجامعية الطويلة من صولاته وجولاته مع دائرة المحكمة الجنوبية الشرقية المتنقِّلة. لم يكن استجوابًا رسميًّا بالطبع؛ إذ كان ذلك ليُخالف أساليبَ ثورندايك المعتادة. لكن فاندربوي أبدى استعدادًا تامًّا للحديث عن علاقته الغرامية العابرة مع لوتا شيلر — فقد كانت بمثابة المغامرة الكبرى في حياته — وكان توجيهٌ بارع بسيط للحوار كفيلًا بكشف جميع تفاصيلها. لكن مِن بين الأحاديث التي دارت، التي بدا أنها لم تكشف عن أيِّ شيء جديد حتى بالنسبة إلي، سأُسجل واحدًا فقط؛ وقد اخترت هذا بالذات لأنه دفع ثورندايك إلى اتخاذ إجراءات إضافية. كنا نُناقش الصورة الشخصية التي رسمها بيدلي لفاندربوي والأحداث المرتبطة برسمها، حين ساق زميلي الحوارَ في اتجاه آخر حين عقَّب قائلًا:

«لقد كانت صورة جيدة للغاية؛ كانت تجسيدًا صادقًا لك وتظهر وسامتك كثيرًا أيضًا. أجدُني مندهشًا بعضَ الشيء من أنك لم تقصد بيدلي كي يرسمَ صورة للوتا. ظننتُ أنك كنت سترغب في أن تحظى بصورةٍ شخصية لها.»

أجاب فاندربوي بنبرةِ توكيد: «كان ينبغي أن أفعل، وقد توسَّلت إليها أن تدعَه يرسمُ صورة لها، لكنها رفضَت رفضًا قاطعًا. كان ذلك وقتَ صناعة القِلادتَين، وأردتُه أن

يرسم صورة شخصية لها كي يتسنَّى لي الحصولُ على الصورة الأصلية وأُعلِّقها بجانب صورتي وأحمل صورة فوتوغرافية مصغَّرة لها معي في قلادتي. لكنها كانت في غاية التعَنت والنزَق. أصرَّت على أن ترسم الصورة الشخصية بنفسِها، ولم تُوافق حتى على أن يلتقطَ لها بولتون صورةً فوتوغرافية لوضعها في القلادة. كان موقفُها غريبًا جدًّا بحق. كنت قد رأيتُ أعمالها، فكنت أعرف أنها لا تستطيع رسم صورة شخصية. لكنها تمسكَت بقرارها، فاضطُرِرت إلى القَبول بصورتها التي رسمَتها بنفسها. لكني كنتُ ممتعضًا جدًّا.»

قال ثورندايك مقترحًا: «هل أستنتج من ذلك إذن أن الصورة لم تكن تُشبهها كثيرًا؟»

صاح فاندربوي بحنق: «أف! لم يكن ثَمة أيُّ شبهٍ بينهما على الإطلاق. بوُسعك أن ترى بنفسك»؛ وبينما كان يتحدث، فك القلادة من سلسلة الساعة وناولها لثورندايك الذي فتحها بحرصٍ ونظر بفضول إلى الصورة الشخصية المصغَّرة.

قال: «كنت سأُشير إلى أني لم أرَ السيدة قط من قبل؛ لذا سيصعب عليَّ الجزمُ إن كانت تُشبهها أم لا. لكني أرى أنني كنتُ مخطئًا. فهذا الرسم يكاد لا يُشبه أيَّ بشري، وقطعًا لا يُمكن تمييز الشبهِ بينه وبين أي شخص بعينه. بالمناسبة، هل أعطَتك الرسم الأصلي؟»

«كلا، لم تَعرِضْها علي، ولم أكن لآخذَها لو فعلَت.»

قال ثورندايك: «سبب سؤالي ذاك أن أعمالها الفنية ربما يكون لها صلةٌ ما بالقضية التي من المزمَع النظر فيها وكنت أودُّ أن أعرض عينةً منها. لكن هذه صغيرة نوعًا ما، خصوصًا إن تصادفَ أن كان نظرُ القاضي قاصرًا بأي حال. ماذا ترى يا جيرفيز؟»

أخذتُ منه القلادة وحدَّقت بذهول في الرسم الطفولي الرَّكيك إلى درجة لا تُصدَّق — مع أن وصف بيدلي له جعلَني أتوقع رؤية شيء غير عادي — الذي مع صِغَره (كان بحجم الشلن تقريبًا) كان دليلًا كافيًا على انعدام كفاءة صاحبتِه. لكني لم أفهَم المشكلة التي يُواجهها ثورندايك، وصرَّحتُ له بذلك.

«لا أرى أن الحجم مهم. سيكون من السهولة بمكان التقاطِ صورة فوتوغرافية مكبَّرة له؛ هذا إنْ منحَنا فاندربوي الإذن بذلك.»

قال فاندربوي مقاطعًا: «بالطبع، سيَسُرني أن أُساعد بأيِّ طريقة. لا أُمانع على الإطلاق أن تأخذَ القلادة وتُعيدها إليَّ حين تنتهي منها.»

وبِناءً عليه، بعد أن شكَر ثورندايك صاحبَها بحرارة، وضع الحِلْية الصغيرة في مظروفٍ وطواه بإحكام؛ لكني لاحظتُ أنه لم يحفَظْه في الخِزانة كعادته، بل دسَّه بعنايةٍ في جيبه الداخلي. كان ذلك أمرًا بسيطًا لكنه لفَت انتباهي؛ وحين أدركتُ، بعد تمحيص، الحَذْق الذي تمكَّن به ثورندايك من الحصول على الحلية دون أن يطلب استعارتَها، بدأت أشكُّ في أن تلك الصفقة أهمُّ مما كانت تبدو للأعين. لذلك، راقبتُ عن كثب مصير القلادة كي أرى إن كان سيتَّضح لها أيُّ غرض خفي. لكن لم يكن ثَمة غرضٌ فيما يبدو. ففي اليوم التالي، سلَّم ثورندايك القلادة إلى بولتون، الذي حدَّق فيها بإعجاب قبل أن يُعيدها إليه.

قال: «أنا لا أحتاج إلى القلادة يا سيدي. يبدو أنك نسيت أنِّي مَن صنعت الصورة الفوتوغرافية المصغَّرة. لديَّ الصورة السلبية الأصلية التي التقطتُها للرسم، والتي سيكون استخدامها لتكبير الصورة أفضلَ بكثير؛ لأن حجمها جيد بالفعل.»

قال ثورندايك: «بالطبع. لا بد أن ذهني كان شاردًا. لِم لَم تُذكِّرني بذلك يا جيرفيز؟»

أجبتُه بأن ذهني على الأرجح كان يصحب ذهنَه في شروده؛ إذ إنني مَن اقترحت استعارة القلادة، لكني أكدت أن ضررًا لم يحدث من ذلك.

وافقني قائلًا وهو يقلب القلادة في يده: «أجل، وأنا سعيد برؤية تلك الحلية الصغيرة مرة أخرى. إنها لَنموذج بديع لصياغة الذهب، وإقرارٌ مؤكَّد بكفاءة السيد بيدلي وصانِعِها. كيف استطعتَ يا بولتون أن تُشكِّل الشعرة على هذا النحو البديع على هيئة شكلٍ حلزوني مسطح؟ فالشعر ليس خامةً طيِّعة كثيرًا، أليس كذلك؟»

«لا بأس بها يا سيدي إن عرفتَ كيف تتعامل معها. كلُّ ما فعلته هو أنني بلَّلت شعرتَين من تلك الخصلة الصغيرة التي قصَصتها ولفَفتُ كلًّا منهما بإحكام على مِغزَل رفيعٍ من الصُّلب. بعد ذلك سخَّنت المِغزل بحرص، وبعد أن برَد انسلَّت عنه الشعرة في شكل أسطوانة صغيرة محكَمة أشبهَ بزنبرك أسطواني. بعد ذلك، كان من السهل تمامًا تشكيلُها في شكل حلزون مستوٍ على البطاقة.»

«إذن فقد استخدمتَ شعرتَين فقط. ماذا فعلت فيما تبقَّى من الخصلة؟ هل تخلصتَ منه؟»

ابتسم بولتون بمَكر. قال: «كلا يا سيدي؛ فأنا أُعاني داء الحِرفيين المعهود. لا أتخلص أبدًا من أي شيء. حتى الشعرة قد تُفيد، إن كانت طويلةً بما يكفي، لاستخدامها

وترًا لقوسِ كمانٍ صغير؛ لاستخدامه عند عزف النغمات الدورية. هل تودُّ رؤية ما تبقى منه؟»

ودونَ انتظارِ إجابة، اتجهَ إلى واحدة من خِزاناته التي لا تُحصى، وأخرج من درج عليه بطاقة معنوَنة مظروفَ بذور مكتوبًا عليه بالقلم الرصاص «شعر السيدة شيلر»، وناوله لثورندايك الذي سحب منه خصلة صغيرة من شعرٍ ذي لون بُني فاتحٍ أو أصفرَ شاحب، مربوطة بعناية بأربطةٍ من الخيط.

قلتُ حين مدَّ ثورندايك ذراعه به في ضوء النافذة: «لا أرى به أي شيء غير عادي.»

قال موافقًا: «صحيح، لكننا لا نملك حسَّ بيدلي المتمرسِ بالألوان، وعلى الأرجح لن تُلاحظ تلك السِّمة الغريبة التي وصَفها إلا في كُتَل كبيرة منه. لكن لا بد أنها لم تكن واضحةً كثيرًا للعين حتى حينِها؛ إذ لا يبدو أن أحدًا غيره قد لاحظَها.»

جذب طرَفَي الخصلة لمدِّها وبعد أن قاسها بمِسطَرة طولها قدَمان على منضدة العمل، دون طولها (تسع بوصات ونصف البوصة) على المظروف. ثم لف الخصلةَ مرة أخرى وأعادها إلى المظروف.

قال: «سأسلبك إياها يا بولتون. من الأفضل أن تُرفَق تلك العيِّنة بباقي الأحراز المحتملة؛ وتحسبًا لتحقق الاحتمال الضئيل بعرضها أمام المحكمة، حريٌّ بك أن توقِّع اسمك على المظروف تحت الوصف.»

أتم بولتون ذلك الطقس على أكمل وجه، وبعد أن رفض ثورندايك اقتراحي الساخرَ بأن أكون شاهدًا على التوقيع، وضع المظروف في محفظته ثم عاد إلى موضوع تكبير الصورة الشخصية.

لن أُعلق على تلك الإجراءات؛ إذ سبق أن ذكَرتُ أنني قد فشلت فشلًا ذريعًا في إيجاد صلة بين أيٍّ منها وبين قضية بينفيلد. ولأسباب واضحة، لن أذكر أيضًا أي شيء بخصوص نشاطات أخرى أجراها ثورندايك خلف الباب الموصَد لمعمله الخاص؛ إذ جزَمت بمقتضى خِبرتي أنها تَجارِبُ ذات صلة باستنتاجات توصَّل إليها من الوقائع المعروفة لي. لا شك أنها كانت لتكشف عن الكثير لو علمتُ ماهيتها؛ لكنه تركني على جهلي، حسب العُرف الغريب المتبَع بيننا، الذي كان يمنحني ثورندايك بمقتضاه كلَّ فرصة ممكنة لملاحظة الحقائق، لكنه كان يرفض الكشف عن استنتاجاته أو فرضياته إلى حين انتهاء القضية؛ وحتى بولتون الذي كان الفضول يتملكه لم يملك سوى أن يُحدق بأسًى في الباب الموصَد.

وهكذا لم يكن لديَّ أيُّ فكرة على الإطلاق عما كان يدور داخل معمله الخاص؛ لكنه أذن لي، إنْ جاز التعبير، في مرتين أخريين باختلاس النظر إلى ظهر بطاقاتِ اللعب. وهكذا، وفي أحد الأيام، عُدت في موعد الغداء لأجد زميلي يَذْرع نهاية شارع كينجز بينش ووك جَيئةً وذَهابًا، منهمكًا في حديث جادٍّ مع رجل يُدعى السيد سنوبر. كان السيد سنوبر هذا رجلًا استثنائيًّا بحق. فنظرًا إلى أنه في الأصل محقِّق خاص، فقد استعان به ثورندايك مرةً أو مرتَين لجمع المعلومات أو لمراقَبة أشخاص معيَّنين؛ لكنه أثبت براعتَه وسَعة حيلته وجدارتَه بالثقة، حتى إن ثورندايك منحَه وظيفة دائمة؛ وصار أحدَ موظَّفينا الذين لا يُمكن الاستغناء عنهم في إجراء التحرِّيات والمراقبة حيث لا يُستحَب أن نظهر بأنفسنا.

لكن بمَ يُمكن أن يُنذر هذا اللقاء؟ عادةً ما يُؤذِن ظهور السيد سنوبر سلفًا بوقوع تطوُّرات مثيرة نوعًا. وقد كانت قضية السيدة شيلر هي القضيةَ الوحيدة ضِمن القضايا الأخرى التي نتولَّاها في الوقت الحاليِّ التي تحتمل أن يطرأ عليها تطوُّراتٌ مثيرة؛ لكن كان يبدو أننا كنا مُلمِّين بجميع الحقائق المهمة المتعلقة بتلك القضية. كانت مشكلتنا تَكمُن في التطبيق العمَلي لتلك الحقائق، وهي مشكلة لا يبدو أن أنشطة السيد سنوبر قد تُقدِّم حلًّا لها.

لكن حَيْرتي بلَغَت أقصاها مساءَ ذلك اليوم نفسِه، حين دخلتُ إلى غرفة جلوسنا فوجدتُ بولتون يضع كرسيًّا وثيرًا قُبالة المِدفأة، ويضع بجواره منضدةً صغيرة عليها قارورةُ ويسكي وعلبةٌ من السيجار. راقبتُه بشكٍّ متزايد، وحين أضاف إلى المنضدة مثقابًا، استعاره من مَشغله، ارتقى شكِّي إلى اليقين.

سألته: «هل ننتظر مأمور الشرطة؟»

أجاب: «أجل يا سيدي. السيد ميلر قادم في الثامنة والنصف حسَب موعدٍ متفَق عليه.»

«أظنك لا تعلم سبب زيارته، أليس كذلك؟»

«لا يا سيدي لا أعلم. أظن أن السبب هو قضية شيلر، لكن ذلك مجرد تخمين، ولا أُخفي عليك يا سيدي أن الفضول يكاد يقتلني. أرى أن ثمة شيئًا ما وشك الحدوث، وأن شخصًا ما سيتلقَّى مفاجأة.»

«ما الذي يجعلك تقول ذلك؟»

«أنا أعرف البوادرَ منذ زمنٍ طويل يا سيدي. إن الطبيب في واحدة من نوبات السخط والضيق التي تنتابُه؛ فهو شديد التكتُّم والانشغال. لقد كان مختفيًا وراءَ باب معمله

الموصَد يفعل أمورًا شتى يفترض أنها من مهامي فعليًّا؛ يُحمِّض الصور ويفحص عيناتٍ تحت المجهر، ويصنع صورًا متناهيةَ الصِّغر، والله أعلمُ ماذا أيضًا. أعلم ذلك؛ لأنني كنت أقوم بالتنظيف وراءه.»

ضحكت من فُضوله الذي لم يُحاول إخفاءه، لكني أشفقت عليه أيضًا.

قلت معقبًا: «يبدو لي أنك كنت تقوم بوظيفة سنوبر؛ تضع الطبيب تحت المراقبة حسب مسمَّى الشُّرَطيون المدَنيون.»

«لا ضَير يا سيدي من مراقبته إن بدا في أفعاله ما يستدعي ذلك، وأعتقد أنه يُحب أن يُراقَب. إنه جزء من اللعبة. لقد رأيته صباحَ اليوم في شارع ذا واك يتآمر مع السيد سنوبر. وكان يعلم أنني أستطيع رؤيته من النافذة. والآن السيد ميلر قادمٌ للزيارة، وهو لا يُفصح عن الكثير. ماذا تظن أن يكون هذا الشيء؟»

أخرج من جيبه جُذاذةً من خشب الماهوجني حوالي أربع بوصات في بوصتَين، بها تجويفٌ سطحي مستطيل أبعاده نحو بوصتَين ونصف البوصة في بوصةٍ واحدة، وله جانبان مستقيمان وحواف مستديرة، وثقب صغير دائري قُطره نحو ستةَ عشر جزءًا من البوصة، أمام منتصَفِ التجويف مباشرة.

تابع بولتون: «لقد نفَّذته من رسمٍ بالحجم الطبيعي رسمه الطبيب، ولأنه لم يذكر أيَّ شيء عن الغرض منه، أظن أنه جزء من المفاجأة.»

قلتُ مقترحًا: «يبدو كشريحةٍ مجهرية من نوعٍ ما»؛ لكن في هذه اللحظة، سمعنا صوتَ خطوات سريعة تصعد الدرَج، فالتقطَ بولتون الشريحة وأعادها إلى جيبه وهو يبتسم ابتسامةَ المذنب حين انفتح البابُ ودخل ثورندايك.

قلت معلقًا: «أرى أن السيد ميلر سيُشرِّفنا بزيارته.»

ألقى نظرةً خاطفة على المنضدة الصغيرة، ثم سأل مبتسمًا:

«أهي معلومةٌ تلقَّيتها أو ملاحظةٌ واستنتاج؟»

أجبت: «كِلاهما، لكنَّ الاستنتاج جاء أولًا. والمثقاب هو ما أكَّد تحليلي.»

ضحك ثورندايك ضحكةً خافتة وقال: «أجل، من المدهش مدى قدرةِ بولتون على تذكُّر كل ما يُحبه زائرونا وما يَكْرهونه. كان ليصيرَ صاحبَ نُزُل رائع. كيف تفعل ذلك يا بولتون؟»

أجاب بابتسامة سرور: «حسنًا يا سيدي، أولى بالإنسان أن يكون على درايةٍ ببني جنسِه، وهذا يتضمَّن السيد ميلر ... وعلى ذِكره، ها قد وصل.»

انتهى صوتُ الخطوات المتصاعدةِ بالطَّرقة المميزة، ففتح بولتون الباب ودخل المفتش وحيَّانا بابتسامةٍ عمَّنا بها، نحن والمقاعد الثلاثة الوثيرة والمنضدة الصغيرة.

بعد أن فرَغنا من تبادل التحيات والمصافحات الأولى — التي شملت بولتون — قال: «أنا مسرور برؤيتكم جميعًا مجددًا. لقد مر وقتٌ طويل جدًّا منذ آخرِ زيارة لي إلى هذا المكان. لم تَعُد تتسنَّى لي فرصٌ كثيرة للقدوم إلى هنا بعد أن صرتُ حبيسَ مكتبي.»

وقفنا نُثرثر في أمور بعيدة عن موضوع الزيارة لبضع دقائق، ثم انتقلنا إلى المقاعد، فأشعلتُ أنا وثورندايك غليونَينا بينما اختار ميلر سيجارًا بعناية وصبَّ بولتون الويسكي.

قال المفتش وهو يثقب بإمعان طرفَ السيجار المقابل له بالمثقاب: «لقد أنجزتُ لك تلك المسألةَ البسيطة التي أردتَها. كانت مهمةً صعبة أيضًا. اضطُررتُ إلى الحصول على موافقة مساعدِ مفوض الشرطة بالطبع، ولم يكن مستعدًّا على الإطلاق لمنحي إياها. لكني أطلعتُه على خِطابك وتملَّقته قليلًا فاستجاب أخيرًا. لكنه ما كان ليفعلَ ذلك لأجل أي شخصٍ آخر، حتى أنا، واشترط أن تكون تلك المعلوماتُ سرية تمامًا وألَّا يطَّلع عليها سواك.»

«أنت تعلم أن بوُسعك الاعتمادَ على تكتُّمي يا ميلر. لكن ماذا إن طُلِب استخدامُها في الشهادة أمام المحكمة؟ هل أفهم أنه سيُوافق على ذلك؟»

«سيتعيَّن عليك أن تتفق على ذلك معه. أعتقد أنك لا تعتزم الطعنَ على الحكم، أليس كذلك؟»

«كلا. الحكم ليس من شأني سواءٌ أكان جيدًا أم سيئًا.»

«أتساءل — وكذلك تساءل مساعدُ المفوض — ماذا عساه أن يكون شأنُك، بخاصة السبب الذي أردتَ من أجله تلك البصمات. لكن أفترض أننا سنعرف في الوقت المناسب؛ إذ يبدو أنك تُلمح إلى أنك ربما تحتاج إلى مساعدتنا في وقتٍ لاحق.» ثم قال مختتمًا حديثَه، وهو يُخرج مظروفًا سميكًا مقفلًا بخَتْم من جيبه: «على أي حال، ها هو ملف الفاضلة لويزا سوندرز الكامل، إن كان هذا اسمها بالفعل — يبدو أنه كذلك؛ إذ يتوافق مع الحرفَين الأولَين المنقوشين على ملابسها — وبه بياناتها الشخصية وبصمات أصابعها وصورٌ شخصية من السجن، وملخَّص لوقائع جلسة مَحكمة الشرطة، وكل شيء طلبَته؛ وكما ترى المظروف مقفَل بالشمع ومكتوبٌ عليه «مستندات سرية».»

ناول الملف لثورندايك وهو يرمقني بنظرة خبيثة، وبعد أن شكَره زميلي بحرارة شديدة على صنيعه، انتهى الأمر وتحول مجرى الحديث إلى قنوات أخرى، تتعلق في

معظمها بقسمِ التحقيقات الجنائية. ومع أن حديث المفتش بشأن أمور العمل كان مُشوقًا جدًّا، فهو لا يتعلَّق بتلك القصة. كما أنني لم أكن أُصغي إليه باهتمام كبير؛ إذ كان عقلي مشغولًا بالأسئلة: مَن تكون لويزا سوندرز بحق السماء؟ وما شأنُنا بها؟ ولِمَ قد يُريد ثورندايك بصماتِ أصابعها؟

كانت تلك الأسئلة، إلى جانب الغموض الذي أحاط بالملف، مادةً خِصبة للتفكير بالنسبة إليَّ في الأيام القليلة التالية؛ وكذلك لثورندايك حسَبما بدا، وإن كان بطريقة مختلفة. فقد أغلَق عليه باب معمله مجددًا وتابع أنشطتَه الغامضة مما أثار غيظ بولتون، ولما بدا أنها كانت متعلقة بالتصوير الفوتوغرافي بالأساس حسَب تصريح بولتون، استنتجتُ أنه يصنع نسخًا من «المستندات السرية»، لكن لم يسَعْني أن أُخمِّن حتى غرضه من ذلك.

هكذا، مرَّت الأيام وانقضَت العطلة الصيفية، واقترب الموعد المحدد لجلسة الاستماع. تلقَّينا بضعة خطابات من السيد بينفيلد، تتعلق بالأساس بطلب ثورندايك ضرورةَ استدعاء شهود معيَّنين للمثول أمام المحكمة؛ لاستجوابهم بشأن إفاداتهم الموثقة، وذات مرة لمحتُ بين الخطابات التي تسلمناها عبر البريد الصباحي مظروفًا كبيرًا مكتنزًا مرسَلًا إلى ثورندايك، بدا لي وكأنه تقريرٌ من السيد سنوبر. لكن ذلك لم يكن إلا تخمينًا، مع أن خط سنوبر كان مميزًا أكثرَ من شخصه.

بخلاف ذلك، بدَت استعدادات ثورندايك قد اكتملت، بقدر ما تسنَّى لي الجزمُ في ظل عدم عِلمي بطبيعتها، وكنت أتطلَّع في لهفة إلى تاريخ جلسة الاستماع الذي كان يقترب؛ إذ كنتُ آمُل أن يأتيَ ليكشف لي عن جميع الأسئلة الغامضة التي ظَلِلتُ أحاول تحسُّسَ إجابات لها دون جدوى.

الفصل الرابع عشر

محكمة المواريث والوصايا

في صباح اليوم المحدَّد لجِلسة الاستماع، كانت جميع التحضيرات قد اكتملَت، وكنا — أتحدث عني أنا وبولتون — نترقبُ بتلهُّف المشهدَ الافتتاحي للمسرحية. ولما كنا نَقطُن بالقربِ من المحاكم القضائية، وضعتُ أنا وثورندايك باروكتَينا وعباءتَينا قبل المغادرة، وهكذا انطلَقْنا عن بَكْرة أبينا بكامل هندامنا، يُرافقنا بولتون حاملًا حقيبةَ أوراق صغيرة، وعبَرنا منطقة تيمبل عبر شارع كراون أوفيس وشارع فاونتين كورت، وأخيرًا خرَجنا إلى شارع ديفيرو كورت، ومنه إلى الجهة المقابلة للمدخل الرئيسيِّ إلى المحاكم القضائية الملَكية من شارع ستراند، وبعد أن عبَرنا الطريق، دخلنا إلى تلك المنشأة المهيبة واتجَهنا إلى المحكمة التي ستُعقَد فيها جلسة الاستماع.

باستثناء الحاجب والسيد ترنر، الموظَّف الإداري لدى السيد بينفيلد، كنا نحن أولَ مَن وصل من الحضور؛ لكن بعد وصولنا بقليل، وصل السيد لونجفورد، محامي المدَّعية برُفقه موكلته الآنسة دالتون، ورجل صدَق حَدْسي أنه السيد كارل شيلر. ولما كنا نعرف السيد لونجفيلد معرفةً طفيفة، بادَلْناه بضع كلمات ترحيبية، ثم قدَّمَنا لمُرافقيه، وبينما كنا نتجاذب أطراف حديثٍ مهذَّب لم يتطرَّق كثيرًا إلى الموضوع الجاري، اقترن به فحصٌ متبادَل بيننا.

كانت الآنسة دالتون، «المدعية»، امرأةً لا يختلف أحدٌ على حُسنها، في الخامسة والثلاثين تقريبًا من عمرها، لكني لم أُعِرها اهتمامًا كبيرًا؛ إذ كان اهتمامي الأكبر منصبًّا على السيد شيلر، الذي انتهزتُ الفرصة لأُلقيَ عليه نظرة متفحصة بقدرِ ما تسمح به حدودُ الأدب. لم يكن ذا شخصية مميزة كثيرًا، لكنه زوجُ لوتا الغامضة (أو كان كذلك)، وكان لديه قدرٌ كافٍ من الاهتمام كي يحضر ليعرفَ ما إذا كانت المحكمةُ ستفترض أنه أرملٌ أم سيظلُّ زوجًا فحَسْب. لذا كنتُ أسترِقُ إليه نظراتٍ متفحصةً أثناء حديثنا

(وكذلك فعل ثورندايك كما لاحظت) وأُصغي بإمعان لحديثه الذي استشفَفْت فيه لَكْنة ألمانية خفيفة رأيتُ أنها تتوافق مع هيئته التيوتونية. كان رجلًا يميل إلى الضآلة جسدًا، طوله نحو خمسة أقدام وسبعِ بوصات، نحيل الجسد، ذا عنقٍ طويل وكتفَين مائلتَين، أشقر اللون، وله شاربٌ خفيف نوعًا ما ولحيةٌ صَهْباء فاتحة، وعينان مميزتان لهما لونٌ عسلي يميل إلى الأخضر. كان لون حاجبَيه أغمقَ من لحيته، وكانا عريضَين ومرسومين في خط يكاد يكون أفقيًّا مستقيمًا. أما شعره فكان لونه على الأرجح مُماثلًا لِلحْيته، أو ربما أفتح، لكني لم أستطع الجزمَ بذلك، إذ دهَنه بالزيت كي يُصففه منسابًا إلى الخلف. في المجمَل، رأيتُه رجلًا وسيمًا إلى حدٍّ ما، وترك لقاؤنا القصيرُ لديَّ انطباعًا إيجابيًّا نوعًا ما عنه.

في أثناء حديثِنا المقتضَب، وصَل آخَرون. فدخل السيد لوريمر، المستشارُ القانوني للمدعية، مرتديًا باروكتَه وعباءته، وانخرَط في مُشاوَرات سرية مع السيد لونجفورد على طاولة المحامين. وانسل السيد بيدلي إلى الداخل وجلس بهدوء في مقعد خلفي، وما لبث أن انضمَّ إليه المفتشُ بلاندي وسيدتان في منتصف العمر وصلَتا معًا، وما إنْ لمحتا بيدلي حتى ذهبَتا للجلوس بجواره. لكن أكثر مَن أثار وصولُه اهتمامي كان رجلًا ذا مظهرٍ ريفي دخَل يتهادى من الباب الدوَّار، وبعد أن تطلع حوله ببلادة، سار على مهلٍ باتجاه طاولة المحامين؛ إذ اعترَتْني دهشةٌ مباغتة كالعادة حين أدركتُ فجأة أنه السيد سنوبر الغامض.

كان يُتقن دور الريفي البعيدِ كلَّ البعد عن التمدُّن حدَّ الكمال. فقد كان تحديقُه فيما حوله بمزيج من الضجر والفضول مقنعًا تمامًا، وكان المرء ليعتقدَ أن ساعةَ الجيب الضخمة التي أخرجَها من جيبه وقارنَ بينها وبين ساعة الحائط هي إرثٌ ثمين وَرِثه عن أحد أجداده القرويِّين. لكن ماذا كان يفعل هنا متنكِّرًا تحت بصَرنا؟ لما فشلتُ في تصوُّر مهمتِه التي جاء من أجلها، قرَّرت أن أُراقبه وأحاول أن أحلَّ هذا اللغزَ بنفسي. لكن في ذلك الحين كانت ساعة القاعة قد أعلَنَت اقتراب الموعد المرتقب، مناشِدةً إيانا الجلوسَ في مقاعدنا، وهو ما فعَلناه؛ أُجلِسَت الآنسة دالتون في مقعد على طاولة المحامين، واختار السيدُ شيلر مقعدًا أماميًّا ذا مسندِ ظهرٍ مرتفع مُريح، وجلس سنوبر في مقعدٍ خلفه، وانضمَّ السيد لوريمر إلينا على مقعد المستشارين؛ وما إن جلسنا في أماكِننا حتى فتَح الحاجبُ البابَ المجاور للمقعد ليخرج منه القاضي بهمَّة ويتخذَ مقعده.

نظرتُ إليه بقدرٍ كبير من الاهتمام؛ إذ لم يكن ثَمة هيئة محلَّفين، وكان هو مَن له الحكمُ في القضية. لكن بخلاف ذلك، كان ما جذَبني وأثار اهتمامي فيه هي شخصيتَه التي كانت من نوعيةٍ غيرِ مألوفة في جوانبَ عدَّة. فقد غاب عنه ذلك الهدوءُ المهيب الذي يقترن في ذهن المرء بشاغِلي مِنصَّة القضاء. في الواقع، كان أكثر قاضٍ مفعمًا بالحيوية رأيتُه على الإطلاق. كان يتململ في كرسيِّه، ويلتفتُ ليُواجه كلَّ متكلم سواءٌ كان شاهدًا أو مستشارًا، ويميل جانبًا ليُخاطبه بأسلوب وُدِّي وخصوصي غيرِ معتاد يتوافق مع الأسلوب العام الذي يُدير به الجلسة، والذي كان أشبهَ بأسلوبِ إدارة نقاشٍ عائلي.

لم تكن حيويتُه تلك جسديةً فحَسْب. فقد كان في قمة النشاط ذهنيًّا كذلك، وبدا أنه يُتابع كلَّ مرحلة من الجلسة باهتمام شديد يُقارب اللهفة، ويُراقب المتحدثَ ويُدْلي بتعليقات عرضية بأسلوبٍ جازم سريع يخلو تمامًا من وقار القُضاة. لكنه كان قاضيًا بارعًا، فَطِنًا ومتعاونًا ووَدودًا ويميل إلى التحرُّر من الرسميات بقدر ما تسمح به الظروف.

بعد أن اتخذ سيادته مقعده، وجال ببصرِه سريعًا عبر قاعة المحكَمة، التفتَ بترقُّب إلى السيد لوريمر، مستشار المدعية، الذي نهض على إثرِ ذلك كي يفتتحَ القضية.

سأل القاضي بعد أن عرَض السيد لوريمر طبيعة القضية: «هل يوجد مَن يُعارض الطلب؟»

«لا أعلم بوضوحٍ يا سيدي القاضي مقدارَ المعارَضة. فلم تُقدَّم أيُّ إفادات موثقة ولا أي مُرافعات ردًّا عليها.»

نظر القاضي بتساؤل إلى ثورندايك، الذي نهض ليُفسِّر قائلًا: «موقفُنا يا سيدي هو كالآتي: الموكل بتنفيذ وصية لوتا شيلر هو نفسُه مُحاميها ووكيل أعمالها، ولأنها لا تزال على قيد الحياة حاليًّا في نظر القانون، فقد رأى ضرورة حماية مصالحها بأن يتأكَّد من بيانِ جميع الحقائق التي تُناقض افتراضَ وفاتها أمام المحكمة.»

«لكن ألم تُقدِّم أيَّ إفادات موثقة؟»

«كلا يا سيدي؛ لكن إن اضطُررنا إلى ذلك في أثناء سماع الدعوى، سأطلب مُهلة للسماح لي بتقديم إفادات موثقة ردًّا عليها أو استدعاءِ شهود.»

ابتسم القاضي بوُد. «فهمت، إنه مبدأ عدم الوثب قبل بلوغ الحاجز الذي عَهِدناه منك. لا بأس.»

أومأَ برأسه للسيد لوريمر الذي تابع قائلًا: «نظرًا إلى أن ذلك هو التماسٌ لطلب افتراض وفاة، فإن الوقائع محلَّ النقاش هي تلك المتعلِّقة باحتمال الوفاة؛ لكني أرى أنه من المستحَب أن أشرح، في إيجاز، الظروفَ والملابسات التي أوجبَت تقديم ذلك الطلب.

منذ نحوِ خمس سنوات — وبالتحديد في يوم ١٦ أغسطس عام ١٩٢٨م — وثَّقت لوتا شيلر وصية تُوصي فيها بكل ثروتها المتواضعة جدًّا، التي تبلغ في مجملها نحوَ ٣٠٠ جنيه إسترليني، لصديقتها باربرا دالتون، وفي حال وفاة باربرا قبلها، تَئول تلك التَّرِكة إلى أختها الصُّغرى ليندا. في الوقت نفسِه تقريبًا، كتبَت باربرا وصية بالشروط نفسها، غير أنها أوصَت بمقتنياتها لليندا، باستثناء كمانها. أمَّا الكمان وباقي ثروتها التي بلغَت حوالي ٢٥٠ جنيهًا إسترلينيًّا، فأوصت بها للوتا. هكذا، كانت تلكما الوصيَّتان، في وقت تحريرهما، لا أهمية لهما على الإطلاق. لكن في يوم ٢٨ من مايو عام ١٩٣٠م، تُوفِّي رجل يُدعى السيد تشارلز مونتاجو، وتبين عندئذٍ أنه أوصى بمبلغ قدره ٢٠٠٠٠ جنيهٍ إسترليني لباربرا دالتون، ومثلِه لليندا. كانت هاتان التركتان مفاجأةً غير متوقَّعة على الإطلاق للمنتفعتين بالوصية، وربما كانت باربرا لتُجريَ بعض التعديلات على وصيتها لو كان الوقت قد أُتيح لها. غير أنه لم يُتَح. فلسببٍ ما، تأخَّر إثباتُ صحة وصية السيد مونتاجو كثيرًا، وفي تلك الأثناء تُوفِّيَت باربرا. بعد ذلك، ولما كانت لوتا شيلر هي الموصى لها بفَضْلة التركة حسَب وصية باربرا، آلَ مبلغُ العشرين ألف جنيه إسترليني لها.

لكن حينَها ظهرَت مشكلةٌ جديدة. حين وصل الأمر إلى توزيع تركة السيد مونتاجو، لم يستطع أحدٌ معرفة مكان لوتا شيلر. نُشِرَت الإعلانات المعتادة في الصحف، لكن لم تَرِد أيُّ ردود. لذا ظلَّ الأمر معلقًا لفترة؛ ولم يُعلَم يقينًا ما إذا كانت على قيد الحياة، وزاد الأمر تعقيدًا أنه بجانب عدم إمكانية دفع تلك الأموال إليها، لم يكن ثَمة دليلٌ على أحقيَّتها فيه؛ إذ تعذَّر حتى إثباتُ أنها كانت على قيد الحياة وقتَ وفاة باربرا.

ثم أعلنَت الصحُف اختفاءَ لوتا الذي أثار ضجة والاشتباهَ في مقتلِها؛ وعُرِفَت الحقيقة المذهلة وهي أنها كانت طوالَ ذلك الوقت تُقيم في مسكن مستأجَر في ٣٩ شارع جيكوب، المتفرِّع من طريق هامبستيد. إما أنها لم ترَ الإعلانات مطلقًا، أو أنها تجاهلَتها، وهو ما يبدو غيرَ معقول. لكن على أي حال، فور أن علم المُوكَّل بتنفيذ وصية باربرا بأنها على قيدِ الحياة، أو كانت كذلك حتى وقتٍ قريب، سعى إلى التواصل معها، لكنه لم ينجح في ذلك. ولم تُسفِر مساعيه، التي كان يُكررها من آنٍ لآخَر، عن أيِّ نتائج أفضل؛ والآن بعد مرور عامَين وتبيُّن وفاة لوتا شيلر على نحوٍ شبهِ قاطع، فإن الآنسة ليندا دالتون المستفيدةَ من وصية لوتا التي لا تزال على قيد الحياة، وبِناءً على نصيحة مُحاميها، تلتمس من المحكمة الإذنَ بافتراض وفاة الموصية؛ تمهيدًا لإثبات صحة الوصية. ولما كانت الوقائع التي نستند

إليها في طلبنا هي في الأصل تلك الوقائعُ ذات الصلةِ باختفاء الموصية، فسأعرض الآن بيانًا أكثرَ تفصيلًا لواقعة اختفائها.

في يوم ١٦ يوليو عام ١٩٣٠م، استأجرت لوتا شيلر مسكنًا مفروشًا في العقار رقم ٣٩ شارع جيكوب، طريق هامبستيد. لم تُقدِّم أيَّ خطاباتِ توصية، لكنها دفعَت إيجار شهرٍ مقدمًا، ودفعَت ذلك القسط وجميعَ الأقساط اللاحقة نقدًا مع أنها كانت تملك حسابًا بنكيًّا، وهو ما يُشير إلى أنها لسببٍ غيرِ معروف لنا، لم ترغب في الإفصاح عن مكانها لأيٍّ من أصدقائها. ما يدعم هذا الاحتمالَ حقيقة أنها طوال فترةِ إقامتها في شارع جيكوب، لم تكتسب أيَّ معارفَ محليِّين عدا السيد بيدلي، وهو رسَّام يقطُن في المنزل المجاور لها، والسيد بولتون والسيد فاندربوي، وكلاهما تعرفَت عليه عبر السيد بيدلي.

أثناء تلك الفترة، يبدو أنها كانت تدَّعي امتهانَها الفنَّ. ولكنه ادعاءٌ باطل لا محالة؛ إذ لدينا دليلٌ على أن أعمالها افتقرَت إلى الكفاءة المطلوبة، وهو ليس بأمرٍ مفاجئ؛ نظرًا إلى أنه لم يُعرَف عنها من قبلُ قدرتُها على الرسم بالألوان أو حتى بالرصاص. لكنه أعانها على التعرُّف على السيد بيدلي، الذي سرعان ما تطور إلى صداقة بيِّنة كانت تستغلُّها للتردُّد على مرسمِه. بهذه الطريقة، تعرفَت بعد وقتٍ قصير على السيد ويليام فاندربوي، وهو مُحامٍ عضوٌ بجمعية إنر تيمبل، الذي قصد المرسمَ كي يطلبَ إلى السيد بيدلي رسم صورة شخصية له. وسرعان ما تطورَت تلك المعرفة الناشئة إلى صداقةٍ وطيدةٍ للغاية، صحبتها مُغازلات تفتقر إلى الحياء من جانبها، وربما عاطفة حقيقية من جانبه.»

لا داعي إلى سرد بقية مرافعة السيد لوريمر الافتتاحية؛ إذ تناولَت أمورًا نعرِفُها بالفعل وسبقَ أن سرَدْناها. فقد وصَف بتفصيلٍ دقيق وممعِن جميعَ الملابسات المرتبطة باختفاء لوتا شيلر، بما فيها مقتلُ إيما روبي التعيسةِ الحظ، والبحثُ الذي قادته الشرطة عن لوتا، والآثار التي اكتُشِفت، وأخيرًا وبإسهابٍ شديد استكشافُ المعسكر البريطاني القديم، والجهود العديدة التي بُذِلت خلال العامَين المنصرِمَين للتواصل مع لوتا.

في تلك الأثناء، ونظرًا إلى عدم اهتمامي كثيرًا بالمرافعة، سلَّيت نفسي بملاحظةِ ما يدور في قاعة المحكمة؛ مراقبًا القاضيَ الذي كان يُصغي بتركيز شديد إلى رواية المستشار، وبِضْع غرباء دخَلوا عبر الباب الدوَّار، لكنهم سرعان ما خرَجوا مجددًا، والسيد سنوبر على وجه الخصوص. غير أن مراقبتَه لم تكن مسليةً كثيرًا. في البداية جلس خلف السيد شيلر مباشرة، لكنه تحرَّك تدريجيًّا عبر المقعد كي يصيرَ أقربَ إلى المتحدث على ما يبدو، وهناك جلس يستمع فاغرًا فاه، وبدا مستغرقًا في رواية السيد لوريمر بقدرِ استغراق

القاضي نفسِه. أما السيد شيلر، فبعد البيان الافتتاحي، لم يبدُ أنه مهتمٌّ كثيرًا بالمرافعة؛ إذ لا بد أنه سمعها بأكملها من قبل. جلس معظم الوقت مطبقًا جفنَيه، مسندًا رأسَه على مسند الظهر المرتفع للمقعد وكأنه نائم؛ مع أنه كان يفتح عينَيه من آنٍ لآخر ويرفع رأسه ليتطلَّع حوله، لكنه ما يلبث أن يعود إلى وضعيته شبه الناعسة.

خلال إحدى فترات اليقظة المؤقتة تلك، حدث شيءٌ غريب جدًّا. كان السيد لوريمر قد وصل إلى نهاية سرده، وكان قد بدأ لتوِّه في عرض حُجته حين فتح السيد شيلر عينَيه ونظر ناعسًا إلى المستشار. ثم فجأة، اتسعَت عيناه وارتسم على وجهه تعبيرٌ غريب من الفزع. نظرت إليه مندهشًا. بدا أنه يُحاول التحرُّك من مكانه، لكن رأسه ظل ثابتًا وكأنما التصقَ بمسند ظهرِ مقعده. على الفور، لاحظ السيد سنوبر مأزقَه، فتحرك بسلاسة على الدكة باتجاهه سريعًا، وفي الوقت نفسِه أخذ يتحسس جيبه. سمعته يُتمتم قائلًا: «لا تتحرَّك يا سيدي»، وبعض الكلمات الأخرى التي لم تلتقِطْها أذُناي، وبينما كان يتحدث، رأيته يُسارع بفتح مقصٍّ جيبٍ قابلٍ للطَّي. بعدها انحنى وهو ممسكٌ به فوق مسند المقعد، وبعدها بلحظةٍ تحرر السجين وهو يبتسم ابتسامة ساخرة خافتة، ويتحسَّس مؤخرة رأسه برفق، ويلتفت ليتطلَّع بفضول إلى الموضع الذي كان سنوبر الآن يكشطُه بعناية بسكينِ جيبٍ من المقعد.

لم يتسنَّ لي رؤيةُ ما كان يكشطه، لكن لا بد أن مادةً غريبة كانت عالقة في مسند الظهر بالمقعد؛ إذ رأيتُه يضع السكِّين أمام عينَيِ السيد شيلر ليُرِيَه إياه، ثم يمسحه في مظروفٍ أخرجه من جيبه ثم أعاده له مرة أخرى بعد أن طوَاه. لكن حتى ذلك لم يُرضِه؛ فقد تابع كشطه للموضع، ثم مسح السكينَ في قطعة أخرى من الورق، وأخيرًا بعد أن تحسس السطحَ بيدَيه، دعكه بقوة بمنديله. في تلك الأثناء، بعد أن شكَر السيد شيلر سنوبر على صنيعه بابتسامة، تحركَ عبر المقعد، وبعد أن احتاط وفحص السطح بتمرير يده عليه، مال إلى الخلف مرةً أخرى وأغمَض عينَيه.

كانت واقعةً غريبة، تبدو تافهة للغاية لناظر عابر، وانتهت في أقلَّ من دقيقة، ويبدو كذلك أن أحدًا لم يُلاحظها، عدا القاضي الذي ألقى نظرةً فضولية سريعة أثناء عملية الكشط. لكني لم أقتنع تمامًا بتفاهتها، وظللتُ أُراقب السيد سنوبر مع أنه عاد ليُواصل الإصغاءَ فاغرًا فاه، ولاحظت أنه بدا يتسلَّل رويدًا رويدًا عبر المقعد في اتجاه طرَفِها البعيد. كان قد بلغ وجهته المقصودة لتوِّه حين اختتم السيد لوريمر مرافعته، وما إن جلس المستشار وبدأت التجهيزات لقراءة الإفادات الموثقة، حتى رأيتُه ينهض بعد أن نظر إلى

الوقت في ساعته الضخمة الموروثة عن أسلافه في لهفة، ويتسلَّل بهدوء تجاه الباب الدوَّار ويختفي في صمت. لذا بدا أن غرضَه من حضور جلسة الاستماع، أيًّا كان، قد تحقَّق.

كانت أولى الإفادات الموثَّقة التي قُرِئَت هي إفادةَ توم بيدلي، ولما كانت تسرد جميع الوقائع المهمة، لم أُدرِك تمامًا سببَ طلب ثورندايك حضورَه من أجل الاستجواب. كما أن زميلي لم يستخلص منه أيَّ وقائعَ جديدةٍ ذاتِ أهمية. كان واضحًا أن غايته كانت التشديدَ على أهمية تلك الوقائع التي سرَدَها، وهو ما حقَّقه على أكمل وجه.

ابتدأ حديثَه قائلًا: «لقد ذكرتَ يا سيد بيدلي أنك كنت على صلةٍ وطيدة بالسيدة شيلر لمدة خمسة أشهر تقريبًا. خلال ذلك الوقت، هل عرَفت الكثير عن ماضيها ومحالِّ إقامتها السابقة وأصدقائها وأقربائها؟»

أجاب بيدلي: «كلا. لم تُشِر من قريبٍ أو بعيدٍ إلى ماضيها، ولم تذكر قطُّ أيًّا من أصدقائها أو أقربائها عدا زوجها الذي لم تُشِر إليه إلا مرةً أو مرتَين وباقتِضاب شديد.»

«هل تستطيع التعرُّفَ على خطِّ يدها؟»

«كلا. لم أرَ أي شيء مكتوبٍ بخط يدها قط.»

«لكن ماذا عن التوقيع على لوحاتها؟»

«لم تكن تُوقِّعها. بل كانت تستخدم رمزًا يُشبه زهرة.»

«هل سبق أن رأيت أيَّ صورة شخصية لها أو لزوجها؟»

«لم أرَ قط صورةً شخصية لزوجها، والصورة الوحيدة التي رأيتها لها هي تلك التي رسمَتْها هي من أجل تصغيرها ووضعها داخلَ قلادة أهدَتْها إلى السيد فاندربوي.»

«هل كان السيد فاندربوي راضيًا عن الصورة الشخصية التي رسمَتها لنفسها؟»

«كلا. لقد توسَّل إليها أن تسمح لي برسم صورة لها أو أن تطلب من السيد بولتون أن يلتقطَ صورةً فوتوغرافية لها. لكنها رفضَت رفضًا قاطعًا. وأصرَّت أن ترسم الصورةَ الشخصية بنفسها، وهكذا فعلَت.»

«هل كانت الصورة الشخصية التي رسمتها تُشبهها كثيرًا؟»

«لم تكن تُشبهها على الإطلاق. لم يكن ثَم أيُّ وجهِ شبهٍ بينهما.»

سأله ثورندايك وهو يُناول صورة فوتوغرافية مثبَّتة في إطار، إلى الحاجب، الذي مرَّرها بدوره إلى الشاهد: «هل تعرف هذه؟»

أجاب بيدلي بابتسامة خفيفة: «أجل. إنها صورةٌ فوتوغرافية للصورة الشخصية التي رسمتها السيدة شيلر لنفسها.»

«وهل تعرف هذه القلادة؟»

وأثناء حديثه، أخرج ثورندايك من الحقيبة الشريحةَ الغامضة التي صنعَها بولتون، التي ثُبِّتَت عليها قِلادة فاندربوي مفتوحة بواسطة مشبك لإظهار الصورة المصغَّرة والشعر مع عدستَين مكبِّرتين؛ واحدة مسلَّطة على الصورة الشخصية والأخرى (من نوع كودينجتون) على الشعر.

أجاب بيدلي بعد أن ناوله الحاجبُ إياها: «أجل، إنها قلادة السيد فاندربوي، وبداخلها الصورةُ التي رسمَتها السيدة شيلر لنفسها وعينة من شعرها.»

حينئذٍ مُرِّرَت القِلادة والصورة الفوتوغرافية إلى القاضي، الذي نظَر أولًا إلى الصورة وارتسمت على وجهه ابتسامةٌ عريضة، ثم نظر عبر العدسة إلى الصورة المصغَّرة وقارَنها بالصورة الفوتوغرافية.

عقَّب قائلًا: «أجل، بإمكان المرء أن يجزمَ بسهولة أن الصورة لا تُشبهها، إلا إن كانت الموصية امرأةً ذاتَ شكل غير عادي.» وقبل أن يُعيد «الحِرْز»، قرَّب عينه إلى العدسة الأخرى وفحص الشعرة. ثم التفت بغتةً إلى بيدلي وسأله:

«هل كان ثمة أيُّ شيء غريب أو مميز في شعر السيدة شيلر؟»

جاءه الرد: «أجل يا سيدي، لكني لا أستطيع تحديده على وجه الدقة. بدا لي أن خامته لم تكن عادية.»

قال القاضي: «ها! هذا ما أراه. لكن ...»

في تلك اللحظة ناول القلادةَ للحاجب، وبينما كان ذلك الأخير يأخذها إلى السيد لوريمر، بدا أنه يتأمَّل هذه الواقعة وكأنما أوحَت إليه بفكرةٍ ما. على الجانب الآخَر، لم يُبدِ لوريمر أيَّ اهتمام على الإطلاق، بل ألقى نظرةً متعجِّلة على الحِرزَين ثم دفع بهما على الطاولة إلى ثورندايك الذي مرَّرهما إلي. بطبيعة الحال، فحصتُه باهتمام شديد، مستحضرًا وصفَ بيدلي لشعر لوتا، لكن الإضاءة لم تكن جيدةً بما يكفي، ولم يكن التكبير كافيًا لإيضاح الكثير من التفاصيل. كل ما تمكنتُ من رؤيته هو شعر مرقَّط لا يُشبه على الإطلاق الشعرَ البشري العادي. على مضض، أعدتُ الحِرزَين إلى ثورندايك، الذي أعادهما إلى الحقيبة قبل أن يُتابع استجوابه للشاهد.

«بخلاف تلك الصورة للسيدة شيلر، هل رأيت أيَّ صورة شخصية لها على الإطلاق؟»

«ليست صورة شخصية مرسومة من الواقع. فقد رسمتُ لها صورة شخصية ذاتَ مرة من الذاكرة.»

سأله ثورندايك وهو يُناول الحاجب دفتر ملاحظات بيدلي وقد ثُبِّت مفتوحًا برِباط مطَّاطي، وصورة فوتوغرافية: «أهذه هي الصورة التي رسمتَها؟»

نظر بيدلي إليهما بابتسامةٍ خَجْلى ثم أجاب:

«أجل. الرسم الأصلي في الدفتر، وهذه صورة فوتوغرافية لها.»

«هل الصورة الشخصية تُشبهها كثيرًا؟»

«يسَعُني القول إن الشبه قريبٌ إلى حدٍّ كبير. أعتقد أن أي شخص كان يعرفها سيتعرَّف على هذه الصورة.»

مُرِّر الدفتر والصورة الفوتوغرافية إلى القاضي، الذي فحصَهما باهتمامٍ واضح، ومنه انتقلا إلى لوريمر، الذي نظر إليهما سريعًا بازدراء، ثم دفع بهما إلى ثورندايك. من الواضح أن المستشار الموقَّر كان ينظر إلى ما يقوم به زميلي باعتباره إهدارًا مؤسِفًا للوقت، ولم يُخفِ ارتياحه عندما جلس ثورندايك معلنًا انتهاءَ استجوابه للشاهد.

لما لم يُبدِ لوريمر أيَّ بادرة لإعادة استجواب الشاهد، ولم يتبقَّ على موعد الغداء سوى بضعِ دقائق، أعلن القاضي رفع الجلسة؛ عندئذٍ وقَفْنا جميعًا، ثم خرج سيادته بخطواتٍ رشيقة من بابه الخاص، وأسرع بولتون ليُمسك بالحقيبة، وتدفق الحضور إلى الخارج من الباب الدوَّار. تبعناهم على الفور تقريبًا، وبعد أن خرجنا إلى شارع ستراند، انطلقنا عائدين إلى مسكننا عبر شارع ديفيرو كورت.

الفصل الخامس عشر

السيد لوريمر يعترض

عندما دنَوْنا من نهاية شارع كراون أوفيس رو، لاحظتُ باهتمام، لكن دونَ دهشة، رجلًا ريفيَّ المظهر بدا أنه يتطلع بتأنٍّ إلى المنازل القديمة بشارع كينجز بينش ووك. غنيٌّ عن القول إنه كان السيدَ سنوبر، الذي من الواضح أنه لم يلحَظْ وجودنا حتى دنا منه ثورندايك بأقصى ما بوُسعه من حماسةٍ وبادرَه بالكلام. حينئذ التفتَ مُجفِلًا في دهشة، ثم سار وزميلي على غير هدًى في شارع كينجز بينش ووك، وبدا أنهما منهمِكان في حديث جاد. أبطأتُ الخطى كي أُراقبهما؛ إذ كان الفضول بشأن ما كان يفعله سنوبر في المحكمة يلتهمُني. لكن لم يكن ثَمة الكثيرُ لأراه أو أسمعَه؛ إذ لم يكن أيٌّ منهما معتادًا على رفع صوته، وكانا قد اقتربا من طرَف الشارع الكائن فيه الحديقةُ قبل أن يبدرَ عنهما أيُّ فعل ظاهرٍ للعيان. حينئذٍ أعتقد أني رأيتُ سنوبر يُناول شيئًا ما لثورندايك، لكني لم أستطع تبيُّنَ ماهيته، ولما اختفى في الحال داخلَ جيب صديقي، أيقنت أنه لا أمل لي في رؤيته، على الأقل في الوقت الراهن؛ فتركت أمرَ التجسُّس عليهما وأسرعت إلى الداخل طلبًا للغداء.

بينما كان نائب بولتون يُعِد المائدة، وكان يَهمُّ حينها بإحضار الطعام، جلستُ في انتظار وصول ثورندايك؛ لكنه حين تطلَّع إلى داخل الغرفة بعد بضعِ دقائق، لم يفعل ذلك إلا ليطلب مني أن أبدأ وجبتي في غيابه.

قال موضحًا: «لديَّ مهمة بسيطة أُجْريها في المعمل. لن تستغرق سوى بضعِ دقائق، لكن لا داعي لأن تنتظرَني.»

وهكذا، ولأنَّه كان يجب أن نعود إلى المحكمة في الموعد المحدَّد تمامًا، رفعتُ الغِطاء وبدأتُ في تناول طعامي، لكن في غضون أقلَّ من خمس دقائق انضمَّ إليَّ ثورندايك، وحين نظرتُ إليه بإمعان، بدا لي أني رأيتُ وراء جمودِ وجهه المعتاد أماراتِ الرضا بل والنَّشْوة،

مما أوحى بأن «مهمته البسيطة» كُلِّلَت بالنجاح. أثار ذلك لديَّ تكهُّنات حول طبيعة تلك المهمة البسيطة، وبخاصة ما إذا كان لها أيُّ صلةٍ بنشاطات السيد سنوبر. لكني بالطبع لم أطرح أيَّ أسئلة، وبالطبع أيضًا لم يتطوَّعْ هو بالإدلاء بأيِّ معلومات.

حين انعقدَت جلسة الاستماع مجددًا بعد الغَداء، نهض السيد لوريمر كي يطلبَ سماع أقوال الآنسة ليندا دالتون أولًا؛ كي تتمكَّن من اللَّحاق بالقطار، ولم يُبدِ القاضي أي اعتراض، فاعتلَت منصةَ الشهود وقُرِئت إفادتها الموثقة. كان أغلبها يتعلَّق بتأكيد حقِّها في الوصية، لكنها انتهت بتصريحٍ بأنها رأت لوتا شيلر آخِرَ مرة في مطلع شهر يوليو من عام ١٩٣٠م، ومنذ ذلك الحين، لم تتلقَّ منها أي خطابات أو تعرِفْ أيَّ شيء عنها حتى سمعت باختفائها.

بعد انتهاء القراءة، نهض ثورندايك لاستجوابها.

«هل تذكُرين الثوب الذي كانت الموصية ترتديه حين رأيتِها آخرَ مرة؟»

ابتسمت الآنسة دالتون. ثم أجابته قائلة: «أجل بالطبع. كان ثوبًا قبيحًا للغاية وبدا لي شاذًّا بعضَ الشيء. كان لون صِدَارِه وتنورته بنفسَجيًّا باهتًا، وله ياقة مطويَّة عريضة لونها برتقالي داكن، وكُمَّان باللون نفسِه. كان ثوبًا لا يُمكن نسيانُه.»

«هل كانت الموصية تُجيد العزف على أيِّ آلة موسيقية؟»

«أجل. كانت تعزف الكمان.»

«هل كانت تقضي وقتًا طويلًا في ممارسة العزف؟»

«كانت تفعل في الفترة الأخيرة. كانت أختي باربرا تكسب دخلًا بسيطًا من العزف في فرقة موسيقية صغيرة — في دارٍ للسينما حسَبما أعتقد — وساعدَت لوتا في الحصول على وظيفة في المكان نفسِه، فكانتا تتمرَّنان معًا، وبالطبع كانت تعزف لبضعِ ساعات كلَّ يوم مع الفرقة الموسيقية.»

«بالطبع تذكرين شكلها جيدًا. هلا نظرتِ إلى هذه الصورة الشخصية وأخبرتِني ما إذا كنتِ ترَين أنها تُشبهها؟» وبينما كان يتحدث، ناول الحاجبَ صورة فوتوغرافية رأيتُ أنها لرسم بيدلي.

نظرَت إليها الآنسة دالتون نظرةً خلَت من أي تعبير.

سألته: «أيُفترَض أن تلك صورة شخصية للوتا؟ لا أظن أنها يمكن أن تكون كذلك. فلا أرى أدنى شبهٍ بينها وبين لوتا.»

استرَقتُ النظر إلى لوريمر، فظننتُ أني لمحت ابتسامة باهتة على وجهه. على الجانب الآخر، بدَت الدهشة والاهتمام البالغان على القاضي، وحين مُرِّرَت إليه الصورة الفوتوغرافية نظر إليها بإمعان، وقلبها كي يفحص ظهرها الذي دُوِّن عليه بالقلم الرصاص رقم، ثم كتب ملاحظة.

في تلك الأثناء، أخرج ثورندايك حافظةَ صور صغيرةً ناولها إلى الشاهدة.

قال لها: «داخل تلك الحافظة، ستجدين ستَّ صور فوتوغرافية. هلا نظرتِ إليها لترَيْ ما إذا كان أيٌّ منها تُشبه لوتا شيلر؟»

ألقَت الآنسة دالتون نظرة سريعة على أول صورتَين وقعتا تحت يدها، لكن عندما وصلت إلى الثالثة توقفت. ثم أخرجتها وقالت:

«هذه صورة شخصية للوتا شيلر؛ هي صورة غريبة جدًّا لكنها تُشبهها تمامًا»، ثم أردفَت وقد أخرجَت صورة أخرى ورفعتها: «وهذه أيضًا.»

«إذن ليس لديك أدنى شكٍّ في أن هاتَين الصورتين هما للوتا شيلر؟»

«ليس لديَّ أيُّ شك على الإطلاق. كلاهما لا تُخطئها عين.»

بعدئذٍ مُرِّرَت الصورتان إلى القاضي الذي عاينَهما باهتمام شديد وقارنهما بدقةٍ برسم بيدلي. وبعد أن نظر إلى ظهرَيهما ودوَّن ملاحظاته، مررهما إلى مَن يليه، لكنه بدا لا يزال مستغرقًا في التفكير في شيءٍ من الحيرة، وحين وصلَت الصور إليَّ، فهمتُ سبب دهشته؛ إذ كان الاختلاف بين الرسم والصورة الفوتوغرافية لا يُعقَل في حالة فنَّان كُفء مثل بيدلي. لكن لم يكن ثَمة وقتٌ للتفكير في الأمر؛ فقد كان ثورندايك قد انتهى من استجوابه، وبعدها بدقيقة غادرَت الآنسة دالتون منصة الشهود وبعد أن لوَّحَت للسيد شيلر مودِّعة، غادرت قاعة المحكمة بخُطًى سريعة.

كانت الشاهدة التالية هي السيدة ميتشنز، التي أوضحَت إفادتُها الموثقة بإيجازٍ الوقائعَ المعروفة لديها ذاتَ الصلة بالقضية بدءًا من يوم ١٦ يوليو عام ١٩٣٠م، حين أجَّرَت لوتا الغرفَ السكنية بمنزلها، حتى وقتِ اختفائها، بما فيها العثور على جثة إيما روبي. بعد الانتهاء من قراءة إفادتها، نهض ثورندايك وبدأ استجوابه بسؤالها:

«هل ستُميزين خط يد السيدة شيلر إن رأيتِه؟»

كانت إجابتها: «كلا. فأنا لم أر خطَّ يدها قط؛ لم يكن ثمة حاجةٌ إلى أن تُراسلني — على الأقل لم تفعل قط — وكانت تدفع إيجارها نقدًا، فلم تكتب لي شيكات.»

«هل كانت تعزف أيَّ آلة موسيقية؟»

«كلا، لم تعزف قط، لكنها كانت تملك كمانًا. لم أعرف بذلك إلا بعد أن غادرَت، لكن بينما كنت أفحص أغراضها حينئذٍ كي أخزنها، وجدتُه تحت السرير.»

«بينما كنت تفحصين أغراضها، هل وجدتِ ثوبًا له صِدَار وتنورة لونهما بنفسَجي وكمَّان لونهما برتقالي وياقة عريضة باللون نفسه؟»

«بالطبع لا يا سيدي؛ ولا أظن أن السيدة شيلر كانت لترتديَ ثوبًا كهذا. فجميع أزياءها كانت عادةً ذاتَ ألوان هادئة وأنيقة. لكني لم أجد سوى بضعة أثواب وأنا متيقنة أنه لم يكن بينها ثوبٌ بتلك المواصفات.»

«حين استأجرَت السيدة شيلر الغرفَ السكنية منك، هل أعطتك أيَّ خطابات توصية؟»

«كلا. لقد دفعت إيجار شهر مقدمًا نقدًا.»

حينئذٍ، أخرج ثورندايك حافظةَ الصور مرة أخرى، وبعد أن تناولَته الشاهدة قال:

«أريد منك أن تنظري إلى تلك الصور الشخصية لترَي إن كنتِ ستجدين بينها صورة تعتقدين أنها تُشبه السيدة شيلر.»

قلبت السيدة شيلر الصورتَين الأُوليَين، وعندما وصلت إلى الثالثة، أخرجَتها ورفعت يدها بها في ابتهاجِ مَن ظفر بشيءٍ ثمين وقالت:

«تلك هي السيدة شيلر.»

مدَّ القاضي، الذي كان يُراقب الأمر بشغف، يده ليأخذ الصورة التي تعرفت عليها؛ وحين وصلت إليه، نظر إليها باهتمام بالغ، ثم مال ناحية الشاهدة وقال:

«هل أنت واثقة تمامًا يا سيدة ميتشنز أن تلك الصورة تُشبه السيدة شيلر حقًّا؟»

أجابته: «واثقة تمامًا يا سيدي. إنها صورة طبق الأصل منها.»

عندئذٍ دوَّن سيادته ملاحظةً على هذه الصورة، ثم طلب إحضار الحافظة إليه. حين وصلته، التقط صورتَين فوتوغرافيتين ومررهما إلى الشاهدة.

سألها: «هل نظرتِ إلى هاتين الصورتين؟»

أجابته: «أجل يا سيدي، لكنهما ليستا للسيدة شيلر. فهما لا يُشبِهانها على الإطلاق.»

سجَّل القاضي إجابتها، وبعد أن أعاد الحافظة، أومأ برأسه إلى ثورندايك الذي طرح سؤاله الأخير.

«هل استقبلَت السيدة شيلر أيَّ زوار؟»

«لم يزُرْها سوى السيد بيدلي والسيد فاندربوي. لم أرَ سواهما.»

بعد ذلك، جلس ثورندايك، وبعد أن غادرَت السيدة ميتشنز منصة الشهود، نُودي اسمُ الشاهدة التالية — السيدة بيجهام — فتقدمَت امرأة بلا أي جاذبية تمامًا بشيء من الاختيال. كانت الأقوال المضمَّنة في إفادتها الموثقة مهمةً بعضَ الشيء فيما يتعلق بواقعة الاختفاء، لكن حين تعلق الأمر بالاستجواب، التزمَ ثورندايك بمسألة التعرُّف على الهوية. فأخرج الحافظة المحتومة ومررها إليها وسألها:

«تقولين إنكِ كنتِ تعرفين السيدة شيلر جيدًا شكلًا؛ هل تظنين أنك تستطيعين التعرفَ على صورة شخصية لها؟»

«أنا واثقة تمامًا من أنني سأتعرف عليها. فأنا أمتلك ذاكرةً استثنائية للوجوه.»

«إذن هلَّا نظرتِ إلى الصور في تلك الحافظة وأخبرتِني إن كان أيٌّ منها تبدو لك أنها صورة للسيدة شيلر؟»

فتحَت السيدة بيجهام الحافظةَ بتحفُّز، ونظرَت بإمعان إلى الصورة الأولى وقد زمَّت شفتَيها ثم تركَتها وقالت معلقة: «تلك ليست هي»، ثم انتقلت إلى الصورة التالية، التي تعاملَت معها بالطريقة نفسِها، وكذلك الصور التي تلَتْها، حتى وصلت إلى الصورة الخامسة، التي حدقت فيها بشدة لبُرهة ثم أخرجتها ورفعتها عاليًا وقد جعلَت وجهها مُقابلًا لنا، وصاحت قائلة: «تلك هي.»

أدركتُ أنها نسخة من الصورة التي رسمَها لها بيدلي، وكذلك فعَل القاضي، الذي أصغى إلى السؤال التالي بانتباهٍ مستغرق.

«هل أنت واثقة تمامًا أن تلك الصورة تُشبه السيدة شيلر حقًّا؟»

أجابته: «يا إلهي! أجل. إنها صورةٌ طبق الأصل منها. لقد عرَفتُها من أول نظرة.»

«ثمة صورتان أُخرَيان أريدكِ أن تنظري إليهما بعناية شديدة. إنهما مُرقَّمتان بالرقمين ثلاثة وأربعة.»

قلَّبَت الشاهدة بين الصور والتقطت اثنتَين منهما رفعَتهما أمامنا وأمام القاضي. كانتا الصورتَين الشخصيتين اللتين تعرفَت عليهما الآنسة دالتون.

قالت السيدة بيجهام: «إن كنتَ تعني هاتين الصورتين، فأستطيع القول إنهما ليستا للسيدة شيلر. إنهما لا يُشبهانها على الإطلاق.»

«هل أنت متأكدة تمامًا من ذلك؟»

«متأكدة تمامًا. إنهما يُشبهانها بقدرِ ما أُشبهها أنا.» بدا أن ثورندايك قد قنَع بتلك الإجابة؛ إذ لم يطرح أيَّ أسئلة أخرى، وبعد أن جلس، وغادرت السيدة بيجهام منصة

الشهود — على مضضٍ حسب ظني — انتظرت الفقرة التالية بشيء من الاهتمام، لكنها حين أَتَت، لم تكن مفاجئة بالكلية. فمنذ بعض الوقت، كنت قد لاحظتُ أمارات الضيق على المستشار الموقَّر للمدَّعية، ولم يُفاجئني ذلك. فقد انتابني شعورٌ قلِق بأن ثورندايك كان قد خرج قليلًا عن أصول الآداب القانونية. كان من الواضح أن ذلك هو ما رآه السيد لوريمر، وقد أفصح عنه الآن.

ابتدأ حديثه قائلًا: «لا أودُّ يا سيدي أن أتسبب في تعطيل جلسة الاستماع، لكن يبدو أنَّ ثَمة حيادًا عن الإجراءات المعهودة من جهة الخَصم، أشعر أني مُلزَم بالاعتراض عليه. أرى أن صديقي الموقر يُثير معضلة جديدة بالكلية، لم نكن على دراية بها، ويَعرِض مستنداتٍ تدعمه — أعني الصور الفوتوغرافية — لم يُعلِمنا بوجودها.»

وافقه القاضي بابتسامة قائلًا: «لا شكَّ أن المستشار الموقر قد فجَّر لنا مفاجأة صغيرة.»

وهنا التفتَ بنظرةٍ تحمل شيئًا من التساؤل إلى ثورندايك، الذي نهض للرد عليه.

«لا أُنكر يا سيدي القاضي أني أَدين لزميلي الموقَّر ببعض الاعتذار، لكني أُقِر بأن إثارةَ إشكاليةٍ جديدة هو الظاهر فقط. فهذه القضية تنطوي في الواقع على إشكاليتَين؛ أما الأولى فهي ما إذا كانت السيدة المعروفة باسم لوتا شيلر، التي اختفَت في غابة إيبنج، من المفترض أنها متوفَّاة أم لا؛ والأخرى هي ما إذا كانت تلك السيدة هي الموصية. لقد افترَضْنا جميعًا أن لوتا شيلر التي كانت تقطن بشارع جيكوب هي نفسُها لوتا شيلر الموصية. فلم يَبدُ أن ثمة ما يدعو إلى التشكيك في هُويَّتها. مع ذلك، رأيت، زيادةً في الاحتياط، أنه من الأحرى أن أختبرَ صحة افتراضنا ذاك؛ فكانت النتيجةُ غير المتوقعة هي أنه يبدو الآن أن ثَمة بعضَ الشك في أننا نتعامل مع شخصيتَين مختلفتين.»

ابتسم كلٌّ من لوريمر والقاضي ابتسامةَ إعجاب بمراوغته العبقرية، وردَّ سيادة القاضي قائلًا:

«هذا صحيحٌ تمامًا، مع أنه لا يرد اعتراض المستشار الموقر. لكن مسألة الهُوية أُثيرت بالفعل، وبالطبع كان يجب حسمُها قبل النظر في المسألة الأخرى. لذا فالسؤال الآن هو، ماذا عسانا أن نفعل بشأنها؟ لقد ذكرتَ في مرافعتك الافتتاحية أنك ربما تطلب التأجيلَ للسماح لك بتقديم إفاداتٍ خَطية أو استدعاء شهود. فهل تنوي طلب التأجيل الآن؟»

أجاب ثورندايك قائلًا: «أعتقد يا سيادة القاضي أنه في ضوء تضارُبِ أقوال الشهود، نحن بحاجة إلى شهادات جديدة، وأنا أرغب في استدعاء شهود؛ لكن لأن أولئك الشهودَ

سيتعيَّن عليهم الحضورُ للاستجواب، فأنا لا أرى داعيًا إلى تقديم إفاداتهم الموثقة؛ إذ سيُوفر عدمُ تقديمها الوقتَ. نحن الآن على مشارف عطلة نهاية الأسبوع، وأعتقد أن سيادتك ستُوافق على ذلك وأن زميلي الموقر سيتَّفق معي، وبإمكاننا أن نجتمع أنا وهو خلال تلك الفترة وهكذا نتجنب الحاجة إلى التأجيل.»

بدا القاضي مرتابًا بعضَ الشيء من هذا الاقتراح، لكن لما أبدى لوريمر موافقته عليه، وكان من الواضح أنه يتعجَّل المضيَّ قُدمًا في تلك القضية، وافق سيادته على ذلك الاتفاق ورفع الجلسة إلى حينِ انقضاء عطلة نهاية الأسبوع.

لما رُفِعت الجلسة، التفت لوريمر إلى ثورندايك وتحدث إليه بصوتٍ خافت. ثم سارا معًا إلى طاولة المحامين، وخاضا نقاشًا قصيرًا مع تيرنر ولونجفيلد، وعادا بعدها، ثم انطلقنا معًا باتجاه تيمبل.

قال ثورندايك: «لقد رتَّبنا أمر الاجتماع. يُفضِّل المحاميان أن يتركا لنا نحن المستشارين ترتيبَ الأمر؛ لذا سنتناول الغداء أنا ولوريمر معًا ثم نجتمع في مسكنه لأجل التناقُشِ في الأمر. بهذا سنكون بلا أيِّ مشاغل خلال عطلة نهاية الأسبوع.»

وعلى ذلك، بعدما خلَع باروكته وعباءته، انطلق مع خَصمه الموقر ولم أرَه ثانية حتى الساعة الحادية عشرة تقريبًا، حين عاد إلى مسكننا في مِزاج جيد اتضحَت أماراته عليه.

سألته: «كيف سارت الأمور مع لوريمر إذن؟»

أجاب: «على نحو جيد جدًّا. إنه رجل عقلاني جدًّا ولم أُواجه صعوبةً في إقناعه بوجهة نظري. اضطُرِرت إلى إخباره بأكثرَ مما وددت، لكن بما أننا كنا بمفردنا، فلا يُهم.»

«وعلامَ اتفقتما؟»

«اتفقنا على النظر في أمر الهُوية كقضية مستقلةٍ يجب التوصلُ إلى حسمها على نحوٍ قاطع قبل الانتقال إلى القضية الأساسية. أفهمتُه أنه أيًّا ما كانت النتيجة، فلن يكون لها تأثيرٌ على قضيته.»

صحت متعجبًا: «حقًّا! أود أن تُفهمني أنا أيضًا ذلك. فأنا أرى أنه حالَ ثبوت ادِّعائك بأنهما شخصيتان مختلفتان، ستنهار قضيتُه على الفور.»

نظر إليَّ بابتسامة حانقة. «أتدري يا جيرفيز، سببُ ذلك هو أنك لم تتَقصَّ الأدلة في هذه القضية، ولم تُعمِل الفِكر بما يكفي في دلالتها. قلِّبِ الأمر في رأسك من الآن وحتى الاثنين القادم وانظر إن كان باستطاعتك أن تتوقَّع المفاجأة التي أنوي الكشفَ عنها في الجلسة القادمة.»

اضطُرِرت إلى الاكتفاء بذلك التلميح المسيلِ للُّعاب. بالطبع، لم أتكبَّد عناء «تقليب الأمر في رأسي». فقد أدركتُ أن بولتون كان محقًّا كالعادة. فمكائد ثورندايك الشيطانيةُ التي كان يَحيكها خلف باب معمله كانت بمثابةِ تمهيد «لمفاجأة صغيرةٍ لشخصٍ ما»، وأنني سأكون أحدَ المتفاجئين.

الفصل السادس عشر

المفتش ميلر يتدخل

لا أعرف جيدًا ما جرى خلال عطلة نهاية الأسبوع. فقد قضى ثورندايك يوم السبت في أغلبه خارجَ المنزل، وافترضتُ أنه يُتمم ترتيباته النهائية؛ وهو افتراض أكدَته رسالة هاتفية جاءت في وقتٍ متأخر من المفتش ميلر يطلب مني «إبلاغ الدكتور بأن الآنسة ريندل تلقَّت الإخطار، وأنها ستحضر جلسة المحكمة يوم الاثنين.» لم أعرف مَن عساها تكون الآنسة ريندل، ولم أسأل. فحينئذٍ كان فضولي معطلًا مؤقتًا.

لكني عرَفت معلومة صغيرة. فحين عثرتُ على بولتون في المعمل ليس لديه ما يفعله، لُمتُه مداعبًا بشأن ساعة السيد سنوبر، التي أشرتُ إلى أنها عار على مؤسسة تضمُّ بين موظفيها حِرْفيًّا من الطراز الأول. وأنهيتُ حديثي قائلًا: «أعتقد حقًّا أنه كان عليك أن تُعطيَه شيئًا ليس عتيقًا إلى ذلك الحد؛ مراعاةً لسمعة المكتب. فقط اجعله يُريك إياها.»

نظر لي بولتون بابتسامة خبيثة وعريضة. «لقد رأيتُها يا سيدي؛ في الواقع، أنا مَن صنَعتها. لكنها ليست ساعة، مع أن لها عقاربَ يمكن ضبطُ الوقت منها مراعاةً للشكل. هي في الحقيقة كاميرا؛ لكن السيد سنوبر يحمل ساعته في جزء آخرَ من الجيب نفسِه.»

صِحت مندهشًا: «كاميرا! لكن لا يُمكن أن تكون أكثرَ من مجرد لعبة.»

قال بولتون معترفًا: «حسنًا، هي ليست كاميرا فعليَّة؛ بل مجرد بديلٍ مؤقَّت. لكنها تفي بغرض السيد سنوبر؛ إذ بالإمكان استخدامُها في أيِّ مكان دون أن يُلاحظ أحد، وصورة فوتوغرافية رديئة بالنسبة له أفضلُ من عدمِها. إنها بمثابة توثيقٍ كما تعلم يا سيدي.»

«وأيَّ نوع من الصور تلتقط؟»

«أفضلَ مما تتصوَّر يا سيدي. حجمُ صورتها السلبية نصف بوصة في خمسة أثمان بوصة، ويُمكن تكبيرُها حتى أربع بوصات في خمس بوصات. فلها عدسةٌ رائعة صغيرة ووضوحُها مثالي. ربما تودُّ أن تراها. لقد أحضرتها من أجل إعادة شحنها.»

أخرجَ الساعة الضخمة المضلَّلة من أحد الأدراج وأراني إياها بزهوٍ مُبرَّر؛ إذ كانت معجزة تُبرهن على براعته في منظومة تغيير الفيلم التي كانت تضبط أيضًا الغالق، وكذلك منظومة لضبط العقارب. لكن كان الأكثر إثارة للدهشة هو صورها السلبيَّة المتناهية الصغر، والواضحة إلى حدٍّ دقيق، التي أطلعَني بولتون عليها أيضًا، والنسَخ المكبَّرة الواضحة والرائعة منها، التي جعلَتني أنظر إلى الساعة وصانعها نظرةَ احترام جديدة.

قضى ثورندايك معظم اليوم التالي في معمله الخاص، يُجري حسب ظني بعض التحضيرات الأخيرة لاستئناف جلسة الاستماع. لكن لم يكن لديَّ أدنى فكرة عن طبيعتها، ولم أُحاول تخمينها. فقد تخلَّيت عن محاولة حلِّ ذلك اللغز، واحتفظتُ بفضولي من أجل الكشف الموعود في اليوم التالي.

على ما يبدو أني لم أكُن الوحيدَ الذي اتخذ هذا الموقف؛ فحين اتخذنا مقاعدَنا بقاعة المحكمة صباحَ يوم الاثنين، استشففتُ في السيد لوريمر ترقبًا حَثيثًا؛ وما إن اتخذ القاضي مقعدَه حتى نظر إلى مستشار المدَّعية بفضولٍ واضح؛ فنهض لوريمر كي يُدلِيَ بما لديه.

«كنتُ قد اجتمعت مع زميلي الموقر خلال عطلة نهاية الأسبوع واتفقنا، بعد موافقة سيادتك، أن نُعامل مسألة الهوية باعتبارها مسألةً منفصلة يجب حسمُها قبل سماع أيِّ شهادات أخرى بشأن المسألة الرئيسية.»

قال القاضي: «أرى أن تلك خطوةٌ منطقية. فمن البدهيِّ أنه لن يكون ثَمة طائلٌ من النظر في أمر افتراض الوفاة حتى نعلمَ هُوية الشخص المُلتَمَس افتراضُ وفاته. هل لديك أيُّ شهود جدد؟»

«أجل يا سيدي. أطلب استدعاء السيد كارل شيلر، زوجَ الموصية، الذي قُدِّمَت إفادته الموثقة. وبعد أن يُدلي بشهادته، ونظرًا إلى عدم توفر شهودٍ آخَرين لديَّ بشأن مسألة الهوية، اتفقتُ أنا وزميلي الموقر بعد موافقة سيادتك على عرض شهادته في أسرع وقت.»

أومأ القاضي برأسه، فاعتلى السيد شيلر منصة الشهود ووقف يُصغي بإمعانٍ أثناءَ تلاوة إفادته. كانت قصيرةً جدًّا، ولم يَرِد فيها سوى أنه لم يرَ زوجته أو يَرِدْه منها أو عنها خبرٌ منذ أكثرَ من ثلاث سنوات، وأنه لا يعلم إن كانت حيةً أم ميتة. حين انتهت القراءة، أخذ لوريمر حافظةَ الصور التي ناوله إياها ثورندايك، وأعطاها للشاهد.

قال: «ثمة بعضُ التضارب في الأقوال بشأن أيٍّ من الصور الموجودة في تلك الحافظة هي صورةٌ حقيقية لزوجتك. هلا تفضَّلت بالنظر إليها لترى ما إذا كان بإمكانك أن تحسم لنا تلك المسألة؟»

فتح السيد شيلر الحافظةَ ونظر بمنهجية إلى كامل محتوياتها، وكانت سبعَ أو ثمانيَ صورٍ فوتوغرافية. وبعد أن نظَر إلى الصور كلِّها، اختار واحدة ورفع يده بها كي نراها؛ فرأيت أنها رسمةٌ بيدلي، أو بالأحرى نسخةٌ منها.

قال متحدثًا بلكنة ألمانية ملحوظة: «تلك الوحيدة التي تبدو لي أنها تُشبه زوجتي، بل وتشبهها إلى حدٍّ كبير جدًّا. أما الصور الأخرى فلا أعرفها على الإطلاق.»

فوجئتُ كثيرًا، وكذلك القاضي حسَبما رأيت؛ إذ تتعارض شهادةُ شيلر تعارضًا مباشرًا مع شهادة الآنسة دالتون (التي لم تكن حاضرة حينها). لكن لم يكن ثمة ما يُقال بعد أن نظر الشاهدُ بإمعانٍ إلى مجموعة الصور الفوتوغرافية كاملة، ولما لم يُشكِّك القاضي أو ثورندايك في شهادته، سُمِح للشاهد بمغادرة منصة الشهود وعاد إلى مقعده، أو بالأحرى إلى مقعدٍ في الطرف الأقصى من المقعد، ثم استدعى ثورندايك شاهدتَه الأولى، وتُدعى ماتيلدا وارتون؛ فاعتلَت امرأةٌ عجوزٌ ذات مظهر حسنٍ منصةَ الشهود.

سألها ثورندايك: «ما عُنوانك كاملًا يا سيدة وارتون؟»

«أنا أقطن في ١٦ شارع كوربي، وهو شارع متفرع من طريق لينتون جرين.»

«هل عرَفتِ لوتا شيلر يومًا؟»

«أجل، استأجرَت غرفة سكنية لديَّ لثلاث سنوات.»

«هل كان زوجها يعيش معها؟»

«كلا. كان كثيرَ السفر، لكنه حين يكون في لندن كان يزورها وكانا يخرجان معًا. لكنه لم يُقِم في المنزل قط. أعتقد أنه كان يُقيم في فنادق.»

«كيف كانت علاقتهما؟»

«بدَت لي وُدية جدًّا، بيد أنها لم تكن عاطفية؛ لكن قبل أن تترك المنزل بفترة قصيرة، بدا أنَّ خلافًا ما قد نشب بينهما؛ إذ صارت تصرُّفاتُها غريبة نوعًا ما وبدا أنها تتحاشاه.»

«متى تركَت السكنَ لديك وفي أيِّ ظروف؟»

«ترَكَت السكن لديَّ يوم ١٣ يونيو ١٩٣٠م. خرجَت في الصباح ولم تَعُد؛ لكنها أرسلَت لي برقيةً تُخبرني فيها أنها رحلَت وأنها ستُراسلني. لم تُراسلني قط، لكن بعد بضعةِ أيام، أتى زوجها إلى المنزل وأخبرني أنها تلقَّت فجأة استدعاءً إلى خارج البلاد ولن

تعود قبل بضعة شهور. دفع لي ما كانت تَدين لي به وأخذ متعلقاتها، وكان كمانُها من ضمن هذه المتعلقات. ومنذ ذلك الحينِ لم أرَها أو أسمع عنها شيئًا.»

«هل كان ثمة أيُّ أمر لافتٍ بشأن الطريقة التي غادرت بها؟»

«لقد كانت غريبة نوعًا ما. فلم تذكر أيَّ شيء عن الرحيل قبل خروجها، ولم تأخذ معها شيئًا عدا ما كان عليها من ثياب.»

«خلال فترة إقامتها لديك، هل كانت تستقبلُ زوارًا كُثرًا؟»

«كلا. كانت الآنستان دالتون تمران بها أحيانًا لزيارتها أو اصطحابها للخروج؛ وجاء السيد مونتاجو — ذلك الرجل المسكين الذي قُتِل — لزيارتها أو اصطحابها معه للخروج مرةً أو مرتين.»

في تلك اللحظة فجَّر ثورندايك لي — بل للجميع — أولى مفاجآته؛ إذ أخرج من الحقيبة لوحةً صغيرة بألوان الزيت، أدركتُ أنها رسمٌ لبيدلي رأيته معلقًا على الجدار في غرفة بولتون الخاصة.

قال وهو يُمررها إليها: «أريد منك يا سيدة وارتون أن تُلقي نظرةً على هذه اللوحة وتُخبريني إن كانت الشخصيات الموجودة بها تُذكِّرك بأشخاص بعينهم.»

تفحَّصَت الشاهدةُ اللوحةَ عن كَثب، ثم مدَّتها بطول ذراعها ونظرت إليها.

قالت بحذر: «بالطبع لا أستطيع التعرُّف على أيٍّ من أولئك الأشخاص، لكن المرأة تُشبه السيدة شيلر كثيرًا.»

«تُشبهها من أي جانب؟»

«أعتقد في الثوب في الأغلب. فهو ثوبٌ غريب نوعًا ما والسيدة شيلر كانت تملك واحدًا مثله تمامًا؛ في الواقع كانت ترتدي ذلك الثوبَ عينَه صباحَ اليوم الذي رحلَت فيه. لكنَّ هيئتها العامة تُشبهها أيضًا، وكذلك لون شعرها. لكنه مجرد شَبه. لا أقول إنها هي بالفعل. فكما ترى، ليس ثَمة ملامحُ يُمكن تمييزها بها.»

«وبالنسبة إلى الشخصيتين الأُخريَين؛ هل يُذكِّرانك بأي شخص تعرفينه؟»

نظرت السيدة وارتون إلى اللوحة مرة أخرى بإمعان. وأخيرًا أجابته بنبرةٍ حملَت شيئًا من التردد والشك قائلة:

«إنه مجرد تخمين؛ إذ إنهما يُولِيَانا ظهرَيهما، لكني أعتقد أن الرجل الأطول بينهما يُذكرني بالسيد مونتاجو بعض الشيء. كنت أراه كثيرًا في الشارع، وكان دائمًا يرتدي ثيابًا على ذلك الطِّراز، وكان من عادته أن يُلوح بمِظلَّته أثناء حديثه، مثلما يفعل ذلك الرجل

فيما يبدو؛ ويبدو أن المظلة التي في اللوحة لها مقبضٌ عاجي كمقبض مظلته. كما يبدو أن قامته بالطول نفسِه تقريبًا، مقارنةً بالرجل الآخر. ومع ذلك، لا أدَّعي أن بمقدوري التعرفَ عليه.»

قال ثورندايك: «بالطبع لا تستطيعين، لكن عليَّ أن أُهنِّئك على ذاكرتِك وقوة ملاحظتِك. والآن سأُجرب معكِ شيئًا احتمالُ التيقُّن منه أكبر.»

في تلك اللحظة، أخرج الحافظةَ المعهودة ومرَّرها إليها. وفي الوقت نفسِه، أعطيتُ اللوحة للقاضي، الذي نظر إليها بفُضول قبل أن يُعيدها، ولاحظتُ أن لوريمر قد عاينها باهتمام تجاوز ذلك الاهتمامَ الفاتر الذي يُوليه عادةً للأحراز. لكن الاهتمام الآن كان مُنصبًّا على السيدة وارتون، التي كانت تنظر إلى مجموعة الصور الشخصية بعناية شديدة كما طلَب منها ثورندايك. بعد أن فحصتها جميعًا، اختارت منها اثنتَين بتروٍّ شديد، ورفعَتهما ووَجْهاهُما مقابلانِ لنا، فرأيتُ أنهما الصورتان اللتان تعرَّفَت عليهما الآنسة دالتون.

قالت: «هاتان الصورتان هما للسيدة شيلر. هما لا تُظهرانها بأفضلِ مظهر، لكنهما تُشبهانها إلى حدٍّ كبير جدًّا.»

نظر إليهما القاضي وقد ارتسمَت على وجهه الدهشةُ وشيءٌ من الحيرة، ثم نظر إلى ثورندايك، الذي، بعد أن استعاد الحافظة، أخرج منها رسمَ بيدلي ومرره إلى الشاهدة.

«ماذا عن هذه؟ يُفترض أنها صورة شخصية للسيدة شيلر. فهل تُشبهها كثيرًا؟»

نظرَت إليها الشاهدة بدهشةٍ واضحة. وبعد فحص مطوَّل، أعادتها وهي تهز رأسها نفيًا.

قالت: «لا أظن أنها من الممكن أن تكون للسيدة شيلر. فلا أرى أنها تُشبهها على الإطلاق. تبدو لي امرأةً مختلفة تمامًا.»

بالطبع زاد ذلك من حيرة القاضي؛ إذ طلب إحضارَ الحافظة إليه، وحين وصلته، رصَّ الصور الشخصية الثلاث في صفٍّ على مكتبه وقارنَ بينهم مقارنةً طويلة ودقيقة. لكن مِن الواضح أنه لم يستنتجْ شيئًا منها؛ إذ جمَعها أخيرًا ونظر إلى ثورندايك رافعًا حاجبَيه، ثم أعاد إليه الحافظة.

من بين الوافدين الجدُد إلى قاعة المحكمة، لاحظتُ امرأة شابة ذاتَ مظهر متحفِّظ نوعًا ما، ترتدي زيًّا موحدًا مهندمًا ولائقًا، ذكَّرني بفكرة «الحجز» أو ما كان متعارفًا عليه باسم «السجن». وهو ما تبيَّن لي أنه صحيح؛ فبعد أن غادرَت السيدة وارتون منصةَ

الشهود — إذ لم يجرِ استجوابها من جهة الخَصم — حلَّت مكانَها تلك السيدة، وجلسَت في مواجهة ثورندايك برِباطة جأش مِهْنية، وقدمَت نفسها بأنها الآنسة جوليا ريندل، ضابطةٌ بسجن هولواي. بعد ذلك مباشرة أخرج ثورندايك الحافظة المعهودة؛ لكنه تلك المرة لم يُمررها إلى الشاهدة. بل فتحها وتخيَّر من بين مجموعة الصور الصورتَين اللتين تعرفَت عليهما السيدة وارتون، ثم أرسلهما إلى السيدة كي تُعاينَهما.

سألها: «هل تعرفين هاتين الصورتين يا آنسة ريندل؟»

أجابت دون تردُّد: «أجل. هما نسختان غيرُ مكتمِلتين من صورتين شخصيتين التُقِطتا في السجن لسجينةٍ تُدعى لويزا سوندرز، أو هكذا تُعرَف.»

سألها وهو يُناولها صورتَين أُخريَين أخرجهما من الحقيبة: «وهل تعرفين هاتين؟»

«أجل. إنهما الصورتان الشخصيتان الأصليتان، أو نسختان مطابقتان لهما.»

«هل يُشبهان لويزا سوندرز كثيرًا؟»

«أجل، يُشبهانها للغاية. فقد تعرفتُ عليهما في الحال.»

«متى رأيتِ لويزا سوندرز لأول مرة؟»

«يوم ١٣ يوليو ١٩٣٠م، في سجن الاستقبال المسائي. كان قد أُلقي القبض عليها صباح ذلك اليوم وظلت في الحجز.»

«هل تعلمين أي تفاصيل بشأن التهمة التي أُلقي القبض عليها بسببها؟»

«أجل. لقد رافقتُها، هي وموقوفاتٍ أخريات، إلى محكمة الشرطة وحضرتُ جلسة الاستماع. كانت متهَمةً بتداول ورقة نقدية مزيَّفة فئةَ الجنيهِ الإسترليني وحيازةِ أربع ورقات نقدية مزيفة أخرى.»

«هل كان ردُّها على التهمة «مذنبة» أم «غير مذنبة»؟»

««غير مذنبة». قالت إن تلك الأوراق النقدية أُعطِيَت لها وسط حُزْمة منها وإنها لم تشتبهْ في أنها مزيفة.»

«هل قُدِّم أيُّ دليل يُثبت أنها كانت تعرف أن الأوراق مزيفة؟»

«كلا. الدليل الوحيد الذي قُدِّم ضدها كان يُثبت فحَسْب أنها دفعَت الورقة النقدية المزيفة ثمنًا لبعض المشتريات، وأن الأوراق المزيفة الأخرى كانت بحوزتها. لكن لأنها رفضَت أن تُفسِّر موقفها، أو أن تذكر من أين حصلَت على تلك الأوراق، أو ممن أخذَتها، أُدينَت ونالت حكمًا بالحبس لمدة ستة أشهر.»

«من واقع خبرتك، هل كان ذلك حكمًا معتادًا بالنسبة لذلك الجُرم؟»

«كلا. بل أرى أنه كان حكمًا مخفَّفًا على نحوٍ غير معتاد.»

«هل ذكرت السجينة أيَّ عنوان لها؟»

«كلا. لم تذكر أي تفاصيلَ عن نفسها سوى اسمها.»

«هل كان ثمة ما يُثبت أن لويزا سوندرز هو اسمها الحقيقي؟»

«كلا، عدا أن ملابسها كانت منقوشةً بالحرفَين الأوَّلَين من اسمها «إل إس».»

«هل كانت متزوجة أم عزباء؟»

«رفضَت الإدلاء بأي معلومات عن نفسها، لكن لما كانت ترتدي خاتم زواج، فقد أدرَجْناها في السجلات باعتبارها متزوجة.»

«أثناء وجودِها في السجن، هل قُصَّ شعرها؟»

«كلا. كان قصيرًا نوعًا ما حين دخلَت السجن، وكان نظيفًا تمامًا فلم يكن ثمة حاجةٌ إلى ذلك.»

«هل تذكرين طوله وقت إطلاق سراحها؟»

«حسَبما أذكر، كان قد بلغ كتفَيها تقريبًا.»

«متى أُطلِق سراحها؟»

«ظُهر يوم ١٢ ديسمبر ١٩٣٠م.»

«أظنك لا تذكرين ما إذا كان أحدٌ قد استقبلها حين غادرت السجن، أليس كذلك؟»

«بل أذكر في الواقع. فقد تصادف أنْ كنتُ واقفة أمام السجن في ذلك الوقت، ورأيت رجلًا يبدو أنه كان بانتظارها على ناصيةِ طريق هيلمارتون. وعبَرَت الطريق وذهبت إليه.»

«هل تذكرين شكله؟»

«ليس بوضوح. لم أُمعِن النظر إليه ولن أتعرفَ عليه لو رأيتُه. كل ما أذكره عنه هو أنه كان رجلًا يبدو مهندمًا وقصيرًا نوعًا ما.»

«لقد رأيتِ السجينة سوندرز في سجن الاستقبال يوم القبض عليها، ورافقتِها إلى محكمة الشرطة؛ ورأيتِها في الشارع يوم أُطلِق سراحها. هل تذكرين ماذا كانت ترتدي في تلك المناسبات الثلاث؟»

«أذكر أنها كانت ترتدي ثوبًا لافتًا للنظر نوعًا ما له كمَّان يختلف لونُهما عن صِداره وتنورته.»

حينئذٍ أخرج ثورندايك رسم بيدلي ومرَّره إلى الشاهدة.

قال: «أُريدك أن تُمعِني النظر إلى تلك الصورة وتُخبريني ما إذا كانت تستدعي أيَّ شيء في ذاكرتك.»

نظرت الشاهدة إلى اللوحة بانتباهٍ لبضع لحظات، ثم أجابت:

«تلك المرأة التي في الصورة تُذكِّرني بشدة بلويزا سوندرز. إنها تُشبهها في القوام ولون الشعر، وثوبها يُشبه تمامًا ذلك الذي كانت ترتديه سوندرز حين دخلَت السجن وحين خرَجَت منه. بالطبع لا أستطيع الجزمَ بأنها سوندرز؛ لأن ملامح وجهِها غيرُ ظاهرة، لكن عدا ذلك، يبدو الشبهُ بينهما تامًّا.»

بهذا انتهى استجوابُ الشاهدة من قِبَل مستدعيها، وعندما جلس ثورندايك، نهض لوريمر لاستجوابها.

سألها: «أليس من الغريب أنك تذكرينَ السجينة بذلك الوضوح الشديد بعد مرور تلك الفترة الطويلة؟»

أجابته: «لا أظن ذلك. فضابط السجن يُتوقَّع منه أن يكون قادرًا على تذكُّر السجناء وتمييزهم، كما أن سوندرز لم تكن سجينةً عادية. فمعظم النساء اللاتي يأتين إلى سجون الاستقبال يكنَّ من الطبقات الاجتماعية الدُّنيا، كما أن الثوب الذي كانت ترتديه كان مميزًا لدرجة لافتةٍ للنظر.» ثم أضافت الشاهدةُ بابتسامةٍ استنكاف: «عِلاوة على ذلك، فإنَّ ضابطات السجن شأنهن كشأن غيرِهن من النسوة، يَمِلْن إلى تذكُّر الأثواب غير التقليدية.»

عقَّب القاضي قائلًا: «من الواضح وفقًا للشهادات أن ذلك الثوب ترَك انطباعًا قويًّا بلا ريب لدى جميعِ النسوة اللاتي رأينَه؛ إذ إنَّهن جميعًا يتذكَّرنه بوضوح. لكن الصور الفوتوغرافية لا تُظهِره بوضوح، مع أن المرء بإمكانه أن يرى أنَّ لون كُمَّيه وياقته يختلف عن لون صِداره. ما زال للرسَّامين الأفضليةُ على المصورين الفوتوغرافيين.»

قال لوريمر: «هذا فيما يخصُّ الألوان يا سيدي. لا فيما يخصُّ الهوية الشخصية. فلا يسَعُني أن أقول إن أحدًا قد تعرَّف على المرأة التي في اللوحة.»

صاح القاضي: «كلا، كلا، كلا! كنت أُشير فقط إلى لون الثوب. فلم يُشِر أحدٌ إلى أنه تعرف على المرأة نفسِها فعليًّا.»

حينئذٍ تطرَّق لوريمر إلى موضوع جديد؛ «ذكرتِ أنك شهدتِ وقائعَ جلسة المحاكمة بمحكمة الشرطة. هل قُدِّم أيُّ دليل يُثبت أن المتهَمة كانت على دراية تُدينها بطبيعة تلك الأوراق النقدية؟»

«كلا، باستثناء حيازتها للأوراق النقدية وتداوُلِها إحداها.»

«هل كان ثمة دليلٌ يُشير إلى احتمال عدم صحة التفسير الذي قدَّمَته حول كيفية مآلِ تلك الأوراق النقدية إلى حيازتها؟»

«كلا. لكن المشكلة كانت تكمن في رفضها الإفصاحَ عن مصدر تلك الأوراق أو هُوية الشخص الذي أعطاها لها.»

بعد أن حصَل لوريمر على تلك الإجابة، أنهى استجوابه لشاهدة الخَصم بحَصافة بعد أن أثبتَ وجهة نظره، وهي احتمالُ براءة المتهَمة تمامًا بغضِّ النظر عن الحكم الذي نالته. لم أرَ الداعيَ إلى تشديده على تلك النقطة، إلا إن كان قد بدأ ينتابُه الشك نفسُه الذي كان يتسلل إلى ذهني.

كنتُ قد استمعت إلى شهادة الآنسة ريندل بتركيزٍ بالغ؛ وبالطبع فوجئتُ كثيرًا، لا مِن تعرفها على الصور فحسب، بل من التطابق الغريب للتاريخَين أيضًا. لكن تركيزي كان ضعيفًا مقارنةً بتركيز القاضي. فقد أذهله تعرفُ الشاهدة على الصور، وحين ذُكِر تاريخ إلقاء القبض على السجينة، قلَّب سريعًا في دفتر ملاحظاته وأجرى بعض المقارنات، وحين وصلَت إليه الصورُ الفوتوغرافية، وضعها أمامه في صف وقارن بينها سريعًا. لم يكن ثَمة ما يدعو إلى فحصٍ مُطوَّل كما أدركتُ حين وصلَت لي الصور؛ إذ كان من الواضح أن الصور الأربع مصدرُها الصورتان السلبيتان نفساهما. الفارق الوحيد بينها هو أن «الصورتين الأصليتين» يظهر فيهما لوحٌ خشبي أسودُ مكتوب عليه بالطباشير اسمُ السجينة مثبتًا أمام الكرسي الذي تجلس عليه، ويحتل الجزء السفليَّ من الصورة الشخصية، بينما حُجِب اللوح في «النسختين غير المكتمِلتين.»

لكن بجانبي أنا والقاضي، كان ثَمة آخَرون يستمعون باهتمام. فالسيد شيلر كان واعيًا تمامًا، مع أنه كان لا يزال يتظاهرُ بإغماض عينَيه. وكان المفتش بلاندي يُتابع الشهادة بتركيزٍ شديد؛ وكان المفتش ميلر، الذي انسلَّ بهدوء إلى قاعة المحكمة في وقتٍ سابق برفقة صديقي الدكتور أولدفيلد، يُصغي ويُتابع باهتمام، مع أنه حتمًا كان يعرف كلَّ ما ذكَرَته الآنسة ريندل في شهادتها.

حين غادرَت الشاهدةُ الأخيرة منصةَ الشهود بوقار، ألقى القاضي نظرةَ ترقُّبٍ سريعةً إلى ثورندايك، ثم نُودي اسمُ الشاهد التالي، فتقدَّم الدكتور جيمس أولدفيلد كي يُدلِيَ بالقسَم وبشهادته.

في حالته، كما في حالة الشاهدة السابقة، بدأ الاستجوابُ بتمرير النسختين «غير المكتملتين» من الصورتَين الشخصيتين.

قال ثورندايك: «هلَّا نظرتِ إلى هاتَين الصورتين يا دكتور أولدفيد، وأخبرتِنا ما إذا كانتا لشخصٍ ربما تكون قد قابلتِه يومًا؟»

فحَص أولدفيلد الصورتين بدقةٍ لِما يقرُب من دقيقة، وفيما كان يتطلَّع إليهما، تسلَّل إلى وجهه تدريجيًّا تعبيرٌ ينم عن دهشة التَّعَرُّف. وأخيرًا قال بحذر:

«يبدو لي أن هاتَين الصورتين لإيما روبي، تلك السيدة التي قُتِلَت منذ حوالي عامَين في المنزل رقم ٣٩ بشارع جيكوب، طريق هامبستيد.»

«هل بوسعك أن تجزم بأن الصورتين الشخصيتين هما لإيما روبي؟»

«لا أميل إلى أن أُقسِم يقينًا بأنهما كذلك. فقد كانت الوفاة مرَّت عليها ثلاثة أسابيع حين فُحِصت جثتُها، وكانت بعضُ التغيرات قد طرأَت عليها. لكنَّ لديَّ اعتقادًا قويًّا بأنها صاحبةُ هاتين الصورتين. هل يُمكن أن يُسمَح لي بالرجوع إلى ملاحظاتي؟»

سأله القاضي: «متى دوَّنتَ تلك الملاحظات؟»

«دونتُها في المشرحة في وجود الجثة، وقارنتها وتأكدتُ منها نقطةً تلو الأخرى بعد أن دونتُها.»

قال القاضي: «إذن، بوسعك الرجوع إليها بالتأكيد.»

حينئذٍ أخرج أولدفيلد من جيبه دفترًا صغيرًا، وفتحه على صفحة مميزة بعلامة، ثم أجرى مقارنة منهجية بين الملاحظات والصورتَين الفوتوغرافيتين. وبعد أن انتهى، أعلن قائلًا:

«لقد قارنتُ الوصف المذكور في الملاحظات، تفصيلةً بتفصيلة، مع الصورتين الفوتوغرافيَّتين، ووجدتُهم متطابقين في جميع الجوانب عدا واحدًا. ألا وهو أن شعر المرأة في الصورة الفوتوغرافية أقصرُ من شعر الجثة وقت فحصها.»

«هل دوَّنت طول الشعر بالضبط؟»

«لم أَقِسْ طوله، لكني دونتُ في الوصف أنه يكاد لا يتجاوز الكتفَين.»

«بخلاف ذلك الاستثناء، هل تجد تطابقًا تامًّا بين الوصف الذي دوَّنتُه والصورتين الفوتوغرافيتين؟»

«أجل؛ التطابق بينهم تامٌّ في كل تفصيلة.»

«وبخلاف الوصف المكتوب، هل ترى أن الصورتين الشخصيتين تُشبهان إيما روبي؟»

«أجل. فور أن رأيتُ الصورتين الفوتوغرافيتين، شعرتُ أنهما صورتان لامرأةٍ رأيتها من قبل، وحين حاولتُ أن أتذكَّر مَن تكون تلك المرأة، أدركتُ فجأة أنها إيما روبي. الآن بوُسعي أن أقول بلا شك إنها صاحبة هاتين الصورتين الشخصيتين.»

في تلك اللحظة، لفتَ انتباهي السيد شيلر؛ الذي استفاق فجأةً، وأخرج ساعته وتطلَّع إليها مجفلًا، ثم هبَّ واقفًا، وانحنى انحناءةً خفيفة للقاضي قبل أن يشقَّ طريقه ببطء وفي صمتٍ نحو الباب. حين نهض، حذا حذْوَه المفتشُ بلاندي والمفتش ميلر، اللذان انطلَقا في الاتجاه نفسِه دون أن يَلفِتا الأنظارَ إليهما. تابعتُ ثلاثتَهم ببصري في تلهُّف وهم يجتمعون عند المخرج، يتقدمهم شيلر وهو يُسرع الخطى قليلًا. خرَجوا من الباب واحدًا تلو الآخر، وفيما تأرجح الباب بصخب بعد خروج آخرِهم، أمسك القاضي (الذي كان يُتابع أيضًا مشهد الخروج الجماعي) الصورتَين الفوتوغرافيتين في يده وعقب قائلًا:

«هذا أمر غريبٌ للغاية. هاتان الصورتان الفوتوغرافيتان تعرف عليهما الشهودُ الآن عن ثقةٍ بأنهما لثلاث سيدات مختلفات.»

قال ثورندايك: «افتراضي يا سيدي هو أن هؤلاء النسوة الثلاث لسنَ سوى امرأةٍ واحدة.»

قال القاضي: «هذا يبدو ...» ولكن في هذه اللحظة رُطِم الباب المتأرجح رطمةً قوية جعلَته ينفتح للداخل، وعبْرَه تسلَّل صوتٌ بدا كصوت عراك بين عدة أشخاص، مختلطًا بأصواتٍ بشرية منخفضة لكن منفعِلة. ثم في خِضَم الأصوات المتداخلة، دوَّى صوتُ طلقٍ ناري. وفيما تأرجح الباب منغلقًا، انخفضت الأصوات وابتعدَت أكثر. بعد وقت قصير، وبإشارةٍ من القاضي، أسرع الحاجب إلى الباب، وبعد أن استرقَ النظر إلى الخارج بحذر، اختفى وراء الباب الذي تأرجح حتى انغلق وراءه. ساد الصمتُ لبرهة انتظرنا جميعًا خلالها مترقِّبين. ثم ظهر الحاجبُ مرة أخرى، برفقة المفتش ميلر، وقال على الملأ:

«سيدي، هذا الضابط لديه ما يودُّ إبلاغ سيادتك به.»

لم يُعلق القاضي، بل نظر مستفسرًا إلى ميلر، الذي تقدم إلى منصته وأبلغه «بما لديه».

قال: «عليَّ أن أُبلغ سيادتك بأن السيد كارل شيلر قد أُلقي القبض عليه للتوِّ بتهمة قتلِ زوجته.»

سأل القاضي الذي لم يَبدُ مفاجَأً بقدر ما بدا مهتمًّا: «هل من المسموح لك بذكر أيِّ تفاصيل بخصوص تلك التهمة؟»

رد ميلر: «مسموحٌ تمامًا يا سيدي؛ إذ إن السجين سيَمثُل أمام قاضي التحقيق على الفور. لقد اعتُقِل بِناءً على معلومة مؤكَّدة تلقَّيناها من الدكتور ثورندايك، أما التهمة

فهي أنه في يوم ١٢ ديسمبر من العام ١٩٣٠م، في المنزل رقم ٣٩ شارع جيكوب، طريق هامبستيد، قتَل المتهَمُ زوجته، لوتا شيلر، بإجبارها على تناول السُّم.»

قال القاضي: «أها، المنزل رقم تسعة وثلاثين شارع جيكوب. إذن فمأساة غابة إيبنج، إن كانت قد وقعَت بالفعل، لا علاقة لها بقضية هذه المرأة المسكينة؟»

قال ميلر مؤيدًا: «لا علاقة لها على الإطلاق يا سيدي.»

فكَّر القاضي لبضع لحظات، ثم خاطب هيئة المحكمة المكونة من المستشار والمحاميَيْن قائلًا:

«لقد سمعتم الإعلانَ المذهل الذي أدلى به هذا الضابط. من الواضح أن هذه المعلومة الجديدة تستدعي على الأقلِّ تعليق إجراءات هذه الدعوى. فإن كان ثَمة دليلٌ على أن لوتا شيلر قُتِلَت، فحتمًا سيكون هناك دليلٌ على أنها ميتة، وإن أمكنَ إثباتُ وفاتها، فإن ذلك الإثبات يستبعد فكرة افتراض تلك الوفاة. لذلك سوف تُرفَع الجلسة لأجل غير مسمًّى.»

حينئذٍ نهضنا جميعًا. خرج الشهود تدريجيًّا — إذ لم يكن ثَمة حضور — من قاعة المحكمة، وكنا نحن أيضًا نتأهب للمغادرة. لكن القاضي لم يُبدِ أي بادرة للمغادرة. بل مال في مقعده تجاه ثورندايك، وألمح برغبته في الاستزادة من المعلومات. فتقدَّم ثورندايك إلى منصة القاضي، ولم نُبدِ أنا ولوريمر أي حرج كاذب من اتباعه.

قال القاضي: «حسنًا يا دكتور، لما كان مِن الواضح أنك استغللتَ محكمة الوصايا والمواريث لأغراضك الشخصية، أرى أن أقلَّ ما يُمكنك فعلُه أن تُرضِيَ فضولنا المشروع. ما أريد أن أعرفَه الآن هو ما الذي حدَث للسيدة التي انتحلَت شخصية لوتا شيلر في ٣٩ شارع جيكوب، وما الدور الذي لعبَته في الجريمة؟»

أجابه ثورندايك: «لم يكن ثَمة امرأة يا سيدي. المرأة التي عُرِفَت في شارع جيكوب باسم لوتا شيلر لم تكن سوى كارل شيلر متنكرًا ومتبرجًا كامرأة.»

صاح القاضي مندهشًا: «يا إلهي! هذا أمر لا يُصدَّق. هل لديك دليل دامغ على هُويته؟»

أجاب ثورندايك قائلًا: «أجل. كلاهما متطابقٌ في السِّمات الجسدية؛ في الحجم، ولون العينَين، وتكوين الملامح، والشكل المتسق للأذنين.»

قال القاضي معقبًا: «هذا لن يُفيدك كثيرًا في إثبات تهمة عقوبتها الإعدام.»

أيَّده ثورندايك قائلًا: «هذا صحيح. لن يكون له أيُّ جدوى سوى باعتباره دليلًا إضافيًّا. لكنَّ ثَمة دليلًا واحدًا قاطعًا. فقد فاقت رأفةُ العناية الإلهية بنا رأفتَها بالمجرم. فمن المصادفة أن كارل شيلر يملك شعرًا من نوع نادر للغاية.»

قال القاضي مندهشًا: «أها! ثمة شيءٌ غريب بشأن الشعر، أليس كذلك؟ عندما نظرت إلى القلادة، خطَر لي أن الشعر الذي بداخلها يبدو غريبًا في شكله. إنه غريبٌ للغاية، أليس كذلك؟»

«ليس هذا فحَسْب يا سيدي. إنه يُمثل أحدَ أندر الظواهر الشاذة. هذا الشعر المُحلقن، كما يُطلَق عليه، تتميز كلُّ شعرة منه بحلقات فاتحة وداكنة متواترة، وهي حالة نادرة للغاية حتى إنني لم أُقابل مثلها طوال مسيرتي المهنية. لا يوجد سوى بضعةِ أمثلة لها في المتاحف.»

قال القاضي: «هذا مذهل للغاية. لكنَّ العينة الموجودة داخل القلادة، التي أعتقد أنك تعتمد عليها، تعود للسيدة. فهل تعلم يقينًا أن شعر كارل شيلر له هذه السمة؟»

أجاب ثورندايك: «أجل. فقد شَمِلتنا العناية الإلهية بلُطفها هنا أيضًا. أثناء جلسة الاستماع السابقة، وقع حادث غريب للغاية في قاعة المحكمة. فقد عَلِق رأس السيد شيلر بطريقة ما بمسند المقعد، واضطُرَّ شخص كان يجلس في المقعد الذي يليه إلى أن يقصَّ جزءًا من شعره كي يُحرِّره. ذلك الجزء الذي قُصَّ من شعره آلَ إلى حيازتي، وبالطبع فور أن فحصتُه تحت المجهر، استبان لي القاتلُ حرفيًّا.»

التمعَت عينا القاضي. ثم قال: «أها! أتساءل الآن كيف علق رأسُ الرجل بالمقعد. هل تعرف؟»

أجابه ثورندايك قائلًا: «لا أعرف فعليًّا، لكن لدي شكوك معينة.»

قال القاضي: «وأنا كذلك.»

الفصل السابع عشر

ملاحظات في فن التنكر

ربما يكون من المثير للاهتمام، إن سمحَت المساحة المفرَدة، أن أصف بالتفصيل محاكمة كارل شيلر بتهمة قتل زوجته لوتا. لكن المساحة لا تسمح، كما أنه لا داعي لمثل هذا الوصف؛ إذ إن قارئ تلك القصة يعرف بالفعل جميعَ الوقائع التي عُرِضَت في الأدلة ضدَّه. لكن معرفة الوقائع تختلف تمامًا عن فَهم أهميتها الواقعية أو الاستدلالات التي يُمكن استخلاصها منها. لقد كنت مطَّلعًا على جميع الوقائع التي يعرفها ثورندايك؛ لكني لم أرَ الروابط بينها ولم أفهم كيف توصل إلى ذلك الاستنتاج الصادم حتى سمعتُه يُعيد بناء مجرى التحقيق.

سارت المحاكمة حتى نهايتها المحتومة. فقد أصدرَت هيئة المحلَّفين، دون أن يُغادر أعضاؤها منصتهم، حكمًا بالإدانة، ونطَق القاضي بحكم الإعدام، ثم نزل السجينُ درجات سلَّم قفص الاتهام، وتوارى عن أنظار البشر للأبد؛ وبعد أن شهد جمهورُ الحاضرين نزولَ الستار، نهضوا وبدءوا يتدفقون إلى الخارج عبر الأبواب المفتوحة. تبعتُهم فور أن تسنَّى لي ذلك، وما لبثتُ أن صادفت بولتون وبيدلي وفاندربوي، وسط هذا الزحام الشديد، وانضممتُ إليهم في انتظار ثورندايك.

من جانبي، كنتُ أراقب أحداثَ تلك المسرحية المأساوية وهي تتكشَّف، وتُكدِّس الأدلة القاطعة، دون أيِّ ذرة من الشفقة أو وخزِ الضمير، حتى حين اعتمر القاضي القلَنْسُوة السوداء ونطقَ بكلمات الهلاك التي لا رجعة فيها. لكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إلى صديقَينا. فقد استحال عليهما، وهما ينظران إلى ذلك الوحش الشاحب الوجه قابعًا داخل قفص الاتهام، مواجهًا متهِميه مثل وحش مفترس محبوس في قفص، أن ينسَيا أواصر الصداقة بل والود التي ربطَتهما به يومًا. حين نظرت إلى وجهَيهما المتقِعين القلِقَين، أدركتُ كم كانت هذه محنةً مؤلمة تركَتهما مفجوعَين ومحزونين. وكذلك كان

حال ثورندايك، الذي ما إن خرج وانضمَّ إلينا، حتى لاحظ على الفور ما حلَّ بهما من كربٍ وأسًى، وبتعاطُفه ورقَّته المعهودَين، بحث عن وسيلة لصرف ذهنَيهما عن تجرِبتهما المؤلِمة الأخيرة.

قال: «أتساءل يا بولتون إن كان العقار رقم فايف إيه بشارع كينجز بينش ووك به ما يكفي من الموارد لتجهيز عَشاءٍ ارتجالي لخمسة أشخاص.»

جاءه الردُّ الواثق بنبرة حماس مقنعة: «موارد العقار رقم ٥ إيه غيرُ محدودة يا سيدي.»

قال ثورندايك: «إذن، يسَعُني أن أطلب من صديقَينا أن يُمتِعانا برفقتهما هذا المساء.»

نظر متسائلًا إلى بيدلي وفاندربوي اللذَين قَبِلا الدعوةَ بسرعة تكاد تبعث على الشفقة؛ فاستأذن بولتون في المغادرة وانطلق مسرعًا كمُشعِل قناديل، ولما كان الوقت لا يزال مبكرًا على موعد العَشاء المعتاد، سِرنا على مهل عبر شارع أولد بايلي حتى طريق لودجيت هيل؛ بحثًا عن مكان نحتسي فيه الشايَ الذي كنا بحاجةٍ ماسَّة إليه. بعد أن فرَغنا من ذلك، وبعد حوارٍ بذلتُ أنا وثورندايك قُصارى جهدَينا لإضفاء المرح عليه بقدر ما سمحَت الظروف، انطلقنا بخُطًى متمهِّلة نحو حي تيمبل سالكين طريقَ الكورنيش.

جاءت النتيجة مبرَّرة لتقدير بولتون لموارد العقار رقم ٥ إيه بشارع كينجز بينش ووك، برغم شكوكي في أنه قد استعان بمطعم «راينبو» أو بحانة أخرى ممتازة بشارع فليت. لكن على أي حال، كان العشاء الذي جلسنا إليه في الموعد المناسب مشرفًا لمؤسَّستنا، وأكمله، إن جاز التعبير، منتجاتُ قبو الخمور الخاص بنا، الذي أغارَ عليه بولتون لهدفٍ ما (مع أن موقعه على الطاولة كان يُميزه في خزى زجاجة من عصير الليمون). كان مَن يقوم على خدمتنا دون أن يُثير ضجة هو ويليام، بديل بولتون في الأعمال المنزلية، يُعاونه غريبٌ غامض له هيئةُ نادل، كان يحوم في الخلفية ويتعامل بخفةِ يدٍ بارعة غريبة مع الصحون والأغطية، لكنه لم يتدخَّل في عمل ويليام قط.

عادةً لا تكون الأطوار الافتتاحية لعَشاء جيد «حينما تكون الأفواهُ منشغلة بالمضغ» ملائمةً لإجراء حوار متَّصل. لذا ظلَّت فحوى الحديث الدائرِ بيننا، لمُدة من الوقت، سفاسِف مرحة في أغلبه. لكن تلك المسرحية المأساوية التي كنا نشهد أحداثها حتى نهايتها المفجِعة قبل بضع سُويعات، كانت قابعةً في باطن عقولنا، وكان لزامًا أن تطفوَ على السطح عاجلًا أم آجلًا. لكن ذلك الموضوع، الذي كان لا يزال محظورًا، لم يُفتَح حتى هدأَت وتيرةُ المضغ وقُدِّم النبيذ، وحتى حين طُرِق لم يُطرَق إلا على نحوٍ غير مباشر.

قال ثورندايك: «قبل أن أنسى، اسمحوا لي أن أردَّ ما استعرتُه.» ووضع يده في جيبه وأخرج دفتر ملاحظات بيدلي وقِلادة فاندربوي، ثم أضاف قائلًا وهو يدفعهما عبر الطاولة ناحيةَ مالكيهما:

«لا داعي إلى أن أُخبركما كم أَدينُ لكما لإعارتي هذَين الغرضَين والسماح لي باستخدامهما. لقد سمعتما الأدلةَ وتعرفان أن إسهامَهما في كشف ذلك الغموض لا يُقدَّر بثمن.»

أخذ بيدلي الدفتر ودسَّه في جيبه دونما تعقيب؛ لكن فاندربوي تردد، ونظر إلى الحِلْية الصغيرة وهي ترقد على المائدة بنفور شديد. لكنه في النهاية التقطها وألقى بها في جيبه بإيماءة اشمئزاز.

قال ثورندايك: «أمَّا ما هو مِلكك يا بولتون، فهو كما ترى على رف المدفأة، وهو الآن تحت تصرفك، مع جزيل شكري لك أن أعرتَني إياه.»

رد بولتون: «عفوًا يا سيدي، لكني أظن أن استعارتك للَّوحة أفادتني أكثرَ مما أفادَتْك. فقد أَضْفَت عليها أهميةً جديدة بالنسبة إليَّ، بينما لا أرى أنها أفادَتك كثيرًا سوى فيما يخصُّ لون ثوب السيدة.»

قال ثورندايك: «أعتقد أنك حين تسمع القصة كاملة، كما سيحدث يومًا ما، ستجد أن الدور الذي لعبَته اللوحة في التحقيق أهمُّ مما تظن.»

قلت: «إن صح ذلك، فثمَّة نقطة واحدة على الأقل فاتتني؛ إذ كنتُ أشارك بولتون الظنَّ نفسَه؛ في الواقع، لقد تساءلت قليلًا عن سبب عَرضِك للَّوحة في المحكمة من الأساس.»

رد قائلًا: «الغرض الأساسي من عرضها كان مساعدةَ الشهود على تذكُّر الثوب. الصور الفوتوغرافية لم تُساعد على ذلك؛ لكن الثوب كان له أهمية بالغة في التثبُّت من التواريخ. ثَمة غرضٌ آخَر وهو التأكد من أن هيئة المرأة في الصورة يمكن التعرفُ عليها باعتبارها تُشبه لوتا شيلر.»

«أجل، لكن يبدو أنك تُلمِّح إلى دور آخَر لعبَته اللوحة، وتُلمِّح أيضًا إلى مناسبة مستقبَلية ما سنسمع فيها القصة الكاملة للتحقيق. لكن لم ننتظر مناسبة مستقبَلية؟ فنحن جميعًا هنا، وأظن أننا مهتمُّون بالقضية بالدرجة نفسِها. عن نفسي، ما زلت أجِدُني متحيرًا. لقد استمعت إلى الأدلة كلِّها ووجدتُها قاطعة تمامًا؛ لكن ما لا أستطيع فَهْمَه هو كيف استطعت بِناء منظومة الأدلة تلك مِن العدم. من أين كانت البداية؟ ما أول شيء وضَعك على الطريق الصحيح؟ بدا لي أنْ قد خُضت في القضية منذ اللحظة التي عرَضها عليك بينفيلد، وكأنما كان لديك بالفعل نظرية مدروسة في ذهنك.»

رد قائلًا: «وهذا ما حدث بالفعل. حين أخبرنا بينفيلد بشأن الطلب المرتقَب، لم يكن يفتح موضوعًا جديدًا بالنسبة إليَّ، بل فقط يبتدئ مرحلة جديدة من مسألةٍ سبق أن أوليتها تفكيرًا ممعِنًا بالفعل. أما قصة التحقيق، فهي قصة طويلة نوعًا ما، وإن كنتم جميعًا تودُّون حقًّا سماعها، فمن الأفضل أن تُقرِّبوا مقاعدكم من المدفأة وتتهيَّئوا لسماعها في استجمام.»

كانت رغبتنا في سماع القصة أكيدة. فبولتون كان «يتحرَّق» فضولًا، وكان ضيفانا، كلٌّ منهما على طريقته، متشوِّقين لمعرفة كيف انحَّلت كتلة الخيوط المعقَّدة. وهكذا قرَّبنا مقاعدَنا ذات الذراعَين إلى المدفأة، ووضع بولتون بجوارها الطاولاتِ الصغيرةَ على نحوٍ ملائم تَعْلوها القواريرُ وعلبُ السيجار، بينما أزاح ويليام والنادلُ الغريب — الذي كان الآن قد خرج إلى العلن — بخِفَّة عن المائدة حمَلها الذي لم يَعُد ضروريًّا. ثم بعدما غادر العاملان أخيرًا، بدأ ثورندايك يروي قصته.

«ثَمة تمهيدٌ ضروري لرواية أحداث التحقيق الفعلية؛ أقول ضروري لأنه يُفسر كيف تسلَّل الشك إلى ذهني للمرة الأولى في ظلِّ غياب أيِّ احتمالات أكيدة خارجية. يعرف جيرفيز، كوني قد أخبرته بذلك كثيرًا، أنه في بدايات عملي حين كان العملُ شحيحًا أو معدومًا، كنت أشغَلُ نفسي بدراسة قضايا افتراضية. كنت أفكر كيف يُمكن التخطيط لجريمةٍ معينة وتنفيذها بأكبرِ قدر ممكن من الحصانة ضدَّ اكتشاف أمرها، وبعد أن أنتهي من وضعِ جميع الأساسيات، أطبِّقها ببناء جريمةٍ تخيُّلية بالتفصيل. بعد ذلك كنتُ أدرس تلك الجريمة لأكتشفَ نقاط الضعف فيها والدلالات التي يُمكن كشفُها من خلالها على أرض الواقع. كانت تلك الطريقة مفيدةً بحق؛ إذ إن دراسة جريمة افتراضية بأسلوب منهجي يمنح المرءَ خبرةً لا تقل فعليًّا عن تلك المكتسبة من دراسة قضية حقيقية.

الجريمة الأهم من وجهة نظر الطبِّ الشرعي هي جريمة القتل المخطَّط لها بتروٍّ. لهذا أوليتُ هذا النوعَ من الجرائم عنايةً خاصة، وبعد أن اختبرتُ عدة طرق مختلفة، قررتُ أن الطريقة المثلى لتأمينها من الاكتشاف هي طريقة الشخصية الخياليَّة. بدا لي أن تلك الطريقة، إن خُطِّط لها ببراعة ونُفِّذَت بكفاءة، ستكون شبهَ عصيَّة على الاكتشاف.»

قال فاندربوي: «لست واثقًا من أني أفهم ما تعنيه بخلقِ شخصية خيالية.»

«حسنًا، لنأخذ قضيةً خيالية مثالًا. سنفترض أن رجلًا، سنُسميه جون دو، لديه سببٌ ما يدعوه إلى الرغبة في التخلُّص من شخص معين. هذا الشخص ربما يكون زوجة غيرَ مرغوبة. ربما يريد جون دو الزواجَ من امرأة أخرى؛ أو ربما يكون مطارَدًا من

شخص يبتزُّه. أيًّا كان السبب، فهو سببٌ دائم. فالشخص الذي يرغب في التخلص منه يُمثِّل عقَبة دائمة في طريق سعادته أو يُهدد أمنه. والآن لنفترض أنه سيعتمد طريقتي؛ لنتتبع خطواته.

سيبدأ بأن يتنكَّر في شكل يُغير من مظهره لدرجةٍ تجعل من العسير على أي شخص يعرفه أن يتعرف عليه، ويمنحه سماتٍ معينة جديدة ويسهل التعرف عليها.»

قلت معقبًا: «هذا لن يكون سهلًا كثيرًا.»

وافقني ثورندايك قائلًا: «لن يكون كذلك، لكننا سننظر في تلك المسألة على نحوٍ منفصل. لنفترض أن جون دو تنكَّر في هيئة شخص آخرَ واتخذ لنفسه اسمًا جديدًا. لنقل إن ذلك الاسم هو ريتشارد رو. وتحت ذلك الاسم، يتخذ لنفسِه مسكنًا في حيٍّ لا يعرفُه فيه أحد، وينتحل شخصيةً تجعله لا يُوطِّد علاقاته إلا مع عددٍ محدود من الأشخاص. وربما يفتتح متجرًا أو مكتبًا أو يمتهنُ حِرفةً ما، وهكذا يذيع صيتُه بين سكان الحي، وتتوطد معرفته بقلةٍ منهم أكثر؛ وسيستمرُّ على ذلك النحو لبضعةِ شهور، على الأقل، حتى يصير شخصية معروفة في المكان.

ثم يشرعُ في ارتكاب جريمته، في الزمان والمكان اللذَين يتخيَّرهما. فهو ليس في عجَلة من أمره. ولديه متسَع من الوقت كي يُجري ترتيباته على مهل. فليس لديه ما يدعوه إلى أن يتخذ أيَّ تدابير لإخفاء هُوية المجرم. بل على النقيض؛ كلما توثَّق ارتباطُ الجريمة بريتشارد رو، صار هو في مأمنٍ تام. كل ما يلزم هو أن يتفادى وجود أيِّ شهود فعليِّين على الجريمة، أو أي داعٍ إلى الإسراع بالهرب. على الأرجح ستكون الطريقة المُثلى هي أن يستدرج ضحيته إلى مسكنه، وبعد أن يرتكب جريمة القتل، يحبس الجثة داخل هذا المسكن ويُغادر في هدوء.

كما ترون هو لا يزال غيرَ متعجِّل ولا يوجد أيُّ خطر يحيق به. ببساطة يخلع تنكُّره فلا يصير له حينها أيُّ صلة بجريمة القتل. تمر بضعة أيام أو ربما أسابيع قبل اكتشاف الجثة؛ في تلك الأثناء بوُسعه أن يُسافر خارج البلاد أو إلى مكانٍ بعيد، ويُراسل أصدقاءه يصف لهم أسفاره، وفي الوقت المناسب، بعد مرور فترة زمنية آمنة، يعود إلى محلِّ إقامته الدائم وإلى دائرة معارفه القديمة.

في تلك الأثناء تكون الجثةُ قد اكتُشِفَت، وتبذل الشرطةُ أقصى ما بوُسعها في مطاردة القاتل، ريتشارد رو. فلديها وصفٌ دقيق ومفصَّل له، يشهد عليه عددٌ من شهود العيان الثِّقات الذين يعرفونه عن قرب، وبإمكانهم التعرفُ عليه إن عُثِر عليه. لكن لا يُعثَر عليه

أبدًا؛ ففي اللحظة التي خلع فيها جون دو تنكُّره، لم يعد لريتشارد رو أيُّ وجود. في الواقع، الشرطة تبحث عن شخص خيالي تمامًا.»

قلت: «أجل، تبدو خُطة مثالية تمامًا بالتأكيد. لكني أرى أن بها عقبةً واحدة. ثَمة صلةٌ ما تربط بين جون دو والضحية، وربما يُلاحَظ أنه مستفيدٌ للغاية من الجريمة. على سبيل المثال، ربما كان الشخصُ المقتول زوجتَه التي لا يرغب فيها، والتي من المعروف أنه على خلاف معها.»

رد ثورندايك قائلًا: «لا أظن أن ذلك يُهِم كثيرًا. فكما ترى، هوية القاتل لا غبار عليها. فهو شخصٌ معلوم — ريتشارد رو — وبالتبعية لا يُمكن أن يطولَ الاشتباهُ أيَّ شخص آخر. ومع ذلك، فالأمر جديرٌ بالملاحظة. سيَزيد من أمانِ القاتل بلا شك إخفاءُ هُوية الجثة أو جعلُ التعرُّف عليها مستحيلًا. سنضع ذلك في الحسبان. والآن لننظر في مسألة التنكُّر، دون أن ننسى أن التبرج المسرحي وحده سيكون عديمَ النفع، وأن ذلك التنكُّر لا بد أن يصمد بالخارج تحت ضوء النهار، وأنه سيُستخدَم على نحو دائم لمدةٍ زمنية طويلة.

إنَّ تغيير هيئة رجل تمامًا لدرجة تجعل أصدقاءه ومعارفه لا يتعرفون عليه ليس بالأمر اليسير. لكنه ممكن. فيما مضى، كان هناك صانعُ شعور مستعارة في شارع راسل، بمقاطعة كوفينت جاردن، امتهن فنَّ التنكُّر، واستطاع تحقيق نتائج مفاجئة للغاية في تبديل الشكل. لكن أساليبه كانت معقَّدةً نوعًا ما، والنتائج لم تكن مريحة تمامًا لأصحابها، وفي الحالات المستديمة، كان عملاؤه يُضطَرون إلى زيارته يوميًّا لتجديد تبرجهم. لن يكون ذلك مفيدًا في تنكرٍ طويل الأمد، وقطعًا لن يُفيد قاتلًا مرتقَبًا. سيكون عليه أن يصنع تبرُّجَه بنفسه، وسيتحتم أن يكون ذلك التبرج مريحًا لدرجة معقولة.

لكن لا داعي لأن نُطيل التفكيرَ في صعوبات التنكر في هيئة رجل؛ إذ ثَمة نوع آخرُ من التنكر أسهلُ نسبيًّا وأكثرُ إقناعًا إلى حد بالغ؛ ألا وهو تغيير الجنس. حين يكون ذلك ممكنًا، يكون فعالًا تمامًا؛ إذ من شأنه إحداثُ تغيُّر ملحوظ في الشكل باستخدام وسائلِ تنكُّر فعلية قليلة جدًّا. كما أنه يجعل تغيير الشكل أقلَّ أهمية؛ إذ إن تغيير الجنس يخلق شخصية جديدة. إن جون دو امرأة في نظر معارفه الجدُد، وإن قابله أحدٌ منهم لاحقًا، فسيمرُّ الشبهُ بينه وبين تلك المرأة مرورَ الكرام.

فضلًا عن ذلك، فإن الصرعات الحاليَّة تُلائم مثل ذلك الانتحال. فالنساء يُصفِّفن شعورهن بطرقٍ شتى، بدءًا من قصه ليصيرَ قصيرًا جدًّا، وحتى تركه ينمو ككتلة من

الوبر؛ ولا يُموِّجنَه أو يعقصنه بطرق صناعية فحسب، بل يصبغنه ويقصرن لونه، ويفعلن ذلك علانيةً دون أن تلتفتَ إليهن الانظار. هناك أيضًا التبرج المبالغ فيه، وهي صرعة منتشِرة ومعتدٌّ بها؛ الشفتان المطليَّتان بأحمر الشفاه، والوجنتان المخضَّبتان والمغطَّاتان بالمساحيق، والرموش المزيفة والحاجبان المحددان بقلم الحواجب. كل ذلك يُغير الشكل على نحوٍ جوهري، وبالحيلة يمكن أن يُغيره تمامًا. فبمجرد أن يرتديَ رجلٌ زي امرأة ويتخذَ تصفيفةَ شعر نسائية، مع بعضٍ من أحمر الشفاه وقلم تحديد الحاجبَين، سيكون متنكرًا بدرجة كبيرة في الحال؛ وربما يكون ذلك كفيلًا بأن يجعله يمرُّ على مَن يعرفونه معرفة طفيفة دون أن يعرفوه؛ وإن كان له لحيةٌ أو شارب فيما سبق، فسيتبدل مظهره تمامًا. حتى أصدقاؤه المقربون لن يعرفوه.

لكن تلك الطريقة تخضع لقيودٍ صارمة للغاية. فسيتعذر تطبيقها على أنواع معينة من الرجال. فلن تكون مناسبةً بالمرة لرجلٍ طويل القامة. فامرأة طولها ستة أقدام ستكون لافتةً للنظر نوعًا ما؛ ولفتُ الأنظار هو ما سيحتاج رجل متنكر في هيئة امرأة إلى أن يتجنَّبه. أيضًا تكاد تستحيل على رجل أسمرِ البشَرة والشعر؛ إذ لن يُخلصه أيُّ قدرٍ من الحلاقة من اللحية الداكنة، ولن تُفلح مساحيقُ التجميل أو التلوين في إخفائها. وكذلك ستكون مستحيلة على رجلٍ له صوتٌ جَهْوريٌّ خشن. فمن العسير تغييرُ الصوت لدرجة محسوسة، وأي اشتباه في تصنُّع الصوت سيَلفِت الانتباه. وثمة سماتٌ خاصة أخرى كالأنف الضخم أو غزارة شعر الصدر أو الأطراف، ستُمثل صعوبات.

والآن لنرَ أي نوع من الرجال سيكون ملائمًا حقًّا، متذكِّرين أن الهدف هو خلقُ امرأة من النوع العادي ذات مظهر غير لافتٍ للانتباه. سيكون نقيضًا لتلك الأنواع التي استبعدناها؛ أي إنه سيكون رجلًا ضئيل الجسد، نحيلًا، أشقرَ له ملامحُ دقيقة نوعًا ما، وصوت رقيق، وليس لديه شعرٌ غزير على صدره أو أطرافه. رجل بتلك الصفات إنْ حلقَ لحيته مرتين يوميًّا واستخدم مساحيقَ التجميل بحِكْمة، فربما يبدو كامرأةٍ ذات مظهر عادي للغاية؛ شريطةَ أن يترك شعره ينمو بالقدر الكافي لكي يتخذ شكلًا نسائيًّا ما، قبل أن يظهر بشخصيته الجديدة. وبالضد، إنْ شك أحدٌ في أن امرأةً ما هي رجل متنكِّر، فبإمكانه أن يفترض أن الرجل الذي يبحث عنه هو من ذلك النوع، ومثلُ هذا الشك قد ينشأ على نحو منطقي إن اختفَت امرأةٌ إلى الأبد بعد ارتكابها جريمة مباشرة.»

قلت: «كنتُ أظن أن الصوت كان ليُشكل صعوبة.»

رد قائلًا: «أظن أنك تُبالغ في تقدير تلك الصعوبة. فثمَّة أصوات تكون ذكورية أو أنثوية بوضوحٍ تام؛ لكن ثمة أصواتٌ كثيرة أخرى — أعتقد أن عددها أكبرُ مما نتصوَّر — ليست مميزةَ الجنس على الإطلاق. فلا يوجد اختلافٌ كبير للغاية بين صوت أنثويٍّ عميق، بخاصة إن كانت نبرةُ الصوت الخفيضة هي المستخدَمة في العادة، وصوتٍ رجالي رقيق. فعند سماع صوتٍ كهذا آتٍ من غرفة أخرى، غالبًا ما يصعب الجزمُ إن كان صاحبه رجلًا أم امرأة. الحقيقة أن أفكارنا مبنيَّة على القوالب المتطرفة أو النموذجية.

الآن لنعُدْ إلى نقاشنا. نحن لم ننظر إلا في التنكُّر الماديِّ فحسب؛ أي تغيير المظهر الخارجي. لكن يوجد أيضًا ما قد نُطلق عليه التنكُّر النفسي؛ وهو اتخاذ عادات وأنماط سُلوكية نسائية، وخلق ظروفٍ تدلُّ على شخصية أنثوية. تلك الأمور من شأنها أن تُؤدي مهمتَها بالإيحاء، وتترك لدى الرائي قناعةً راسخة بجنس المنتحِل، وهذه القناعة تكون أقوى لأنها تحدث لا شعوريًّا. لكن الأكثر إقناعًا مما سِواه هو إقامة علاقة غرامية مع رجل، ويُفضَّل أن تكون علاقة فاضحة بعضَ الشيء وتُثير الأقاويل. فالتأثير الإيحائي لهذا سيكون شديدًا. فسيكون من شأنه أن يقطع الطريق تمامًا أمام أيِّ تساؤل محتمَل عن جنس المنتحِل.

بالمناسبة، بإمكاننا أن نُشير إلى أنه سيكون من الحكمة أن يحدَّ ذلك الأخيرُ تعاملاته مع النساء قدر الإمكان؛ فالنساء لديهنَّ دراية عميقة بأساليب بنات جنسِهن، وربما يُلاحِظْن تباينًا ما في عادةٍ أو سلوك قد يقع فيه رجلٌ بسبب جهله بتلك الأمور.

والآن بعد أن بحثنا طريقة «الشخصية الخيالية» نظريًّا، صار بإمكاننا أن نبدأ في تطبيقها عمليًّا على قضية الموقر شيلر.»

سكَت ثورندايك كي يُولي ضيوفَه بعض لفتات الاهتمام البسيطة. ثم بعد أن أعَدْنا ملء الكئوس والغلايين، وبعد أن أنعش بولتون نفسَه بذرَّة من النشوق، شرع في سرد روايته.

الفصل الثامن عشر

مراجعة التحقيق

بدأ ثورندايك روايته قائلًا: «سيكون من التناقض أن أقول إن حلَّ المكيدة المعقَّدة لمقتل لوتا شيلر بدأ قبل ارتكاب الجريمة؛ لكن الحقيقة هي أنه كلَّما تنامى إلى علمي أحد التطورات الأخيرة، كان يجد لديَّ مجموعة من البيانات المعتبرة ذات علاقة بحلِّ المسألة المطروحة. في البداية، لم يكن هذا التحقيقُ غيرَ منهجي. فحتى عرض عليَّ بينفيلد قضيته، كنتُ مجردَ مُشاهِد، أراقب بأكثرَ من مجردِ اهتمام أكاديمي تَكشُّفَ سلسلة من الأحداث لا تعنيني شخصيًّا. من ثَم، حين أُثِيرتْ مسألةُ افتراض الوفاة، لم أحتج إلى أن أبتدئَ تحقيقًا من الصفر، كل ما كنت أحتاج إليه هو اختبار الاستنتاجات التي كنتُ قد كوَّنتها بالفعل والتحققُ منها.

بالنسبة إليَّ، كانت نقطة البداية هي مقتل تشارلز مونتاجو. المثير للاهتمام في تلك الجريمة من منظور الطبِّ الشرعي هي الطريقة غير التقليدية التي لجأ إليها القاتل؛ إعطاء المقتول السمَّ عنوة. لكن كان ثَمة عناصرُ أخرى مثيرةٌ للاهتمام، وبفضل حماس بولتون، ظللنا على اطِّلاع تامٍّ بجميع ما يُنشَر من وثائقَ وبيانات بشأن تلك القضية. كنا نعرف التفاصيل المريعة للجريمة والفنان الغامض الذي وقع تحت طائلة الاشتباه في بادئ الأمر، وتقريرًا كاملًا عن وقائع جلسة التحقيق؛ لكن الأهم من كل ذلك، كان لدينا لوحة بيدلي الصغيرة المميزة التي رسمها لغابة جريفل-بيت.

كان لتلك اللوحة وقْعٌ قوي عليَّ. ها هي تستقر على رف المدفأة، وإن أمعنتم النظر فيها، أعتقد أنكم ستُدرِكون تأثيرها عليَّ. إنها تُصوِّر هيئات ثلاثة أشخاص؛ الأول، وهو الرجل الطويل، تعرَّف عليه بلاندي بأنه تشارلز مونتاجو؛ وهنا نراه يسير إلى حتفِه. الرجل القصير هو حتمًا القاتل، وبوُسعنا أن نراه هنا يقود ضحيته إلى المكان المحدَّد. لكن الهيئة التي كان لها الوقع الأكبر في نظري كانت هيئة المرأة. مَن كانت، وما سبب

وجودها هناك؟ من الواضح أنها كانت تتنصَّت على الرجلين، وتُحاول سماع ما يقولانه فيما يبدو. كان الاحتمال القوي هي أنها على صلةٍ بأحدهما؛ ولَمَّا لم تَمثُل للإدلاء بأيِّ معلومات، كان الاستنتاج الطبيعي أنها على صلةٍ أو علاقة ما بالرجل القصير. فلو كانت على صلة بمونتاجو، لكانت وشَت بالقاتل بلا ريب.

لكن فوق كلِّ ذلك، ما وقع في نفسي هو الوضع المريع التي وضعت تلك المرأةُ التعيسة الحظِّ نفسَها فيه؛ المأزق المخيف الذي وقعَت به. فقد كانت حياتها معلَّقة بخيط؛ خيط صمتها. حتى لو لم تكن قد شهدت جريمة القتل فعليًّا، فهي تعرف قطعًا مَن يكون القاتل. كلمة منها كانت كفيلةً بلفِّ حبل المشنقة حول عنقه؛ وهي الوحيدة في العالم مَن يملك تلك المعلومةَ الخطيرة. كان موقفها مريعًا. فالرجل ارتكب جريمته ثم اختفى دون يترك وراءه أيَّ أثر. لا بد أنه كان يعتقد أنه بمأمنٍ تام؛ لكن في الواقع، كانت حياتُه في يدَي هذه المرأة. إن تسرَّب طرَفٌ من الحقيقة، فستُصبح في عداد الموتى. الوحشية الضارية لتلك الجريمة جعلَت ذلك أكيدًا لا محالة.

لا بد أن أُقِرَّ بأن التفكير في الأخطار التي كانت تحيق بتلك المرأة التعيسة الحظِّ أثار لديَّ قدرًا كبيرًا من القلق، كان يتجدد من حينٍ لآخرَ كلما كنتُ أرى تلك اللوحة معلَّقة في غرفة بولتون، وكان يُلازمني تَرقبٌ مقلق لسماع نبأ مقتل امرأة عاجلًا أو آجلًا، وتتحقَّق هواجسي. لكن مرت الشهور، وبدأت آمُل في أن المرأة كان لديها من الحكمة ما جعلها تحتفظ بالسر، وأن يكون الخطر قد ولَّى.

ثم أخيرًا، جاءت جريمة مقتل إيما روبي، وعلى الفور أُثيرت شكوكي. كانت جريمةً مسرحية غيرَ مألوفة لها العديدُ من السِّمات الغريبة؛ لكنَّ السِّمة التي جذبَت انتباهي على الفور كانت الطريقةَ التي لجأ إليها القاتل؛ وهي إعطاؤها السمَّ عنوة. فتلك لم تكن فحسب الطريقةَ نفسَها التي استعملها قاتلُ مونتاجو؛ بل كان السمُّ المستخدَم هو نفسَه أيضًا.

حين نضع في الاعتبار الآن ميلَ المجرمين المتأصِّلَ إلى تَكرار أساليبهم، يتبينُ لنا أن هذا التشابه في الأسلوب يُشير على الأقل إلى احتمال أن يكون قاتل إيما روبي هو نفسه قاتل تشارلز مونتاجو؛ وإن قَبِلنا ذلك الاحتمال، فإنه يضعُنا أمام احتمالٍ آخر وهو أن إيما روبي المسكينةَ ربما كانت هي المرأةَ الموجودة في تلك اللوحة. بالطبع لم يكن ثَمة دليل على ذلك؛ كل ما يمكن قولُه هو أنهما كانتا تتشابهان كثيرًا في الجانب الوحيد الذي يمكن المقارنةُ بينهما فيه، وهو لون الشعر الذي كان متشابهًا إلى حدٍّ بعيد، حتى إن المرء كان

ليحسبهما الشخصَ نفسه. اضطُررت إلى أن أدعَ الأمر عند تلك النقطةِ حينها. انتظرتُ آمِلًا أن تُكتشَف هُوية إيما روبي، على افتراضِ أنه حين يحدث ذلك، فإنه سيضعُنا على أرض الواقع. لكن هُويتها لم تُعرَف قط، وبعد فترةٍ من الزمن قررت، وكذلك فعلَت الشرطة حسَبما أظن، أن إيما روبي كان اسمًا مستعارًا وأن النقش على ملابسها كان مدسوسًا عن عمدٍ بغرض تعقيد الأمور. لكن هُويتها الحقيقية ظلَّت لغزًا.

والآن نأتي إلى سمةٍ مميزة أخرى لهذه الجريمة الغريبة. وأعني هنا غياب أيِّ محاولة حقيقية لإخفاء هُوية مرتكبها.»

قلتُ مذكرًا إياه: «أنَسيتَ الباب الموصَد والإيعاز المُحكَم بفكرة الانتحار؟»

أجاب قائلًا: «كلا، لكني لا أعتبرهما محاولةً جدِّية. فالشرطة لم تُسلم بفكرة الانتحار ولو للحظةٍ واحدة، وأنا كذلك. فالملابسات كلُّها كانت تصرخ: «جريمة قتل». ويبدو كذلك أن القاتلة لم تتوقع أن تلك التمثيلية ستكون مقنِعة، وإلا لتظاهرَت باكتشاف الجثة واستدعَت الشرطة بنفسِها. لكنها لم تكن لتُقدِمَ على تلك المخاطرة، بل سلكت النهجَ الأكثر حِكمة وهو الفرار من العدالة، وبذلك تخلت صراحةً عن تمثيلية الانتحار.»

قلت معترضًا: «لكن، لِمَ دبَّرت تلك التمثيلية من الأساس؟»

أجابني قائلًا: «يبدو لي أنه كان ثَمة غرضان منها. الأول أنها كانت «محاولة»؛ رِهان على الفرصة الضئيلة لقَبول ادِّعاء الانتحار. نظرة المجرمة إلى تلك الفرصة يُمكن الحكم عليها من حقيقة أنها لم تمكث حتى تتأكَّد من نجاحها أو عدمه. بل آثرَت إثبات الجُرم على نفسِها بالهرب. أما الدافع الآخر، فسنتطرق إليه بعد قليل.

عودةً إلى الجريمة؛ أُكرر أنه بخلاف تمثيلية الانتحار، لم تُبذَل أي محاولة لإخفاء هوية القاتلة. فالجثة وُجِدَت داخل غرفة لوتا شيلر، التي أُوصِد بابها بمِفتاح لوتا شيلر، أما لوتا نفسُها فلا أثر لها في أي مكان. وفور أن تقرَّر أنها جريمةُ قتل، كانت لوتا هي القاتلةَ البديهية المحتملة. فهي وحدها مَن كانت تستطيع الولوج إلى الغرفة السكنية، ولم تطل أيُّ شكوك أحدًا سِواها. كل ما تبقى للشرطة أن تفعله هو اعتقالها وتقديمها للمحاكمة.

لكن لوتا اختفت، ورغم البحث المكثَّف والنشِط للشرطة عنها، فشلت في العثور على أيِّ أثر لها. والآن، كما أشار جيرفيز منذ قليل، ليس من اليسير جدًّا، في ظل انتشار الهواتف وأجهزة المذياع، وفي ظل وجود مؤسسة شرطية محكَمة للغاية، أن يختفيَ شخصٌ معروف دون أن يترك أيَّ أثر؛ لا سيما إن كان شخصًا لافتًا للانتباه نوعًا ما، مثل

لوتا شيلر. ومع ذلك، لم يُعثَر على أي أثر لها حتى لحظةِ العثور على حقيبة اليد في غابة إيبنج.

أنا أميل إلى اعتبار دسِّ تلك الآثار في الغابة خَطأً تكتيكيًّا. فالشرطة لم تنخدع بها قط، مع أن بلاندي أجرى بحنكة شديدة بحثًا مستفيضًا للغاية كي يحسم تلك المسألةَ نهائيًّا. بالطبع أدى عدمُ وجود جثة إلى إفشال تلك الخطة. لو أنَّ جريمة قتلٍ قد وقعَت، لكان لِزامًا العثورُ على جثةٍ داخل المعسكر، ولما عُثِر على تلك الأدلة المختارة بعناية؛ والآثار الظاهرة كان مِن الممكن لشخص واحد أن يصنعها باستخدام حذاءين مختلفَين بسهولة شديدة. كان وقعُها الوحيد على الشرطة هو ترسيخَ قناعتهم بأن لوتا مذنِبة، وحثهم على بذل المزيد من الجهود للعثور عليها.

لكن كما تعرفون، باءت مَساعيهم بالفشل الذريع، مع أن البحث لم يتوقَّف كليًّا قطُّ في العامَين التالِيَين؛ إذ إن شرطة سكوتلاند يارد تملك ذاكرةً طويلةَ الأمد ولا تستسلم للهزيمة بسهولة. ومع ذلك، وبرغم كل هذا البحث طويل الأمد، لم يظهر أدنى أثرٍ للوتا شيلر.

هذا كل ما يخصُّ الجريمة نفسَها. الآن لنرَ كيف بدَت تلك التطورات لمشاهدٍ محنَّك ولديه اهتمامٌ شديد بالأمر. في نظري، كانت الحقيقة الأكثرُ دهشةً هي تلك التي ذكَرتها للتوِّ؛ إقرار المجرمة فعليًّا بارتكاب الجريمة. فبخلاف مشهد الانتحار الذي دُبِّر بغيرِ إتقان، والذي من الواضح أن القاتلة لم تكن تُعوِّل عليه، لم يُبذَل أي جهد لتبرئة ساحةِ لوتا شيلر من جريمة القتل؛ بل كاد يبدو وكأنَّ مسئولية الجريمة أُلقِيَت عمدًا عليها.

هذا التصرف غيرُ المكترِث لدرجةٍ غريبة أثار اهتمامي بشدة. فما عساه أن يعني؟ تلك لم تكن جريمةً عفوية تبعها هروبٌ غير متعمَّد. بل كانت جريمة خُطِّط لها بعناية، دُبِّرَت خطواتها ودُرِسَت سلفًا. التفسير الوحيد الذي لاح أمامي هو أن لوتا شيلر لم تكن في خطر على الإطلاق، وأنه قبل ارتكاب الجريمة، دُبِّرت وسيلة للهرب، وكانت وسيلةً آمنة للغاية جعلَت اتخاذ أيِّ احتياطات أخرى أمرًا غير ضروري. وأعتقد أنه هنا يتبين لنا الدافعُ الأساسي من تزييف الانتحار؛ وهو مواراة ثقة المجرمة في حَصانتها من خطر اكتشاف أمرها.

لكن ماذا عساها تكون وسيلةُ الهرب المنيعة تلك؟ لم يخطر ببالي سوى واحدة؛ وقد كانت الوقائع تتسق معها تمامًا حتى إنني اعتمدتُها كفرضية عملية. قررت أنني، ولأول مرة في مسيرتي المهنية، في مواجهة مجرم طبَّق على أرض الواقع طريقةَ الشخص الخيالي

التي ابتكرتها، وأن لوتا شيلر هي شخص متنكِّر صنع لنفسِه شخصية خيالية ثم تخلَّص من التنكر ببساطة بعد أن ارتكب جريمته، ومن ثَمَّ لم يعد لتلك الشخصية وجودٌ فعلي.

سترون كيف تتَّسق هذه الفرضيةُ مع جميع الملابسات وتُفسرها. لقد كانت نسخةً مطابقة من قضية جون دو. فبصفتِه لوتا شيلر التي ينتحل شخصيتَها، يستدرج القاتلُ ضحيته إلى مسكنِه، الذي كان قد جهَّز كلَّ شيء فيه، ويرتكب جريمتَه بسهولة دون أن يكون مُهدَّدًا بأن يزعجه أو يُقاطعه أحدٌ، ويُزيل أي آثار تُدينه، ويُرتِّب، كما حدث في هذه القضية، مشهدَ الانتحار الزائف، ثم يخلع تنكُّره، هذا إن لم يكن قد خلعه بالفعل، وبعد أن يكون قد عاد إلى شخصية جون دو، يراقب دونَ قلقٍ مطاردةَ الشرطة للوتا شيلر التي لا وجود لها. لو كان حكيمًا بمعنى الكلمة، لترك الأمر عند ذلك الحد؛ لكنه لم يكن كذلك، فاختار أن يرتكب تلك الحماقةَ في غابة إيبنج وبهذا منَح الشرطة إيحاءً لم يكن ضروريًّا بأنَّ ثَمة خدعة.

بعد أن سلَّمتُ بهذه الفرضية، سألتُ نفسي سؤالًا آخر: بافتراض أن لوتا شيلر هي شخص متنكِّر، مَن عساه يكون ذلك الشخص حقيقةً وما جِنسُه وما طبيعة تنكُّره؟ هل هي امرأة حقًّا، أم رجل متنكِّر في هيئة امرأة؟ لعدة أسباب، استقررتُ على أنه على الأرجح كان رجلًا. أولًا، وكما أوضحت لتوي، تغيير الجنس هو تنكُّر أسهل بكثير وأكثرُ كفاءة من أيِّ نوع آخر من التنكُّر؛ لكونه تنكرًا طويلَ المدى. ثم إن الجريمة بدَت جريمةً من فعلِ رجل. فالقتل بالسمِّ هو في الأساس أسلوبٌ مميز للنساء؛ لكن ليس إن أُعطِيَ السمَّ عنوة. فهذا يتطلَّب قدرًا من القوة البدنية لضمان إمكانية إتمام الجريمة. ثم هناك نقطة صغيرة مثيرة للاهتمام ظهرَت في أقوال الشهود أثناء جلسة التحقيق، وبدَت لي كاشفةً للغاية. فقد أقسم فاندربوي، في سبيل إثبات أن طبيعة علاقته بلوتا لم تخرج عن إطار اللياقة، على أنه لم يُقبِّلها قط، وأنها كانت من جانبها تمنع تمامًا أيَّ أفعال حميمية من ذلك النوع.

والآن إن افترضنا أن لوتا كانت امرأة، سيكون هذا غريبًا نوعًا ما، باعتبار أن علاقتهما كادت أن تكون علاقةً بين حبيبَين. لكن إن افترضنا أن لوتا كانت رجلًا، فسيكون من السهل جدًّا تفسيرُ ذلك التصرف الخارج عن المألوف. فاللحية الشقراء إن حُلِقَت بعناية، يُمكن جعلُها غيرَ ظاهرة على الإطلاق. لكن لا يمكن جعلها غيرَ محسوسة. فبواسطة حاسةِ اللمس — بخاصة عند الملامسة بواسطة الشفتين اللتين تتميَّزان بالحساسية —

سيُكتشَف على الفور شعر اللحية النابتُ غيرُ المرئي. لذا في مثل هذه الحالة، سيكون لِزامًا تجنُّبُ المداعبات الحميمية الجسدية تمامًا.

كان الوضع إذن في هذه المرحلة، حسَب اعتقادي، أن قاتل إيما روبي كان رجلًا مجهولًا لم يكن بوُسعي حتى تخمين هُويته. فقد اختفى دون أن يترك أثرًا؛ أو أحرى بي أن أقول دون أن يترك سِوى آثارٍ مضلِّلة في صورة امرأةٍ معروفة لكن لا وجود فِعليًّا لها.

لكن تظل معضلة إيما روبي نفسُها قائمة. بمرورِ الوقت، وفشلِ الشرطة في اكتشاف وجود أي امرأة مفقودة تحمل ذلك الاسمَ، بدأتُ أُفكِّر في أننا على الأرجح أمام شخصية خيالية أخرى، وأن تلك الملابس التحتية المُنقوشة بالحرفين الأوَّلَين كانت «مدسوسة»، وأنه لا يوجد أي شخص يُدعى إيما روبي. لكن إن كانت كذلك، فمن تكون المرأةُ المقتولة إذن؟ مرة أخرى، كان من المستحيل حتى تخمين هويتها؛ مع أنه في ذلك الوقت حين كنتُ أنظر من حينٍ لآخرَ إلى اللوحة المعلَّقة في غرفة بولتون، كنت أسأل نفسي إن كان من المحتمل أن تكون هاتان الشخصيتان المجهولتان في اللوحة هما إيما روبي وقاتِلَها.

لكن ذلك كان مجردَ تخمين. لم يكن بوُسعي اختبارُ صحته أو التحقُّق منه ولم يَقُدني إلى أيِّ شيء. بعد مرور شهور دون أن تنكشفَ أي حقائق جديدة، بدأ يتراءى لي أن جريمة شارع جيكوب ستُضاف إلى القائمة الطويلة من الجرائم الغامضة التي لم تُحَل. وهكذا، تُرِك الموضوع لسنتَين. ثم جاء السيد بينفيلد، وبدخوله إلى المشهد، تبدَّل دوري من مشاهد لا علاقةَ له بالأمر إلى محقق مُفَوَّض.

لم يكد بينفيلد ينطق ببضع عبارات، حتى أدركتُ أننا بصدد الحصول على معلومات جديدة مهمَّة بشأن تلك المسألة؛ إذ كنا بذلك قد انتقلنا إلى عالم الحقائق حيث التحرياتُ المنهجية ممكنة. لكني ألمتُ بعدة حقائقَ كاشفةٍ من بينفيلد نفسِه أثناء عرضه لقضيته. لنرَ ما هي تلك الحقائق.

أولًا: عرَفنا أن لوتا شيلر شخصٌ حقيقي. لكن قضية بينفيلد كان بها شخصان باسم لوتا؛ واحدة منهما، تاركةً الوصية، هي لوتا الحقيقية، والأخرى، تلك التي كانت تسكن بالمنزل رقم ٣٩ بشارع جيكوب، كانت تنتحل شخصيتَها.

ثم عرَفنا أن ثَمة رابطًا ما بين لوتا وتشارلز مونتاجو. طبيعة ذلك الرابط لم يكن واضحًا، لكنْ بالتأكيد كان ثَمة صلةٌ بينهما من نوعٍ ما.

كذلك عرَفنا أن مونتاجو قد تعرض للابتزاز فيما يبدو، وأنه كان يُعتقَد أن عملية الابتزاز كانت لها صلةٌ ما بجريمة القتل.

ثم كان بوسع بينفيلد أن يُعطيَنا عنوان المسكن الذي كانت لوتا تستأجره حين وردَ عنها خبرٌ آخر مرة، وعرَفنا الحقيقة المهمة التي تُفيد بأن ذلك المسكن المستأجر كان قريبًا من غابة جريفل-بيت.

أخيرًا، قدَّم لنا بينفيلد وصفًا للوتا. كان وصفًا سطحيًّا إلى حدٍّ كبير، لكنه مع ذلك، بدا متسقًّا بوجه عامٍّ مع ما نعرفه عن شكل لوتا مستأجرةِ المسكن (كما سنُشير إليها من باب التيسير، كي نُفرق بينها وبين تاركة الوصية التي سنُشير إليها باسم لوتا فحسب). لكنه كان يتفق بالدرجة نفسِها مع المرأة التي في الصورة ومع وصف أولدفيلد لإيما روبي.

ها هي إذن معلوماتٌ جديدة قيِّمة؛ وفور أن تفاهمتُ بصفة نهائية مع بينفيلد، شرَعت أصنِّف الحقائق وأسعى للاستزادة منها. بدأت بالاطلاع على وصية لوتا في السجلِّ المدني بسومرست هاوس ومحاولةِ حفظ توقيعها في ذاكرتي، وكإجراء روتيني، حصَلتُ على نسخةٍ من وصيتي مونتاجو وباربرا دالتون. لم تُضف لي وصيةُ ذلك الأول جديدًا، أما وصية باربرا فلم تُضف سوى حقيقةٍ تافهة تبدو في ظاهرها بلا أيِّ أهمية؛ ألا وهي أنها أوصَت بجميع مقتنياتها إلى أختِها ليندا، باستثناء كمانها، الذي تركَته للوتا؛ وكان الاستنتاج المنطقيُّ من ذلك هو أن لوتا تُجيد العزف على الكمان. لكن مع ملاحظتي لتلك الحقيقة، لم أرَ لها أيَّ صلة بتحرِّياتنا.

وحينها سألتُ نفسي السؤالَ المهم حقًّا: هل كانت المستأجِرة القاطنةُ بشارع جيكوب هي نفسُها لوتا صاحبةَ الوصية؟ كان المصدر الأرجح للحقائق ذاتِ الصلة هو السيدَ توماس بيدلي، وبناءً عليه، تواصلت معه دونما تأخير، وبعد أن تلقَّيتُ منه دعوة كريمة بالزيارة، حلَلتُ عليه ضيفًا وصديقي جيرفيز في الموعد المحدد.

لا بد أن أُقِر بأنه أيًّا كانت توقُّعاتي، فقد فاقت نتائجُ تلك المقابلة أقصى طموحاتي منها. فقد كان توم بيدلي منجمَ معلومات. كان ملاحظًا من الدرجة الأولى، ويتمتع بذاكرةٍ لا تُمحى، وموهبةٍ لا تُقدَّر بثمن في نقل معرفته عبر الرسم. لا داعي للخوض في التفاصيل؛ إذ إن معظمها معروفة لكم بالفعل، لكني سأذكر النتائج بالترتيب.

أولًا: عرَفنا أن لوتا المستأجرة كانت فنانة زائفة؛ زائفة تمامًا، ومدَّعِية بالكلية. افترض بيدلي أنها تعمَّدَت الادِّعاءَ لسببٍ مجهول له. وكانت هذه حقيقةً مهمة؛ إذ إنها عند ذلك الحدِّ على الأقل، كانت تنتحلُ شخصية مزيفة.

ثانيًا: عرَفنا أنه على الرغم من أن صداقةً وطيدة نوعًا ما ربطَته بها لعدةِ أشهر، لم يكن بيدلي يعلم أيَّ شيء على الإطلاق عن ماضيها أو أصدقائها أو أقربائها، إلا أن لها زوجًا غامضًا. كانت كَتومة حدَّ السرية بشأن كلِّ ما له صلةٌ بها.

ثم عرَفنا حقيقتين مهمتين للغاية. كانت إحداهما أن توم لم يرَ قط خطَّ يدِها، ولا أي أحد غيره فيما يبدو؛ إذ لم تُراسل توم أو فاندربوي مطلقًا، وتجنبت استخدام الشيكات بدفع إيجارها نقدًا. حتى لوحاتها لم تكن تُوقِّعها. أما الأخرى، فهي رفضُها المتعنِّت لأن تُرسَم صورتُها أو تُلتقَط لها صورةٌ فوتوغرافية من أجل وضعها في القِلادة، هذا بجانب حقيقة أن الصورةَ التي رسمَتها لنفسِها لم تكن تُشبهها على الإطلاق. الدلالة الكبرى لهاتين الحقيقتين هي أنه حين اختفَت المرأة، اختفت معها كلُّ الآثار الدالةِ على شخصيتها أيضًا (كما كانت تظن هي). فلم تترك خلفَها صورةً شخصية يُمكن أن تُعرَض أو تُدرَس، أو تُقارَن بأي شخص معروف، أو قُصاصة مكتوبة بخطِّ يدها، ولا حتى ذكرى له، كي تُقارَن بالخطابات أو المستندات. هاتان الحقيقتان مجتمعتان كانتا تُشيران بوضوح إلى استعدادٍ للاختفاء.

كان للصداقة القسرية والإظهار البيِّن للعاطفة — الذي كان شفهيًّا تمامًا دون أن يُصاحبه أيُّ قبلات أو ملاطفاتٌ جسدية — دلالةٌ مهمة، لا سيما أنه لم يَبدُ أنه كان للمرأة أصدقاء آخَرون حتى وصل فاندربوي وصار هدفًا لعلاقةِ حب أفلاطونية مماثِلة. لكني سبق أن أشرتُ إلى قيمة المغازلة باعتبارها داعمًا للتنكُّر «بتبديل الجنس».

والآن نأتي إلى أمر الوصف ودفتر الملاحظات الذي لا يُضاهى. لقد كان وصفًا متقَنًا للغاية، وبالنسبة لي كانت غنيمةً غيرَ متوقعة. فإذا صحَّت شكوكي بأن لوتا المستأجِرةَ هي رجلٌ متنكر في هيئة امرأة، فسيكون ذلك الوصف الزاخر بالتفاصيل الدقيقة هو وصفًا لذلك الرجل نفسِه في الأساس. وهكذا عرَفنا أن طول المرأة كان نحو خمسِ أقدام وسبعِ بوصات دون حذائها ذي الكعب العالي، وأنَّ لها أذنَين لهما شكل مميز (أعطانا توم رسمًا لهما)، وأن لون عينيها عسلي مَشوب بخُضرة. كانت تلك سماتٍ لا يمكن لأي تنكُّر أن يُغيِّرها بدرجةٍ محسوسة. لذا كان ذلك يعني أن الرجل، إن كان له وجود، فلا بد أن طول قامته نحوُ خمسة أقدام وسبع بوصات، وأن أذنيه لهما ذلك الشكلُ المميز وعيناه عسليتان مَشوبتان بخُضرة. لكن توم استطاع أن يدعم ذلك الوصفَ برسمٍ بارع من الذاكرة لم تكن لوتا على دراية بوجوده.

لكن الغنيمة الحقيقية كان الشعر. ففور أن سمعتُ وصف توم له، أدركتُ أننا حصَلنا على وسيلة للتعرف عليه على نحوٍ قاطع وأكيد؛ إذ كانت قِلادةُ فاندربوي تحتوي على عيِّنة أصلية كان بالإمكان فحصُها. فقد كانت له طبيعة شاذة غيرُ تقليدية. اشتبهتُ في أنه مرضُ الشعر المحلقن؛ إذ لم يَبدُ أن ثمة احتمالًا آخر؛ لكن أيًّا ما كان، فسيكشف المِجهَر طبيعتَه. وهكذا حصلنا على دليل غير متوقع تمامًا.

لكن ذلك لم يكن الدليلَ الوحيد. فقد انكشف أمرٌ آخر ذو أهمية كبيرة وغير متوقعة حينما كان يُناولنا توم دفترَ ملاحظاته؛ إذ أطلَعَنا على بصمات أصابع إيما روبي المسكينة. لم يبدُ أنَّ لها أيَّ أهمية إذ إن المرأة تعيسةَ الحظ كانت قد تُوفِّيت وُورِيَت الثرى، لكني نظرتُ إليها كي أرى نتيجة طريقة بولتون المرتجلة؛ حينها اكتشفت اكتشافًا مثيرًا للاهتمام. فقد أظهرَت بصمات الأصابع أن إيما روبي كانت عازفة كمان.»

قاطعه فاندربوي بحماس قائلًا: «وكيف أظهَرَت ذلك؟»

أجاب ثورندايك قائلًا: «عبر آثار الضغطِ والاحتكاك على الأنامل. لا تنس أن بصمات الأصابع تُبيِّن أشياء أخرى بجانب نمطها المميز؛ على سبيل المثال وجود أجزاء سميكة في طبقة الجلد السطحية نتيجةً لاستخدام اليدَين بطرقٍ معيَّنة. وهكذا، فإن عازفةَ كمان محترفةً أو عازفةً تعزف بانتظام، سيظهر على أطراف الأصابع الأربعة من يدها اليسرى التي تستخدمها في تثبيت الأوتار رُقَع غليظة؛ أو جسآت صغيرة في الواقع. تلك الجسآت لا تظهر على أصابعِ من يعزفون عَرَضًا؛ لذا فهي تدلُّ على عازفٍ محترف أو جادٍّ. والآثار التي تتركُها على بصمات الأصابع مميزة جدًّا؛ إذ إنها تكون بارزةً عن السطح العام، ونظرًا إلى صلابتها، يميل نمطُ البصمات إلى التآكُل حتى الاستواء. بالمناسبة، هي لم تكن مميزةً بوضوح على الإطلاق؛ بل كانت مجرد رُقَع صغيرة مطموسة في منتصف كلِّ بصمة. لكنها كانت واضحة ولا تُخطئها عين، وكانت تُثبت دون أي مجال للشك أن إيما روبي كانت عازفةَ كمان تعزف بانتظام.

لكن أهمية ذلك الاكتشاف لم تكن قد ثبتَت بعد. كنت قد استنتجتُ أن لوتا شيلر كانت عازفةَ كمان؛ لكنه استنتاجٌ ربما كان خاطئًا. في الوقت نفسه، كانت الأدلة، على قلتها، تدعم احتمالَ كونِ لوتا شيلر وإيما روبي شخصًا واحدًا.

كانت هذه هي الحقائق الأساسية التي عرَفناها من توم بيدلي، وسترَون أنها كانت غنيمةً كبيرة؛ إذ إن كانت تلك الحقائق هي الأساسَ لحُجتي. حين غادرنا المرسم، كانت الخطوط العريضة للقضية قد اتضحَت تمامًا في ذهني. بالطبع كانت تلك القضية

افتراضية كليًّا، وربما تكون باطلةً تمامًا. كان الاختبار الوحيد لصحتها أو بطلانها هو إجراءَ مزيدٍ من التحقيق؛ لذا مضيتُ قُدمًا في مهمة التحقق من صحتها.

كانت الخطوة الأولى هي فحصَ القلادة التي تكرَّم فاندربوي بوضعها تحت تصرُّفي. على الفور، أخذتها إلى المعمل وفحصتُها تحت المجهر مع تسليط ضوء قويٍّ عليها من الأعلى. من نظرة واحدة تبينتُ أن الشعرة محلقنة، مع أنه بسبب لونها الفاتح، لم يكن بالإمكان تمامًا تمييزُ الحلقات بالعين المجردة أو حتى بعدسة مكبَّرة ضعيفة. لكن بعدسة مكبرة قوية، كانت واضحة تمامًا؛ وهكذا صار لدينا معيارٌ أكيد يُمكننا بثقة إخضاعُ أي شخص يُشتبَه في أنه لوتا المستأجِرةُ إليه.

لكن كان علينا أولًا إيجادُ ذلك الشخص، وكان علينا البحث عن أدلة إضافية تُثبت إذا كانت لوتا المستأجِرة شخصيةً خيالية أم لا. لكن هذه المسألة كانت وثيقةَ الصلة بمسألة هُوية إيما روبي. فلو صحَّت شكوكي في أن إيما هي لوتا شيلر، فذلك يعني حتمًا أن لوتا المستأجِرة هي شخص آخر. بالتبعية، حوَّلت اهتمامي إلى هذه المسألة، وبدأت بالتثبُّت من آخرِ تاريخ شُوهِدَت فيه لوتا الحقيقية على قيد الحياة. عرَفنا من الإفادات الموثقة للشهود أن أحدًا من أصدقائها لم يرَها بعد أن غادرت مسكنها المستأجَر في لينتون جرين. منذ ذلك الحين، لم يَرِد أحدًا منهم خبرٌ منها حتى ذاع أمرُ اختفائها في الغابة.

لذا كان أول شيء يجب فعله هو معرفه التاريخ المحدد لاختفاء لوتا من مسكنها المستأجَر؛ ولهذا الغرض أرسلت سنوبر العزيز إلى لينتون جرين للتحري عن لوتا من السيدة وارتون، صاحبة المنزل الذي كانت تسكن به لوتا. بدأ بسؤالها إن كان بإمكانها أن تُعطيه عنوان السيدة شيلر الحاليَّ، وهو ما لم يكن بإمكانها بالطبع؛ لكنها عوضًا عن ذلك، ذكرَت له التفاصيل التي سمعتموها في شهادتها.

هذه المعلومات لم تُساعدنا على الإطلاق كما بدا؛ فقد تركَت لوتا مسكنها المستأجَر صباح يوم ١٣ يونيو ١٩٣٠م والمستأجرة لم تظهر في شارع جيكوب إلا بعد شهر من ذلك التاريخ، إذن لا يوجد ما يُوضح أنهما قد لا يكونان الشخصَ نفسه. لذا كان عليَّ البحثُ عن أدلة في مكان آخر، ولم أعرف أين أبحث. كان الموقف مثيرًا للغاية. كانت معي بصمات أصابع إيما روبي، ولو استطعت فقط مقارنتها ببصمات لوتا شيلر، لحُسِمَت المسألة. لكن أين يجب أن أبحث عن تلك البصمات؟ ثمة مكانٌ واحد فقط يُمكن قصده لإيجاد بصمات أصابع الأشخاص المجهولين؛ شرطة سكوتلاند يارد. لكن بدا لي أن البحث عن بصمات أصابع إيما روبي في ذلك المكان لن يُجدِيَ نفعًا. فسواءٌ كانت لوتا

شيلر أم لا، كان يُفترض أنها امرأة محترمة. ومع ذلك، لم يكن من المستحيل تمامًا ألا تكون بصماتُها هناك؛ ولما لم يكن أمامي بديلٌ آخر، ولكي أشعرَ أني لم أترك احتمالًا إلا وتأكدتُ منه، صنعتُ صورةً فوتوغرافية جيدة لبصمات الأصابع الموجودة في دفتر الملاحظات، وتوجهت إلى سكوتلاند يارد متسلِّحًا بها، قاصدًا صديقَنا القديم ميلر. لم يُبدِ اعتراضًا على اصطحابي لقسم البصمات وعرض الصورة الفوتوغرافية التي صنعتها للبصمات على ضابط البحث. وحينئذٍ، حدَثَت المعجزة! كانت بصمات إيما روبي موجودة في مِلفَّاتهم فعلًا؛ وبالطبع كان لديهم كذلك الصورُ الفوتوغرافية التي التُقِطت لها عند سجنها وملخصٌ بالتفاصيل.

في البداية، بدا أن هذا الاكتشاف لم يُساعدنا كثيرًا؛ إذ إن الاسم المرفَق مع صور السجن كان لويزا سوندرز. لم أرَ سوى أنه قد صار لدينا شخص مجهول آخر لا أكثر. لكن تفاصيل القضية كانت كاشفةً أكثرَ بكثير مما أتوقَّع. فقد أشير إلى أن الملابس الداخلية للسجينة كانت منقوشةً بالحرفَين الأوَّلين «إل إس»، وهما يتماشيان مع الاسم الذي أعطَتْه لمسئولي السجن، لويزا سوندرز، ولكنهما اتفقا أيضًا مع اسم لوتا شيلر. غير أن الحقيقة الأكثر دهشة أن لوتا شيلر أُلقِي القبض عليها عصر يوم ١٣ يونيو ١٩٣٠م، وهو اليوم نفسُه الذي تركَت فيه لوتا مسكنها المستأجَر، وبعد أن غادرَته. كان الاتساق تامًّا لدرجة تكاد تكون حاسمة.

لكن كان ثمة اتساقٌ آخَر. فقد علم السيد سنوبر من السيدة وارتون أن لوتا في الواقع كانت عازفةَ كمان محترِفة. لكن بصمات أصابع لويزا سوندرز كان من الواضح أنها لعازفة كمان تعزف على نحوٍ دائم. فآثار الجسآت كانت مميزةً للغاية؛ وعندئذٍ فهمتُ لم كانت آثارُها مبهَمة تمامًا في بصمات إيما روبي. أثناء الفترة التي قضَتها في السجن، ضمرت الجسآت جرَّاءَ عدم الاستخدام وتلاشت تدريجيًّا.

تلك الحقائق التي انكشفت لي لم تدَع في ذهني مجالًا للشكِّ في أن لويزا سوندرز هي في الحقيقة لوتا شيلر، ولما كان من المؤكَّد أن لويزا هي إيما روبي، استتبعَ ذلك أن تكون إيما روبي هي لوتا شيلر. ومن ذلك، لزم أن تكون لوتا شيلر المستأجِرة هي شخصًا آخَر، وكان السؤال، مَن عساه يكون ذلك الشخص؟ والآن صار من الممكن اقتراحُ إجابة لذلك السؤال. من المؤكد أن لوتا لم تكن هي مُرسِلةَ البرقية التي تلقَّتها السيدة وارتون؛ إذ كانت البرقية ستكشف عن عُنوانها الذي رفضَت الإفصاحَ عنه للشرطة. لكن لأن كارل شيلر حضَر إلى المسكن المستأجر لاحقًا كي يدفعَ الإيجار المستحَق ويأخذ متعلَّقات لوتا،

كان من الواضح أنه يعلم مكان زوجته. على ما يبدو أنه هو مَن أرسل البرقية كي يمنعَ السيدة وارتون من التفتيش عن مستأجِرتها المفقودة. وهكذا يتَّضح أن ثَمة مبررًا منطقيًّا للاشتباه في أن لوتا المستأجرة هي في الواقع كارل شيلر. لكنه كان مجردَ اشتباهٍ لا أكثر. كان يجب التأكدُ من أن سِماته الجسديةَ تسمح له بأن يتخذَ ذلك التنكُّر، ولم يكن بوُسعي الحكمُ في ذلك حتى أراه أو أحصل على وصفٍ مفصَّل له.

في تلك اللحظة كان من الضروري أن أُفضِيَ بشيء من سرِّي إلى ميلر؛ إذ كنت بحاجةٍ إلى مساعدته في المرحلة التالية من التحقيق. وقد أبدى استعدادًا تامًّا لأن يُزوِّدني بنسخٍ من صور السجن والتفاصيل الأخرى، لكنه طلب مني خطابًا لعرضه على مُساعد المفوض الذي كان يلزم الحصولُ على موافقته، فأرسلت له واحدًا، وكانت النتيجة كما تذكرون أنْ زارني مُحضِرًا معه النسَخ. صنعت نسخًا من صور السجن تلك بعد أن أخفيتُ لوحة الاسم، ووضعتها مع صورة فوتوغرافية التقطتُها للصورة الشخصية التي رسمها بيدلي وبضعِ صور شخصية أخرى تمويهية في حافظة لاستخدامها في المحكمة.

والآن صرت مستعدًا لافتتاح القضية في محكمة المواريث والوصايا، آمِلًا في اتخاذ الخطوة الحاسمة. لكني واجهت تحديًا بشأن النهج الذي سأنتهجُه. فقد كان الإجراء الصحيح هو الإفصاحَ عن المعلومات التي بحيازتي لبينفيلد، الذي سيُفصح عنها بدوره للأطراف الأخرى المعنية. لكن من الواضح أن ذلك كان مستحيلًا. واضطُررت مرغمًا إلى أن أسلك النهج المضادَّ وهو المضيُّ قدمًا دون الكشف عن الحقائق الجوهرية أو أمر اكتشافي للمستندات، آمِلًا أن أستطيع إثبات النقاط الجوهرية قبل أن يعترض لوريمر.

لكن يجب أن أعترف أني كنتُ بعيدًا كلَّ البعد عن الثقة في صباح ذلك اليوم الذي انطلقنا فيه إلى محكمة المواريث والوصايا. فقد كان عليَّ أن أحسم مسائلَ معيَّنة، وأن أحسمها بسرعة، وربما لن تسنَح لي الفرصةُ لذلك. وربما تُخالف النتائج توقعي، وفي تلك الحالة كنت سأُضطَر إلى بدء التحقيق من جديد. نادرًا ما أتوتَّر بشأن قضية مثلما كنتُ في ذلك الصباح.

كانت الأسئلة التي كان عليَّ حسمُ إجابتها هي: أولًا، هل لويزا سوندرز هي في الحقيقة لوتا شيلر؟ ثانيًا، هل تتسق سِمات كارل شيلر الجسديةُ مع وصف توم بيدلي للوتا المستأجِرة؟ ثالثًا، هل كان شعره محلقنًا؟ السؤال الأول سيكون من السهل الإجابةُ عليه على الأرجح، لكنَّ السؤالين التاليَين كانت إجاباتهما خاضعةً لاحتمالاتٍ عدَّة. بادئَ ذي بدء، ربما لا يحضر كارل، مع أني كنت أتوقَّع حضوره؛ إذ إن غيابه كان سيَلفت

الأنظارَ، بالنظر إلى مصلحته الواضحة من تلك القضية، وحقيقة أنَّ شهادته كان لا بد من قراءتها وأنني طلبتُ حضوره. لكن حتى وإن كان مطابقًا للوصف، كان ثَمة صعوبةٌ في الحصول على عيِّنة من شعره. ناقشت هذا الأمر مع سنوبر وبحثنا عدةَ خُطط، لكن في النهاية اضطُرِرت إلى أن أترك لعبقريته وجاهزيته أمرَ انتهاز أية فرصة تلوح أمامه.

أنتم تعرفون النتيجة. حين قُدِّم لنا شيلر، رأيتُ على الفور أنه يُطابق الوصف تمامًا. كان طوله نحو خمسة أقدام وسبع بوصات، وعيناه عسليَّتان مَشوبتان بخُضرة، وأذناه تُشبهان تمامًا رسم بيدلي، وأذنه اليمنى بها نتوءٌ دارويني صغير خلَت منه اليُسرى؛ وكان الجزء الذي لا تُخفيه لحيتُه من جانبِ وجهه يتطابق تمامًا مع الصورة الشخصية التي رسمها بيدلي، وأثناء حديثه مع جيرفيز، لاحظتُ أن صوته الرقيق ذا النبرةِ الحادة يُمكن أن يحسبَه المرءُ صوتَ امرأة. كان التطابقُ تامًا. لم يكن ثَمة اختلافٌ واحد حتى، ولم يكن لديَّ أدنى شك في أنه لوتا المستأجِرة، قاتل لوتا شيلر.

لكن اعتقادي لم يكن مكتمِلَ الأركان، ولم يرْقَ إلى مرتبة اليقين؛ فقد ظلَّت مسألةُ الشعر المحلقن غيرَ محسومة. كان ذلك هو الاختبارَ الأخير، وستُلاحظون أنه كان بمثابة سلاحٍ ذي حدَّين. فلوتا المستأجِرة كان لها شعر محلقن قطعًا. إن كان شعرُ هذا الرجل محلقنًا، فهو قَطعًا لوتا المستأجِرة. أما إن لم يكن شعره كذلك، فهو قطعًا ليس لوتا المستأجرة، بغضِّ النظر عن مطابقته التامة لجميع الأوصاف الأخرى. لذا كان يتعيَّن التثبتُ من هُوية هذا الرجل، وتساءلت في نفسي بقلق شديد ما إذا كانت الفرصة ستسنحُ للحصول على عيِّنة الشعر اللازمة للإثبات أو النفي. بدَت مهمةً شبهَ مستحيلة.

نظرت باتجاه سنوبر، الذي تبعَنا إلى قاعة المحكمة، وأشرتُ له بالإشارة المتفَق عليها إلى فريسته؛ فبدأ عمله بتلك الكاميرا الصغيرة المضحِكة خاصته ونجح في التقاط صورتين فوتوغرافيتين جانبيتَين له. ثم تراجع إلى مقعده وجلس ينتظر ضحيتَه؛ الذي ما لبث أن اتخذ لنفسه مقعدًا قريبًا منه، وأسند رأسه إلى ظهر المقعد مطبِقًا جَفنَيه حين كان لوريمر يُلقي خطابه الافتتاحي.

كنتُ أراقب سنوبر في تلهُّف ولاحظتُ أنه ظل يحوم على مَقربة من رأس شيلر. لكن لم يسَعْني رؤية أكثرَ من ذلك؛ إذ إن سنوبر يمتلك مهارةَ حاوٍ في إخفاء حركاته وقدرته على إلهاء الناظرين. ما فعله حقيقةً هو أنه انتظر حتى رفع شيلر رأسه للحظةٍ، وفي تلك اللحظة ترك لطخةً سميكة من مادة لاصقة سريعة الجفاف على ظهر المقعد حيث كان رأسُه يستقر. كان في فعله ذاك جُرأةٌ شديدة، لكن من الواضح أن أحدًا لم يُلاحظه،

حتى شيلر نفسُه. ونجح نجاحًا باهرًا، كما أدركتُ من عاقبته؛ إذ في المرة التالية التي حاول فيها شيلر تحريك رأسه، وجده عالقًا بقوةٍ في ظهر المقعد وكان على سنوبر أن يُحرِّره بمقصه. حينها رأيتُ ما حدث وراقبتُ سنوبر بصبرٍ نافدٍ وهو يكشط اللاصق — متظاهرًا بتنظيف مسند ظهر المقعد — خشية أن يتدخَّل القاضي ويُصادر اللاصقَ المكشوط لفحصه. لكن كل شيء جرى على ما يُرام، واستغل سنوبر فرصةً مبكرة للهرب؛ حينها أدركتُ أن العيِّنة صارت في مأمن، بغضِّ النظر عما ستكشف عنه.

أنتم تعلمون النتيجةَ في الواقع. حين وصلنا إلى تيمبل في استراحة الغداء، وجدتُ سنوبر في انتظاري بفرحةِ انتصار متواضعة بنجاحه، وتسلمتُ منه الكاميرا الصغيرة ومظروفًا مطويًّا يحوي بداخله مادةً دبقة وخصلةً صغيرة من الشعر. لا حاجة بي إلى أن أقول إني أخذتُها على الفور إلى المعمل لفحصها. هناك التقطتُ بضع شعيرات ووضعتُها على شريحة ومعها نقطة من زيت البرجموت وفوقها غِطاء زجاجي، ثم وضعت الشريحة على منصة المجهر ووضعت عيني على منظاره.

كانت لحظة حاسمة؛ إذ كانت حياة كارل شيلر تعتمد على إجابة سؤالي. وقد حصلتُ على الإجابة من النظرة الأولى. كانت الشعيرات محلقنة بوضوح ودون أيِّ شك، وهكذا صار من المؤكد قطعًا أن لوتا المستأجرة وكارل شيلر هما شخصٌ واحد. لكن ذلك الشخص هو قاتل إيما روبي، والسؤال الأخير الذي كان لا يزال قائمًا هو ما إذا كانت إيما روبي هي لوتا شيلر.

عدتُ إلى المحكمة وأنا واثق من قدرتي على إيجاد إجابة هذا السؤال قبل أن يأتيَ الاعتراض المحتوم. وقد كان. حين تعرفَت ليندا دالتون على صور السجن، اكتملَت أركان قضيتي. فقد تعرفتُ عليها عن ثقةٍ وتأكيد لم يتركا مجالًا للشك في ذهني، وصرتُ أعرف أنه بالإمكان الحصولُ على تأكيدٍ إضافي. جاء اعتراض لوريمر متأخرًا جدًّا عن أن يعيق طريقي؛ إذ كان بإمكاني اتهامُ كارل شيلر في التوِّ واللحظة إن شئت.»

سألته: «لِمَ لَم تفعل إذن؟ لِمَ مضيتَ قُدمًا في القضية بمحكمة المواريث والوصايا؟»

أجابني قائلًا: «كان الجزء الباقي من إجراءاتي يصبُّ في صالح الشرطة. فقد كانوا سيَودُّون بناء قضية ذاتِ أدلةِ إثبات ظاهرية قبل أن يُلزِموا أنفسهم بالقبض عليه، بجانب أنني في الحقيقة وعدتُ ميلر بأن أُقدم له دليلًا كافيًا لذلك. لكن الأمر كان يعنيني بقدرِ ما يعنيه؛ إذ كان علينا ضمانُ صدورِ أمر إحالة. ولو أن القضية فشلت في المحكمة الجزئية لكانت كارثة. بجانب أن الجزء الأخير من الإجراءات كانت نوعًا من التمرين؛ إذ مكَّنَتنا من أن نرى على وجه الدقة الأدلةَ التي بإمكاننا أن نُقدمها في المحاكمة.

ها قد استرجعتُ معكم مسار التحقيق وصرتم تعرفون كيف ظلَّت مجموعة الأدلة الظرفية تتراكم كلما انكشفَت لنا الحقائق واحدةً تلو الأخرى. لا داعي للخوض في تفاصيل إعداد القضية، مثل مجموعة الصور الفوتوغرافية وباقي الأحراز التي عرَضناها أمام المحكمة، أو التفكير في الأسئلة التي لن نعرف إجاباتها قط.»

قال بيدلي: «كل ذلك رائع جدًّا للمحامي والعالم المحنَّك يا سيدي، لكن البسطاء من أمثالي سيودُّون الحصول على إجابات لتلك الأسئلة. على سبيل المثال، أود كثيرًا أن أعرف سبب اختيار ذلك الشيطان شيلر لأن يسكن في المنزل المجاورِ لي ويتخذَني صديقًا حميمًا له. لا يمكن أن تكون تلك مجردَ صدفة.»

وافقَه ثورندايك قائلًا: «هذا صحيح، فلا يُعقَل أن تكون كذلك. لكن إن كان تخمينُ دوافعه لذلك سيُريحك، فأنا أعتقد أنَّ لديك أساسًا تنطلق منه. لقد كان يبحث عن حيٍّ مناسب لا يعرفه فيه أحدٌ وعن غريبٍ ملائم يتَّخذه صديقًا. رأى اسمك وعنوانك مذكورَين في الصحف باعتبارك «الفنان الغامض»، ولما لم تتقدَّم للإدلاء بما لديك من معلوماتٍ وبدا أنك لستَ على علمٍ بالجريمة، ربما لاحظ أنك قطعًا لستَ شخصًا فُضوليًّا يتدخل في شئون الغير. كان الحيُّ الذي تسكن به ملائمًا تمامًا له، ومِهنتُك مثالية لكي يُدبِّر صدفة للتعرف بك، شريطةَ أن يستطيع انتحالَ شخصية فنانٍ زميلِ مهنة؛ وقد جعلَت النزعة الحاليَّة تجاه الرسم الطفوليِّ والهمجي، مقترنة بالاستخدام الحصيف لمصطلحات المِهنة المتداولة حاليًّا، ذلك ممكنًا جدًّا. أعتقد أنه أحسنَ الاختيارَ للغاية.»

قال بيدلي معترضًا: «أظن أن رؤيتي له في الغابة ذلك اليوم كانت ستثنيه عن ذلك.»

«لكن يا عزيزي بيدلي، هو لم يكن يعرف أنك رأيتَه. يبدو أنك نسيت. إن الشرطة لم تُفصِح عما أدليتَ به من معلومات. ولم تَظهر في الصحف قط. بجانب أنك في النهاية لم تتعرَّف عليه مع أنك رأيتَه. كلا يا صديقي، لا أظن أن ثَمة لغزًا كبيرًا وراء اختيارِه لك؛ لكن ثَمة أسئلة أخرى إجابتها أصعب بكثير.»

قلت مقترحًا: «هل تعني مسألة تَقبُّل لوتا لإدانتها بجُرم لم تقترِفْه؛ إذ إنني أعتقد أن شيلر هو من دسَّ لها تلك الأوراق المالية المزورة عمدًا، وأنها عرَفَت بالأمر، إلا أنها لم تستطع تخمين قصدِه من وراء ذلك بالطبع. لكن لماذا لم تُفصِح عن مصدرها؟»

أجاب ثورندايك: «ربما كانت مرتعبة منه؛ لعِلمها بأنه قاتل، فلم تَجرُؤ على إلقاء اللوم عليه، ومن المحتمل حتى أن تكون قد قَبِلت بالسجن طواعيةً كملاذٍ لها منه. لكننا لن نعرفَ قط الحقائقَ الفعلية، ومحاولة تخمينها لن يُفيد كثيرًا.»

قال فاندربوي: «لقد تحدثتَ يا جيرفيز عن غرضه من دس تلك الأوراق المالية لها. فماذا كان غرضه من ذلك؟»

قلت: «أعتقد أن غرضه كان إزاحتَها عن الطريق بطريقة آمنة ريثما يُجري استعداداته لانتحال شخصيتها ويستعدَّ لقتلِها حين تَخرج، قبل أن يُتاح لها وقتٌ كافٍ للتواصل مع أصدقائها، وأعتقد أنه كان يعلم أنها تُفضِّل دخول السجن تحت اسمٍ مستعار على إثارة فضيحةٍ واستفزازِه. ما رأيك يا ثورندايك؟»

«أعتقد أنك مُحق على الأرجح، لكننا لا نعلم يقينًا ولن نعلم قط. كما أن ذلك لا يعنينا حقًّا. لقد عرَفنا ما يكفي لهزيمة مجرمٍ بارع للغاية، وعلينا أن نقنع بذلك.»

قلت: «حتى إن كان ذلك يهدم خُطةَ جون دو المنيعة؟»

رد بجِدَّة: «وهل يهدمها حقًّا؟ أعتقد يا جيرفيز أنك تُغفِل بضع حقائقَ جوهرية للغاية؛ أولًا، شيلر لم يُنفِّذ خطة جون دو بحذافيرها، وحِيادُه عنها كان السببَ في هلاكه. فجون دو، بعد أن يرتكب جريمته، يخلع تنكُّره ويختفي دون أثر، ومِن ثَم لا يترك خلفه أيَّ أدلة. لو أن شيلر فعل ذلك، لما أُثيرت حوله أيُّ شبهات. لكنه اختار أن يُدبِّر تلك الجريمة الوهمية في الغابة، وبهذا ترك وراءه طرَفًا سائبًا.

ثم إنك تُغفِل النتائج الهائلة للصدفة غيرِ المتوقَّعة. فقد كان احتمالُ الشعر المحلقن واحدًا في المليون، واحتمال أخذ بولتون لبصمات أصابع القتيلة، واحتفاظ بيدلي بها ليس أكثرَ ترجيحًا منه. لكنك إن طرحتَ هذَين الظرفَين المستبعَدين تمامًا، لما وُجِدَت قضية من الأساس. ولأصبح شيلر في مأمنٍ تام؛ إذ لم أكن لأستطيع قط أن أصلَ إلى أبعدَ مِن مرحلة الاشتباه.

وبعد، فإنك أغفلتَ حقيقةَ أن مخطط شيلر نجح بالفعل، رغم الدور الذي لعبَته الصدفةُ ضدَّه. فقد ظل حُرًّا طليقًا على مدى عامَين، ولم يشكَّ به أحدٌ على الإطلاق. إنها لحقيقةٌ فعلية أنه حين قصدَني بينفيلد، لم يكن لدى أيِّ شخص في العالم، عداي، أيُّ شك في أن مَن اختفت في الغابة كانت بالفعل لوتا شيلر. حتى الشرطة التي لم تقتنع بجريمة القتل الوهمية، لم تتَشكَّك في هُوية ضحيتها.»

قلتُ في إصرار: «لكن الحقيقة التي لا يُمكن إنكارها أن مخططه قد باء بالفشل، وأنه سيُعدَم شنقًا.»

قال ثورندايك مؤيدًا: «أجل، لقد أجهَضَ مخطَّطَه ما لم يكن في الحسبان، وما لا يُمكن وضعُه في الحسبان. إنَّ فشله يُبرهن على حقيقة مقولة هيربرت سبنسر بأن

الظواهر الاجتماعية معقَّدة لدرجةٍ تجعل التنبؤ بنتائجها مستحيلًا. ولكن دون التنبُّؤ، لا يمكن وضعُ خُطة يكون من شأنها أن تُسفِر عن الآثار المرجوَّة حتمًا. هذا هو سبب فشل المصلِحين الاجتماعيين وغيرهم من المخطِّطين. فهم لا يضعون في حسبانهم العواملَ المجهولة. لكن عادةً ما يحدث أن تكون تلك العوامل المجهولة هي العواملَ المؤثرة، كما حدث في قضية كارل شيلر.»

قال فاندربوي: «هذا صحيح جدًّا يا سيدي، والعامل المجهول المؤثر في تلك القضية كان وجودَ رجل يُدعى جون ثورندايك.»

هنـــداوي